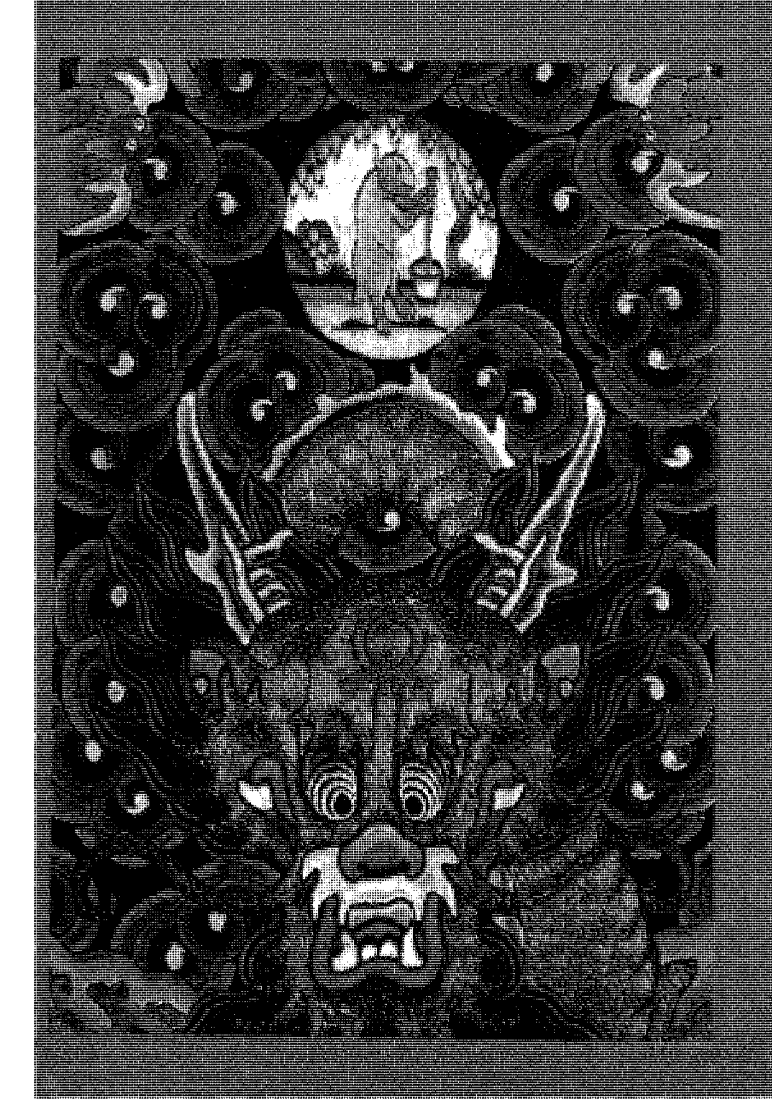
عبد الحميد الجوهري

الروح والروحية الحديثة



بحث متزن

في

وجود الروح

حياة الآخرة

عالم الأثير

ظواهر الاتصال

الـ ... ـدات

الشرق

الروح والروحية الحديثة

بحث متزن

في إثبات وجود الروح

في حياة الآخرة

في عالم الأثير

في ظواهر الإتصال

في التجسدات

المؤلف ـ الأستاذ عبدالحميد الجوهري
عنوان الكتاب
الروح والروحية الحديثة

رقم الإيداع القانوني 1095 / 1999
ردمك ISBN. 9981-25-160-7

أفريقيا الشرق ــ المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء .
الهاتف 25.98.13 - 25.95.04 ــ فاكس 440080

أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان
ص. ب. 3176 - 11

ذ. عبد الحميد الجوهري

الروح والروحية الحديثة

بحث متزن

في إثبات وجود الروح

في حياة الآخرة

في عالم الأثير

في ظواهر الإتصال

في التجسدات

أفريقيا الشرق

إهــــداء

إلـى مـن ألهتـه الـدنيا عـن الآخـرة.

تأمـل مــصيرك فـي هـذا الـكتاب.

فلعله يغير موازينك.

إن كـان كـذلك، أسـألك الـدعـاء.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله خير الأسماء، والصلاة والسلام على المصطفى

وبعد : فإن الروحية الحديثة أخذت في إنتشار، وأصحابنا لازالوا في غمرة من الجهل والجهالة الحمقاء. فبعضهم بين منكر وعنيد، وبعضهم بين شك ويقين.

وما أحوجهم إلى الدخول إلى صلب الموضوع بعمق أولا، ثم بعد ذلك يصدرون الأحكام. من أجل ذلك حاولت أن أدلو بدلوي في هذا الكتاب الموجز الذي أسميته «الروح والروحية الحديثة» موضحا فيه إثبات الروح وخلودها، بحقائق علمية من غير الدخول في متاهات فلسفة عقيمة، مدعما ذلك ببينات وشهادات وما أثبتته الروحية الحديثة في شأن تفسير حياة الآخرة، ببحث علمي متزن واضح وضوح الشمس لا غيم عليه، مع بيان الطبيعة والزمان والمكان والمجتمع العائلي في ذلك العالم، مفسرا خلود الروح في عالم الأثير مع تفسير للكون الأثيري، وارتباطه بالجسم الأثيري للإنسان، بناء على ما وصل إليه العلم وما كشفته الأرواح نفسها وما دار فيه من حوار بين المعتقدات وأهل الفكر.

وقد سلكت في هذا الكتاب نهج البحث السليم، عساه أن يكون نفحة للفكر، وحافزا نحو تبديد الشك والعناد، سائلا من الله العلي القدير، أن يقيلني العثرات، ويفتح لي باب المكرمات، إنه هو الكريم المتعال، وصلى الله على خير الأولين والآخرين.

ذ. عبد الحميد الجوهري

الباب الأول

إثبات وجود الروح

-I-

دليل وجود الأرواح

قال الإمام محمد الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" عند قوله تعالى «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي» فاستدل على الروح بدلائل نذكر منها قوله «الحجة الخامسة، أن الإنسان يكون حيا حالما يكون البدن ميتا فوجب كون الإنسان مغايرا لهذا البدن والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون» فهذا النص صريح في أن أولئك المقتولين أحياء والحس يدل أن هذا الجسد ميت. الحجة السادسة : قوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا» وقوله تعالى «أغرقوا فأدخلوا نارا» يدل أن الإنسان يحيا بعد الموت، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام «أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار» وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام «من مات فقد قامت قيامته» كل هذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت ولو جوزنا كونه حيا لجاز مثله في جميع الجهادات، وذلك عين السفسطة، وإذا ثبت أن الإنسان حي وكان هذا الجسد ميتا لزم أن الإنسان شيء غير الجسد. الحجة السابعة : قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة طويلة «حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش ويقول يا أهلي ويا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حله وغير حله، فالغنى لغيري والتبعة علي، فاحذروا مثل ما حل بي» وجه الإستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأنه حال ما يكون الجسد محمولا على النعش يبقى هناك شيء ينادي ويقول يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حله وغير حله، ومعلوم أن الذي كان الأهل أهلا له وكان جامعا للمال من الحرام والحلال والذي بقي في رقبته الوبال ليس إلا ذلك الإنسان، فهذا تصريح بأنه في الوقت الذي كان الجسد ميتا محمولا كان ذلك الإنسان حيا باقيا فاهما، وذلك تصريح بأن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل.

ويقول في الحجة الحادية عشرة : أن كثيرا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام، ويقول له اذهب إلى الموضع الفلاني فإن فيه ذهبا دفنته لك وقد يراه فيصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان ذلك، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى بعد الموت ودله الحس على أن الجسد ميت كان الإنسان مغايرا لهذا الجسد الميت». ويرى الرازي في قوله تعالى «وقال الشيطان لما قضي الأمر أن الله وعدكم» الآية - من سورة إبراهيم احتمالا ثالثا لما ذكره بعض العلماء، وهو أن النفس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبها في تلك الأبدان وكملت فيها، فإذا حدثت نفس أخرى مشكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة، ثم إن كان هذا المعنى في باب الخير والبركات كان ذلك إلهاما، وإن كان في باب الشر كان وسوسة، فهذه وجوه محتملة تفريعا على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة، فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم» انتهى قول الرازي.

وعن أنس بن مالك قال : سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوف الليل يقول «يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام، فعدد من كان منهم في القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا» فقال المسلمون، يا رسول الله أتنادي قوما قد جيّفوا ؟ قال : «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا».

-II-

خلود الروح حقيقة علمية

انتهت الحقيقة العلمية بعد سنين طويلة من البحث الشاق والمتواصل إلى أن حقيقة خلود الروح أمر فيه من الجد أكثر مما فيه من الخرافة، وتبين بعد هذا الموقف الجدي أن الأمر خطير وأنه أعظم من أن يترك لأي كاتب يخوض فيه، ولم تكن هذه البحوث تجري في جو مرض لأصحابها، بل كانوا هدفا لحملات عنيفة، وقد بلغ الهجوم أوجه ما بين سنة 1852م و 1862م بحجة الحرص على العقيدة الدينية، فبدأ الأمر يضعف بالتدريج حين ظهرت الكشوف، وظهر أن ذلك أهم حقيقة دينية، وهي حقيقة الحياة بعد الموت وحقيقة الثواب والعقاب، وبالتدريج بدأ هذا البحث يكتسب أنصارا من بين رجالات الدين والإعتراف بمشروعيته لما رأوا صحة الظواهر جيدا.

وهكذا أصبح العلم الروحي الحديث مؤسسا على أسس علمية ودينية في نفس الوقت واختفت الهوة بينه وبين العقيدة في شأن حقيقة الروح من جهة، وبين كافة الأديان والأجناس من جهة أخرى.

والعلم الروحي الحديث رسالة جليلة، فهو قد أثبت حقيقة أدركها عقل الإنسان بالفطرة أولا ثم بالفلسفة ثانيا ثم بالتجربة ثالثا، وبهذا يطمئن الإنسان ويتفتح ذهنه على أمور كثيرة لا يمكن فك طلسمها إلا هذا البحث المعملي فيما وراء الطبيعة الذي هو رأس قنطرة إلى عوالم غير محدودة تعيش فيها كائنات بشرية غير منظورة لنا كانت بين ظهراننا تعيش في يوم من الأيام، وسنكون من سكانها نحن أيضا في يوم من الأيام، والذي ينبغي أن نستعد له من الآن إن نحن أردنا حسن الخاتمة، كما ينشيء صلة يتمناها كل إنسان مع أحيائه وذويه ممن فصلهم الموت، زيادة على آفاق البحوث الجديدة والقيم الإجتماعية والخلقية، وهذا ما يدعم الإيمان بالله بعد موجة الإلحاد، ويخفف الكثير من رهبة انتظار الموت، ويتأكد بأن روح الموت لا يطفىء شيئا، بل يزيد شعلة النفس قوة وضياء.

ويقول «سير أولڤرلودج» الذي واصل بحثه في هذا الموضوع أكثر من نصف قرن، في محاضرة له سنة 1934م : «إنني دائما أتسلم رسائل ممن هم في حزن عميق لفقدهم طفلا أو شابا، أو شابة. أؤكد لهم أن الأحوال على مايرام مع ذويهم هناك. لقد وضع الأطفال تحت رعاية قلوب رحيمة، إن الحجاب بين العالمين لجد رقيق، ومن الممكن إذا كانت الظروف مواتية الإتصال بهؤلاء الذين نسميهم أمواتا، إذ أنهم لازالوا يهتمون بعطفنا وحبنا ثم يبادلوننا هذا الشعور بأقوى منه، ولا يؤذيهم سوى حزننا المتزايد. إنهم لا يعتبرون أنفسهم أمواتا، بل أحياء موفوري الحيوية، محررين من هذا الجسم الثقيل، قادرين على التنقل في حرية في حالتهم الجديدة هذه، مستعملين الجسد الأثيري الذي هو في حوزتهم دائما».

كما يقول البحاثة الروحي «جيمس آرثر فندلاي» صاحب الخبرة الواسعة في هذا الفن : «إن الموت ـ كما أنبئت ـ سهل وبسيط كالذهاب إلى النوم والتيقظ، فجسمنا الأثيري ينسل من جسمنا الفيزيقي حاملا العقل، ثم نصحو في هذا الوسط الجديد فنجد أن أصدقاءنا وذوي قربانا على استعداد لمساعدتنا وإرشادنا في حياتنا الجديدة. . . ويعود الجسم الفيزيقي إلى الأرض، أما الجسم الأثيري وهو الذي يهيمن على العقل فيستمر في تأدية وظائفه في هذا العالم الأثيري. . . وتبقى الشخصية وهي بمعزل عن المادة الفيزيقية، وسنظل نفكر كما نفكر الآن، لأن كمية العقل الصغيرة التي لدى كل منا هي نفسها التي تؤثر في الجسم الأثيري وحده».

وهذه روح راقية للحكيم «سيلڤر بيرش» يقول : «أريد، وقد عشت في عالم الروح سنين كثيرة، أن أخبر المحزونين المكلومين أن الموت لا يمكن أن يفرق بين أولئك الذين وصلت بينهم المحبة، فالمحبة تخترق كل الحجب والتخوم، وهي دائما تبلغ ما تريد، لا تنتحبوا لأن من تحبونه قد انتشل من عالم الشقاء والصراع والجهل وأدخل في حياة أكبر تظهر فيها بأسلوب أغزر الصفات الفطرية للإنسان. . . جففوا دموعكم حيث لا داعي للحزن، لأن من تحبون قريب منكم دائما، الموت لا يذهب بالمحبة، فالمحبة غير متناهية والروح الأعظم غير متناهية كذلك».

وقد صدق «كنط» حين قال : «سيجيء الوقت الذي يثبت فيه أن نفس الإنسان متصلة فعلا بعالم الأرواح اتصالا وثيقا لا ينحل، وأن هذا العالم يؤثر في عالمنا ويطبعه بطابع عميق».

وقد شدتني هذه الفقرات وأوقفتني في تأمل عميق، هذه الفقرات التي سأنقلها بالحرف للبحاثة الذي قتل هذا الموضوع بحثا، وذلك من كتابه «الإنسان روح لاجد» الجزء الأول، إنه

الدكتور «رؤوف عبيــد» الذي له مؤلفات في هذا الباب، يقول بدءا من الصفحة 22 «كنت قرأت كلمة مقتضاها أن حياة إنسان واحد تبدو لا قيمة لها في خضم الحياة، مع أن هذا الكون كله لا يساوي شيئا بجانب حياة إنسان واحد. . . كم هي إنسانية هذه الكلمة، لكن لا تبدو على حقيقتها إلا للروحي الذي يعلم أن أي كوكب في هذا الكون مهما كان حجمه عرضة للزوال، لأنه من مادة صلبة، أما أي روح إنسانية فإنها لا تقبل الزوال لأنها شعلة قدسية انبثقت من جوهر الحياة الكونية، التي صنعت الكواكب والنجوم، كما تفنى هذه وتلك عند اللزوم وتنمو في رونقها شعلة النفس الخالدة!. . . ثم هل هذا الكوكب الذي نعيش فيه يعد في صحيفة الكون شيئا مذكورا ؟ إن الكون عبارة عن نظام يضم ألوف الملايين من المجرات وكل مجرة منها تحتوي على ألوف الملايين من النجوم، وعند الحافة الخارجية لمجرة منها تسمى "طريق التبانة" يوجد نجم متوسط الحجم معتدل الحرارة، ازداد لونه اصفرارا بسبب الشيخوخة هو شمسنا التي تدور حولها – وسط خضم هائل من الحركة في كل اتجاه – بسرعة حوالي 18.000 كيلومتر في الساعة.

ولقد أظهر الإحصاء الذي أجرى لقطاعات مختارة من طريق التبانة بمعرفة علماء الأرصاد بجامعة «هارفارد» هناك أكثر من مليوني نجم منفرد، وعلى أساس هذا الإحصاء – ولاعتبارات تتعلق بالقوة المحركة – قدروا أن هذه المجرة وحدها تحوي حوالي مائة ألف مليون نجم، وكما حصلوا على صورة لأطراف الكون قدروا أن الكرة الأرضية قد انخفض حجمها إلى حجم نقطة حبر عادية قطرها نصف مليمتر بدلا من قطرها الحالي وهو 12.740 كيلومتر، أي انخفضت إلى أقل من واحد على 25 ألف مليون من حجمها الأصلي، فإن كل أبعاد الكون تنكمش بنفس النسبة، وعندئذ وصلوا إلى هذه النسب الناطقة بضآلة الأرض :

- المسافة من الأرض إلى الشمس تصبح حوالي ستة أمتار
- المسافة إلى أقرب نجم تصبح حوالي 1.617 كيلومتر
- قطر طريق التبانة يصبح حوالي 37.615.000 كيلومتر
- المسافة إلى مجرة أخرى يطلق عليها «مجرة المرأة المسلسلة» تصبح حوالي 732.370.000 كيلومترا.

فهل يعد كوكبنا بعد ذلك شيئا مذكورا ؟. . . وهل يتصور عقل عاقل أن الحياة كلها قد تركزت فيه وأن كل هذا الكون مسخر لخدمته كما يتصور الرأي المادي؟. . . إن أي باحث

روحي يعلم أن هذا الكوكب لا يعد شيئا مذكورا، وأنه عرضة للتلاشي إذا أرادت له ذلك حكمة الله، أما حياة أي إنسان فقد أرادت لها حكمة الله الخلود، فهل يمكن لأية فلسفة أخرى أن تقدر الحياة الإنسانية هذا التقدير، وتقيم الدليل عليها تلو الدليل؟. . .

وليس قدر الإنسان في خلوده فحسب، بل أيضا في خضوعه لنواميس عاقلة عطوفة عليه تعرف له قدره، تريد له النجاة أبدا، أو بالأدق تريد له التطور المستمر إلى مستوى متزايد من الإرتفاع عن طريق الإرتقاء التدريجي - الذي يتوقف على إرادة الإنسان تحديد سرعته ومداه - في تكوينه العقلي والعاطفي والخلقي، والذي يجيء بسبب الخبرة التي يكتسبها حتما من المشاهدات ومن التجارب المتواصلة التي تفرضها عليه حياته التي لا تتوقف، لو عرف كيف يستفيد منها في بيان حاضره ومستقبله، عند تنقله من مستوى إلى آخر من مستويات هذا الوجود غير المحدود، بحكم قوانين محايدة. . . فهل هنالك ما هو أعدل من ذلك ؟»

-III-

الروح وفلاسفة الإسلام

يقول الفيلسوف «الفارابي» في كتابه «الثمرة المرضية» «ان الروح الذي لك من جوهر عالم الامر، ولا يتعين باشارة، ولا يتردد بين سكون وحركة، فلذلك تدرك المعلوم الذي فات، والمنتظر الذي هو آت، وتسبح في عالم الملكوت، وتنتقش من خاتم الجبروت».

ويقول الفيلسوف «ابن سيناء. . . . «تأمل أيها العاقل في انك اليوم في نفسك هو الذي كان موجودا في جميع عمرك، حتى انك تتذكر كثيرا مما جرى من احوالك، فانت اذن ثابت مستمر لا شك في ذلك، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتا مستمرا، بل هو أبدا في التحلل والانتقاص، ولهذا يحتاج الانسان الى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه، ، ، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة، فهذا برهان عظيم يفتح باب الغيب، فان جوهر النفس غائب عن الحس والاوهام».

ويقول في باب آخر «اعلم ان الجوهر الذي هو الانسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لان جوهره أقوى من جوهر البدن، لانه محرك البدن ومدبره ومتصرف فيه. والبدن منفصل عنه تابع له، فاذن لم يضر مفارقته عن الابدان وجوده» الى ان يقول : «ثم ان الانسان في نومه يرى الاشياء ويسمعها، بل يدرك الغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له في اليقظة. فهذا برهان قاطع على ان جوهر النفس غير محتاج الى هذا البدن، بل هو يضعف بمقارنة البدن ويقوى بتعطله، فاذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن» أما الامام أبو حامد الغزالي، فقد يتحدث عن النفس والروح ويفرق بينهما بقوله : «فالنفس لديه هي ذلك الجوهر الذي يجمع بين عالمين وهما عالم العقل أي العالم الالهي، وعالم الحس أي العالم المادي» وقد وصف الغزالي العالم الثاني بالظل والخيال للعالم الاول حيث قال : «ان الرحمة الالهية جعلت عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت، لانه لا يوجد شيء في العالم الاول الا وهو مثال لشيء من

ذلك العالم، وربما كان الشيء الواحد مثالا لاشياء من عالم الملكوت، وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة».

والامام الغزالي يرى ان الجسد مسكن الروح وتظل فيه لمدة محدودة حتى ينقضي اجلها بسبب عناية ربانية كما تتزود لاخرتها. كما يقرر بان سعادة البشر لا تتم الا بعد الموت، فيقول : «وهناك تختلف حظوظ الناس منها، فان النفوس التي تشغل بالبدن فيلهيها ويصرفها عن الشوق وطلب الكمال الذي قدر لها، وعن الشعور بلذة هذا الكمال لا تستطيع التخلص بعد الموت مما لحقها من ثقل البدن وشهواته، وتجد ان هناك نوعا عظيما من التضاد بين العالم الذي غادرته والعالم الذي انخرطت في سلكه، وحينئذ يشتد بها الاذى، ومع ذلك فان هذا الاذى لا يدوم ابد الدهر، لانه لم يكن ذاتيا بل يرجع الى اسباب عارضة، واذن فلا تخلد هذه النفوس في العذاب ابد الدهر، وانما تنمحي ذنوبها شيئا فشيئا حتى تصفو وتدرك السعادة التي قدرت لها».

أما ابن رشد فيقول في كتابه «تهافت التهافت» «إنا ندرك النفس وأشياء كثيرة، وليس ندرك حدها، ولو كنا ندرك حد النفس مع وجودها لكنا نعلم ضرورة من جودها انها في جسم او ليست في جسم، لانها ان كانت في جسم كان الجسم ضرورة مأخوذا في حدها، وان لم تكن في جسم لم يكن الجسم مأخوذا في حدها، فهذا هو الذي ينبغي ان يعتقد». ثم يتفق صراحة مع الامام الغزالي عند قوله : «وما يقول هذا الرجل جيد، ولا بد في معاندتهم ان توضح النفس غير فانية كما دلت عليه الدلائل العقلية والشرعية، وان يوضح ان التي تعود هي أمثال هذه الاجسام التي كانت في هذه الدار لا هي بعينها، لان المعدوم لا يعود بالشخص». وفي هذا القول اشارة الى الجسد الاثيري.

ويرى «عبد الله بن القيم الجوزية» في كتابه «الروح لابن القيم» ان البينات عن ارواح الاموات والاحياء بدليل الكتاب والسنة والاثار واقوال الحكماء والعلماء غنية. وقد يقسم الارواح الى معذبة ومنعمة ويبين شواهد كثيرة عن تلاقي أرواح الاموات مع بعضها ومع الاحياء أيضا. وقد يصف الروح بقوله «تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها».

ومن يراجع أقوال بعض فلاسفة المسلمين الآخرين أمثال ابن باجة وابن طفيل وغيرهم يجد الكثير من حقائق الروح وخلودها وسعادتها وشقائها. وما أكثر الآيات البينات والاحاديث النبوية في هذا الموضوع.

-IV-

مقارنة بين قول الأرواح وبين القرءان والحديث

كتبت إحدى الجرائد الروحانية الألمانية الحديث التالي :

في شهر غشت سنة 1882م قعد ثلاثة أشخاص من مدينة «ج» حول طاولة لمكالمتا، فلما استقر بهم الحال، أخذت المائدة تتحرك اشارة الى رغبتها في التكلم، فدار بينهم الحديث الآتي :

س – من الطارق ؟

ج – خياط مقتول

س – كيف قتلت ؟

ج – مر علي قطار فداسني

س – متى كان ذلك ؟

ج – منذ ثلاث سنين

س – وأين تم ذلك ؟

ج – في «أونتر بارمن»

س – أي يوم ؟

ج – في 29 غشت سنة 1879

س– ما اسمك ؟

ج – «سيجوار ليكوبيسك»

س – أين كان مقرك ؟

ج – في «بارمن»

س – هل والدك على قيد الحياة ؟

ج - نعم

س - أكنت معلما أم صانعا ؟

ج - كنت أجير صانع

س - في أي سن قتلت ؟

ج - في السابعة عشرة من عمري

س - هل أنت سعيد ؟

ج - نعم، كثيرا

س - هل تستحسن أن نبلغ ذلك لوالديك ؟

ج - كلا

س - لماذا ؟

ج - لانهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت

س - ربما هذا يقنعهما ؟

ج - لا ينوبكم من ذلك الا السخرية

س - كيف تم حادث قتلك ؟

ج - كنت ذاهبا لزيارة أنسباء لي في «أونتربارمن» وإذ كنت ماشيا في طريق لم ألمح لضعف بصري قدوم القطار فمر علي وداسني.

س - بماذا تشتغل الآن ؟

ج - لا أستطيع وصف ذلك

وفي اليوم التالي كتب أحد الحضور الى مديرية «بارمن» لتقصي الخبر فكان الجواب التالي : إجابة لطلبكم رقم 8 الجاري، أتشرف باعلامكم اننا على إثر مطالعتنا سجلات المديرية وجدنا ان الصانع الخياط المدعو «سيجوار ليكوبيسك» وله من العمر سبع عشرة سنة، بينما كان مارا في طريق «اونتربار من ليلة غشت سنة 1879 الساعة 11 والدقيقة 14 مر من فوقه قطار السكة الحديدية فقتله ونسبت قضيته الى تجول القتيل جهلا منه في طريق القطار». حقا من الصعب أن يثق الانسان بمثل هذا الحادث، ولكنه الواقع الذي توصل اليه العلم الروحي الحديث بالبرهان والحجة، وكم لفت نظري ما قاله الشيخ طنطاوي جوهري في تفسير لقوله تعالى «واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» وسأنقلها

بالحرف من كتابه «الارواح» ص 36 «يقول الله تعالى» واذا وقع القول عليهم» اي شارف الوقوع وهو قرب قيام الساعة وحقت كلمة العذاب على نوع الانسان، فجهلوا المعنويات وعكفوا على الماديات. وكذبوا الديانات وشكوا في الايات، واصبحوا لا شرف لهم في حكوماتهم ولا أفرادهم ومرنوا على الكذب والنفاق وازدادوا بالعلم عمى وبالفلسفة ظلما أخرجنا لهم من الارض من يطرق الموائد ويحركها ويمسك الاقلام في ايديهم ويكتب ويتراءى لهم في أشكال وأزياء مختلفة ووجوه نورية فتراه أبصارهم تارة ويسمعون كلامه وطورا يبصرون أشكالا وتارة يقرؤن خطوطا وآونة يسمعون صريرا وصوتا شديدا كالرعد القاصف وقد يحسون ببرودة تمر عليهم ثم تتحرك الايدي بالكتابة فكان في عمله أشبه بمن يدب على الارض من الانسان في تعلقه وعمله يجري فوقها من الدواب في حركاتها وأعمالها الاخرى، فهذا يشير له معنى قوله أخرجنا لهم دابة من الارض، وهذه الدابة تبين للناس حقائق وتدرس لهم حكمة وتريهم انهم غافلون جاهلون ضالون فيجلس امامها اكبر الضالين واعظم الفاسقين واشد الغافلين، ومن يدعي انه ملك مقاليد العلم وبرع في الحكمة المادية فيخر ساجدا لربه خاضعا لخالقه موقنا أن روحه ستبقى بعد موته. فهذا معنى «تكلمهم بان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» وهذا هو الحاصل الآن بعينه، وهذه معجزة للقرءان وحكمة ثابتة للفرقان، فان الآلاف المؤلفة من البشر اليوم في انحاء العالم يوقنون اذا تحققوا مذهب الارواح، وليس الايمان بكاف بل اليقين هو اكمل الايمان، فتعجب من الآية وانظر كيف كان هذا مظهرها وهي مسألة ظهور الاوراح، فالقرءان يشير إليها».

وقد يزيد الشيخ طنطاوي جوهري شرحه للآية وهو في حوار قائلا :

«قال شير محمد، ياسيدي إن تفسيرك هذا يخالف ماجاء عن سيد البشر، وكيف نترك قول النبي ونسمع مقالك، أو ليس النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بالكتاب منك. قلت : وكيف ذلك ؟ قال : قال الفخر الرازي ان لهذه الدابة أربع قوائم وزغبا وريشا وجناحين، وعن ابن جرير في وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير، وانها تخرج من المسجد الحرام أو تخرج من الصفا، وقيل تخرج باليمن ثم تخرج عند الركن حذاء دار بني مخزوم، فقلت ياشير محمد، اعلم انه لا دلالة في الآية على ما روى، وقد قال الرازي نفسه، «فان صح الخبر فيه عن رسول الله قبل والا لم يلتفت اليه، وهو يريد ان الخبر غير صحيح. اقول ولقد بحثت في كتب الصحاح فلم أعثر على هذا الوصف للدابة. على انه لو صح فرضا لدل على انها مخالفة لكل حيوان. فقال : ولكن

كيف تقصرها على مسألة الارواح وانى لك هذا ؟ فقلت : ياشير محمد، أنا لم اقل ان هذا هو المعنى، ولكن اقول أنه رمز له واشارة، نكل علمها الى الله تعالى وتكون رمزا لهذا، وهذا قسم من اقسام الكناية في علم البيان، فاللفظ على حاله يشير لما اقترب منه كما أوضحه الامام الغزالي في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم «ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة» فقد جعلهما على حالهما، ورمز بهما الى الشهوة والغضب، فافهم» انتهى قول المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري.

فما أصدق قول الله عز وجل «ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليومنوا الا ان يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون».

-V-

رأي بعض المفكرين والأدباء

إن موضوع الإتصال بالعالم الروحي تسرب أيضا إلى أذهان ثلث من المفكرين والأدباء، فنكاد نجد أن أدباء إنجلترا بوجه خاص ممن لهم باع في تأثير الكلمة قد أمسكوا القلم وأعلنوا جهارا وشعروا بخطورة الموضوع وفائدته العظمى فكرسوا شطرا من وقتهم لنشر المعرفة الروحية غير مبالين بسخرية الساخرين، ومن هؤلاء «وليام ت. ستيْر» «1849 - 1912م» وهو مدير مجلة المجلات ونقيب الصحافة البريطانية، حيث كان نفسه وسيطا، وقد أسس مكتبا للإتصال بالأرواح مجانا بإيعاز من روح تدعى «جوليا» وأسماه «مكتب جوليا» وتحمل نفقاته من جيبه.

وانتقل "وليام" إلى عالم الروح، فظل يراسل بدوره من العالم الآخر عن طريق الوسيط «بارودي ودمان» حتى أنه أملى كتابا كاملا تحت عنوان «الجزيرة الزرقاء» ترجمه إلى العربية الأستاذ عبد الحميد فهمي مطر تحت عنوان «ميت يتكلم».

ومن الأدباء الكبار أيضا «آرثر كونان دويل» الذي كان طبيبا وأديبا وخطيبا وقصصيا، وكانت له تجارب في الميدان الروحي دامت أزيد من ثلاثين سنة، فدفعته إلى تأليف كتبه المعروفة منها «الوحي الجديد» و«الرسالة الحيوية» و«تاريخ الروحية الحديثة» و«مغامرتنا الأمريكية» و«مغامرتنا الأمريكية الثانية» و«البينة على التصوير الروحي» كلها كتب روحية، زيادة على كتب ورسائل واردة من عالم الروح منها «القاريء الروحي» كما ساهم في إنشاء «الكلية البريطانية للعلم الروحي» واختير عضوا في جمعية البحث الروحي، وأصبح رئيسا شرفيا للإتحاد الروحي الدولي سنة 1925م ورئيسا شرفيا للإتحاد الروحي الأهلي بلندن. كما أسس سنة 1925م متحفا روحيا بلندن عرض فيه صورا فوتوغرافيا للأرواح وكتابات للوسطاء الروحيين ومجلوبات روحية.

وانتقل «دويل» إلى عالم الروح، فظل يشرف من الجانب الآخر على بعض الدوائر الروحية وكتب كتابه «أنباء من العالم الآخر» بجانب رسائل كثيرة أملاها على الوسيطة «جريس كوك» ومنها هذه الرسالة التي أختارها من رسائله حيث يقول :

«وصف أثناء حياتي بأنني صاحب رسالة، وها أنا مازلت أتمم هذا العمل لسكان الدنيا، ولو اختلفت الرسائل عن تلك التي تعودت اتباعها، ما أصعبها من مهمة، مهمة الإتصال مع الأرض وسكانها، إن كل شيء يختلف عما كنت أنتظره. . . عندما ينتقل المرء يخلع المحارة أو الرداء الذي كان يضم النفس عند حياتها الأرضية، هذا الرداء يظل في العالم الذي نموت فيه لكي نرتفع إلى حياة روحية حقة. . . ويجب أن ندرك أن نسبة كبيرة من الناس الذين يعيشون في العوالم النجمية ليس لهم رغبة بالمرة في العودة إلى الأرض لأنهم لم يعودوا يهتمون سواء بتقدمها أم بالناس الذين تركوهم عليها، هذا هو السبب في أن لا يجب على كل إنسان أن يبحث أو يحاول الإتصال بالقوة بين عالمه الذي تسمونه عالم الأموات.

إن الروحية في العالم يجب أن تتطور في المستقبل، يجب أن تتغير من حالتها الراهنة من اللهو والمداعبة بين الإنسان والنفوس المنتقلة حيث تثار فيها الذكريات الشخصية للمتع والحوادث الدنيوية إلى تفاهم أتم بين النفوس يؤدي إلى التعرف على الحاجيات الروحية لكل نفس.

إني أريد أن أكشف لكل أصدقائي بكل ما أوتيت من قوة روحي الحديثة الإنطلاق عن الرجل الجديد الذي هو «دويل» إني لم أعد بعد أهتم بكل تفاصيل الحياة الدنيوية، اللهم إلا إذا كانت هذه تؤثر على التقدم الروحي للشخص المقصود، وليس في إمكاني مساعدة شخص على النجاة بإخباره بالأسس التي تقوم عليها الحياة الروحية.

نعم. . . نعم، إن «دويل» القديم يبدو أنه انتقل، ولكن سوف أبرهن لكم جميعا أنني عندما أموت أعيش من جديد. . . نعم وأنه ليس هناك طلاء يترك على الإنسان عندما يمر من الموت الثاني، فروحه الصافية هي التي تبقى بعد تلك التجربة العليا. آه ولكن تلك هي اليقظة الثانية بالنسبة لي، وعندئذ أصبحت داعيا لشيء واحد فقط، ويا للعجب لشيء واحد فقط، وهو اللانهائية الكلية لمحبة الله لي ولكل البشر.

وفي تلك اللحظة العليا أدركت أنه لا يوجد شيء اسمه الوجود المنفرد عن الله، لأنه في تلك اللحظة تموت الشخصية التي تفصل الإنسان عن الله وتولد له شخصية من جديد، لقد رأيت أمامي كتلة متدفقة من الحياة ومن الوجود الروحي الذي انتقلت إليه كل نفوس البشر الذين عاشوا في طهر وفي إنكار للذات.

إني لا أريد إفساد معتقداتكم في الروحية، وإنما أحاول وضع فهم أكثر عمقا وحكمة ودقة للحق المبين للحياة بعد الموت، إن بعض الذين ينتقلون من عندكم يكونون في حالة إنهاك عقلي وروحي، وبذلك يعيشون أزمانا طويلة كما كانوا في حلم، وبعض النفوس الأخرى

يخترق العوالم السفلية بسرعة ويرمى بالجسم النجمي الثقيل ثم يدخل ملكوت السموات. تذكروا أنه في حالة وعي كهذا فقط توجه النفوس البشرية بحكمها أو بالله، وعندما تواجه بهذا الحكم الذي ما هو إلا إدراك النفس على حقيقتها يصبح الإنسان قادرا على النظر في إعماق ذاته مرة واحدة وإلى الأبد».

ومن الكتاب أيضا، الكاتب الكبير «إرنست أوتن» الذي كان الساعد الأيمن لأرثر كونان دويل في حياته، وكان المنظم لرحلاته، وله الفضل في إنشاء «الإتحاد الروحي الوطني» الذي أصبح رئيسه سنة 1915م، كما تولى تحرير جريدة «العالمين» سنة 1919م إلى سنة 1945م، كما قاد حملة داخل البرلمان البريطاني من أجل الإعتراف بالوساطة الروحية، وقام بمحاضرات في الإذاعة البريطانية وفي منتديات حول موضوع الأرواح.

ومن الكتاب أيضا، الرائد للحركة الروحية «ألفرد كيتسون» «1855م - 1934م» الذي حمل لواء الدعاية لنشر المعرفة الروحية بين الأطفال وذلك بإنشاء مدارس للأطفال تعدهم إعدادا روحيا ليتهيئوا على المستويين الأرضي والروحي، فشرع في ذلك سنة 1882 بتدريس الروحية في مدرسة ووضع لها منهجا يماثل المنهج الذي وضعه لمثل هذه المدارس في أمريكا رائد الروحية «أندرو جاكسون داڤيز» فنهجت حركته إلى مستوى المدارس الثانوية، وبفضل جهوده تأسس «الإتحاد البريطاني للمدارس الروحية» سنة 1890م، فظل كاتبا لهذا الإتحاد طيلة تسعة وعشرين عاما.

وهكذا نجد المسرحي المعروف «شودز موند» يطالب بجعل العلم الروحي إجباريا في جميع المدارس، وألف كتابا بهذا الصدد أسماه «كيف تحيا عندما تموت؟»

ومن كبار الكتاب أيضا «هانن سوافر» الذي كان نقيب الصحافة، حيث اقتنع بصحة موضوع الأرواح عن طريق وسيط الصوت المباشر «دنيس برادلي» سنة 1924م، فظل يواصل البحث ويعقد جلسات في منزله إلى أن انتقل إلى العالم الأعلى، ومن أشهر مؤلفاته «مغامرات مع الإلهام» و «دراسات في السيكولوجيا» و «قصتي العظمى» و «عودة نور ثكليف» وهو إسم لأحد عباقرة الصحافة. كما ساعد على تفسير فلسفة الروح الحكيم «سيلفر بيرش» هذا الروح المرشد الذي يعد أشهر روح مرشدة في الجلسات.

ومن أشهر الكتاب الكاتب المعروف «موريس باربانيل» رئيس تحرير جريدة «السايكك نيوز» وهو وسيط للروح المرشد «الحكيم سليفر بيرش» وله مؤلفات في الموضوع منها «سوف يدوي البوق» و «سوف يتعزون» و «عبر البرزخ» إلى غير ذلك من المؤلفات.

ومن الكتاب والرواد للروحية «إرنست تومبسون» وهو كاتب وباحث، له مؤلفه القيم «تاريخ الروحية الحديثة وأسسها العلمية» حيث يربط فيه بين أسس علم الروح وبين العلوم المادية، وكتاب «تعاليم روحية» وآخر «ظاهرة الروحية» و «علم الروحية» إلى غير ذلك من المؤلفات.

ومن هؤلاء أيضا المفكر الديني الأسقف «ستانتون موزس» 1839م - 1892م، حيث كان نفسه وسيطا للكتابة المباشرة وتحريك الأجسام الصلبة والمجلوبات الروحية، وقد خضعت وساطته لتجارب «الجمعية البريطانية للبحث الروحي» التي أصبح فيما بعد رئيسا لها سنة 1884م، كما اختير رئيسا لإتحاد الروحيين بلندن إلى أن وافته المنية سنة 1892م، وقد تلقى من العالم الروحي عن طريق الكتابة المباشرة كتاب «تعاليم الروح» وكتاب «تعاليم أخرى للروح» كما ألف هو نفسه كتاب «نواح أسمى للروحية» وكتاب «الكتابة المباشرة للأرواح» وكتاب «شخصية الروح».

ومن هؤلاء أيضا، أسقف الأساقفة «شارل تويديل» الذي بحث هذا الموضوع لمدة تزيد عن أربعين سنة، وقد حضرت له أرواح عمالقة منتقلين أمثال «وليام كروكس» و «سير الفريدرسل والاس» و «سير آرثر كونان دويل» وقد نشر كتابه «أنباء من العالم الآخر» الذي ظهر سنة 1940م وكتابه الآخر «حياة الإنسان بعد الموت» الذي ظهر سنة 1909م. ومنهم أيضا الأسقف «جورفيل أوين» حيث كان وسيط الكتابة التلقائية، الذي تلقى رسائل فلسفية راقية نشرها تباعا سنة 1920م في جريدة «الديلي ديسباتش» أثارت اهتمام القراء والمعلقين، وقام بدعاية كبيرة بين إنجلترا وأمريكا، حيث استقال من عمله وتفرغ للبحث الروحي، وقد نشر كتابا تحت عنوان « الحياة وراء الحجاب» في خمسة أجزاء وآخر تحت عنوان «الحقائق والحياة المستقبلة». وبعد وفاته أملى كتابا تحت عنوان «صوت من السماء» عن طريق الوسيط «فردريك هـ. هاينز» وذلك سنة 1932م.

إن الذين كتبوا في هذا الموضوع يضيق حصرهم في هذه العجالة، ناهيك عن الذين زخز أدبهم وشعرهم بالروح وعالمها أمثال الفيلسوف الشاعر الهندي «طاغور "1862 - 1941م"» الذي تحدث كثيرا عن الروح في عمق وبلاغة، ثم نجد أشهر شعراء التاريخ «شكسبير» هو أيضا رواياته تزخر بحديث الأرواح والأشباح، كما أن « فكتور هيجو» هو أيضا مشاعره تنطق بذلك. تلكم مجموعة من العلماء والمفكرين والأدباء ورجال الدين، يمثلون مستوى خاصا من المعرفة والثقافة والسلوك والمثابرة، لم تخدعهم ملكتهم الذهنية والعلمية بالإنحراف، ذكرنا منهم القليل عن كثير.

-VI-

رأي بعض الفلاسفة وحملة الأقلام

سنأخذ الآن رأي بعض الفلاسفة وحملة الأقلام تبعا لما سبق، وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

ففي ألمانيا نجد ضمن المشتغلين بالروحية وعلم النفس والبيولوجيا أستاذ الفلسفة «هانزدريش» الذي له مؤلف هام تحت عنوان «البحث الروحي». وكذلك العالم الفلكي المشهور «زولنر» الذي يعد من رواد البحث الروحي، وله مؤلف تحت عنوان «الفيزياء السماوية»، ومن الذين أولوا عنايتهم لهذا الموضوع الطبيب البيولوجي «شرنك ڤون نوتزنج» وله مؤلفه «ظاهرة التجسد».

وفي «سويسرا» العلامة «يونج» 1875م - 1961م الذي له مؤلف تحت عنوان «السيكولوجيا والدين» وكتابه الثاني «مسألة الإنسان الحديث الروحية»، بجانب هذا جمعيات للبحث الروحي وهيئات متعددة بهذا الصدد.

وفي «إيطاليا» نجد «لومبروزو» وهو أبرز الأسماء في تاريخ علم الإجرام، و«شكاباريللي» مدير مرصد «ميلانو» وعالم الطبيعة الشهير «جيروزا» والفسيولوجي «دي أميسيس» وعدد كثير، كلهم أفصحوا عن رأيهم ووهبوا أنفسهم وأقلامهم للعلم الروحي.

وفي «روسيا» تشير البحوث الروحية إلى أعمال الأساتذة «ڤاجنر» و «أوستروجرادسكي» و«أكزاكوّ» والكونت «دي بوديسكو» إلى غير ذلك من الأسماء.

وفي «إسبانيا» نذكر الذين يشار إليهم في هذا الميدان «رامون دي لاساجا» عالم الطبيعيات والكونت «توريس سولانو» الذي في عهده أصبحت الحركة الروحية في كل مدينة تقريبا منذ سنة 1906، ومن أشهر دائرة هناك «دائرة برشلونة» ومعها إتحاد الدراسات الروحية التي تصدر مجلة الدراسات النفسية تحت رئاسة الكونت «توريس سولانو» كما تصدر مجلة شهرية تحت إسم «الفجر» تتولى تحريرها مجموعة من الأرواح.

وفي «فرنسا»الباحث «جابريل ديلان» الذي أسس مع آخرين «الإتحاد الروحي الفرنسي» وفي سنة 1918م أسس «المجلة العلمية والخلقية للروحية» ومن مؤلفاته «أشباح متجسدة لأحياء وأموات». والروحي «ألفريد بينزيك» الذي ألف عدة مؤلفات منها «الظواهر الروحية ومسألة العالم الآخر» وكتاب «الألم هو الحياة مجددة». ومنهم المؤلف الشهير «شارل لانسلان» الذي له مؤلفات أيضا منها «العالم الآخر ومشكلاته» و «كيف يموت الإنسان وكيف يولد» و «الروح الإنسانية» و «الحياة بعد الموت» إلى غير ذلك ممن تطول لائحتهم.

وفي «تركيا» هناك «الجمعية التركية لما وراء الطبيعة» يرأسها الدكتور «بدري روهسلمان» وله عدة مؤلفات منها «الروح والكون» الذي ظهر سنة 1946، وفي سنة 1950م قام بإلقاء محضرات بجامعة «أنقرة» في علم الروح، وفي نفس السنة تأسست « الجمعية التركية للبحوث الروحية» فشرعت على التو في إلقاء محاضرات بجامعة «إستامبول» مما جعل وزير التعليم آنذاك يعلن بأن الوقت قد حان لإدخال العلم الروحي إلى منهج التعليم الجامعي.

وفي «مصر» نجد الشيخ طنطاوي جوهري الأستاذ بجامعة مصر، وصاحب تفسير «الجواهر» في شرح القرءان الكريم الذي يضم خمسة وعشرين جزءا وعدد من المؤلفات، دافع هو أيضا عن الروحية وكتب كتابه المشهور «الأرواح» وكان من أبرز أعضاء «دائرة القاهرة الروحية»، وبعد إنتقاله كثيرا ما يحضر في الجلسات الروحية ويراه وسطاء الجلاء البصري. ونذكر أيضا العلامة محمد فريد وجدي، الذي كان يصدر مجلة «الحياة» للبحث في الأمور الروحية الحديثة، ثم جريدته اليومية «الدستور» التي كان ينشر فيها الحالات الروحية، بجانب ذلك ما كتبه في مجلتي «المقتطف» و «الهلال»، ولما أسندت إليه «مجلة الأزهر» سنة 1934م أدخل على أبوابها البحوث الروحية، ومؤلفه «على أطلال المذهب المادي» شاهد على إقتناعه بالرد على الماديين. كما نذكر من بين رجالات هذا المذهب الروحي الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، الذي ظل نشيطا في خدمة القضية الروحية إلى أن وافاه الأجل، وكانت له صحيفة «عالم الروح» شهرية منتظمة منذ سنة 1947 إلى سنة 1960 بعد إنتقاله إلى عالم الروح، وله مؤلفات منها «ظواهر الطرح الروحي» و «السيكولوجيا والروح» و «العجيبة الثامنة» كما ترجم الكتاب القيم للعلامة «جيمس آرثر فندلاي» وهو «على حافة العالم الأثيري» وآخر للعلامة «أدوين فردريك باورز» وهو «ظواهر حجرة تحضير الأرواح» بجانب هذا كان منزله ملتقى المرضى يعالجهم على الطريقة الروحية سنين طويلة مجانا، وممن أعطوا وقتهم أيضا للخدمة الروحية الدكتور علي عبد الجليل راضي أستاذ بكلية العلوم حيث كتب

عدة كتـب في هذا الموضوع منها «العـالم غير المنظور» و «أرواح مرسلة» و «سفير الأرواح العليا» و «أضواء على الروحية» وترجم للطبيب الأمريكي «كارل ويكلاند» كتابه «ثلاثون سنة بين الموتى» وللوسيطة «دجمـار أوكونور» قصة «أول فرعون». ولا مانع من أن نكشف عن رأي بعض رجال الـدين أمثـال الشيخ محمد حسنين مخلوف في كتابه «المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية» إذ يقول : «ومـا أظن ذا فهم مستقيم يرتاب في كرامات الأنبياء وتصرفات أرواحهم حال الحياة وبعـد الممـات أو يستغرب حوادث التنـويم والتـحضير» كما يقول في «مجلة المساجـد» سـنة 1966م : «ينبغـي أن يعلم أن عـالم الأرواح يختـلف عن عالم المادة اختلافا كثيرا في أحواله وأطـواره» إلى أن يقول «والروح تبقى في البرزخ ـ وهـو ما بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى من يـوم الموت إلى يوم البعث والنشور ـ حية مدركة تسـمع وتبصر وتسبح في ملك الله حيث أراد وقدر، وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها وتأنس بها سواء كانت أرواح أحياء أو أرواح أموات. ويقول شيخ الأزهر الأستاذ محمـد مصطفى المراغي في مقـدمة كتـاب «حياة محمـد» للدكتور حسين هيكل ما نصه : «والكـهرباء وما نشأ عنـها من المخترعـات قربـت إلى العـقل إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القـوة إلى المـادة، وعـلم استحضـار الأرواح فسر للناس شيئا كثيرا ممـا كـانوا فيه يختلفون، وأعان على فهـم تجرد الروح وإمكان انفصالها، وفهم ما تستطيعه من السـرعة في طـي الأبعـاد». أما الأستاذ الأكبر الشيخ محمد شلتوت شيخ الأزهر فقد أدلى بتاريخ 14 - 11 - 1953 لجريدة المصري قوله : «وهناك سـؤال لا بد من طرحــه في هـذا الشـأن، وهو هل رؤية أرواح المـوتى من البشـر في صـورة بشرية خاصة بالأنبياء وحدهم، أو أنه أمر عام جائز عليهم وعلى غيـرهم من البشـر؟ والجواب على هذا السؤال أن إختصاص المولى جل شأنه وحده بأمر الروح يجعل هذا أمرا جائزا ممكـن الوقـوع، إذ أن الجسد ليس إلا قيدا حديديا للروح تسبح بعد مغادرتها إياه في عـالمها غير المحدود الذي تعرفه، بيد أن الذي يعطيهم الله إشراقة من إشـراقه في عالمنا غير المحـدود ويقربـهم منه منازل فـي الحيـاة الدنيا قد يرون صورا لهذه الأرواح». وأخيـرا نخـتم بهذه الفتوى الشرعية لفضيلة المرحوم الشيخ محمـد نجيت المطيعي مفـتي الـديار المصرية في شأن كـرامـات الأوليـاء، وهـذه الفتوى بتاريخ 24 - 7 - 1940م تحت رقم 436 سجل رقم 8 قـوله : «وكما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت والفعل لله وحده، يجوز أن يتوسط روح ميت في قـضاء مصلحة حي أو ميت والفعل لله وحده، والأرواح باقية على الحياة، وأفعالها في عالم الملك. . . والروح باقية خالدة، ففعلها باق وتصرفها في أفعالها لا يتغير إلا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن».

-VII-

آراء حاسمة

تتمة لما سبق، نعطي بعض الأسماء اللامعة التي أبرزت عن رأيها بطريقة حاسمة، وأصبحت من رواد الروحية مع روح الخلق والبحث بعمق.

نذكر من بين هؤلاء الأستاذ «شارل ريشيه المولود سنة 1850م وانتقل إلى عالم الروح سنة 1935م، وهو من كبار علماء الفسيولوجيا بكلية الطب بباريس وحاصل على جائزة نوبل في الفسيولوجيا سنة 1913م ورئيس جمعية البحث الروحي بلندن ؛ ثم كتابه «حاستنا السادسة» بجانب هذا كان ينظم جلسات روحية بحضور علماء كبار، ومن آرائه الحاسمة في هذا الموضوع قوله «إني لا أرى مقدما أي سبب يدعوني إلى أن أرفض من جهتي قبول الإعتراف بوجود كائنات عاقلة أخرى غير الإنسان تتدخل فيما بيننا»، ويقول في مجلة الطبيعة تحت عنوان «العلم الروحي» «إن الروح يمكن الوصول إليها بقوى تكشف لنا عن حقائق لا يمكن أن يظهرها النظر أو السمع أو اللمس. ويقول في أواخر حياته «إني ـ أرى مغلوبا على إرادتي ـ علما أن أقرر في النهاية أن التفسير الروحي هو النظرية الوحيدة التي بمقدورها أن تفسر جميع نتائج هذه البحوث». إن هذا العالم الفسيولوجي المادي لم يقتنع إلا بعد تجارب متواصلة لعشرات من السنين، وهذه ضمانة تضاف أيضا كبرهان للحياة الروحية.

ومن بين هؤلاء أيضا العلامة الإيطالي «إرنستو بوزانو» 1862م ـ 1943م. وهو من أجود علماء النفس الذين واصلوا بحثهم قبل إنحيازه للنظرية الروحية وإبداء رأيه الحاسم، وقد كتب في هذا الباب بدقة وبعمق إلى أن أنتقل إلى العالم الآخر، حتى أنه بلغ أربعة وعشرين كتابا في هذا المضمار بجانب العدد الفديد من المقالات في المجلات والجرائد، ومؤلفاته زاخرة بالتجارب العلمية المدروسة، وقد لخص رأيه في هذا القول : «لو أن أي إنسان بدلا من أن يضل طريقه في بيداء مناقشات مملة أقبل على البحوث الروحانية وواظب عليها لمدى سنين طويلة جامعا قدرا كبيرا من الوقائع كما يخضعها إلى طريق التحقيق العلمي لانتهى حتما إلى الإقتناع بأن

الظواهر فوق العادية تكون مزيجا رائعا من الأدلة الحيوية والروحية التي تشير كلها إلى ثبوت وجود حياة النفس الإنسانية بعد الموت ثبوتا علميا كأشد ما يدل عليه اللفظ، هذا هو إقتناعي الثابت، ولست أشك في أن الزمن كفيل بإظهار أني على صواب».

أما المارشال «لورد دودنج» في الطيران البريطاني الذي أسندوا إليه مهمة إنقاذ البلاد من الغارات الجوية بشكل مباشر سنة 1940 - 1941 من طرف الأسطول الجوي الألماني، فبجانب مشاغله كان يخلق الوقت الكافي للبحث في موضوع الأرواح، حتى إذا ما إنتهت الحرب واصل سيره المستمر والمتدفق في هذا الباب، وفي أعقاب الهدنة سنة 1945م ظهر كتابه «بوابة الجثث» ثم بعد فترة ظهر كتابه « منازل كثيرة» والثالث تحت عنوان «الكوكب المظلم» كل هذه المؤلفات يظهر فيها تجاربه التي واصلها ومحاولة الإتصال بأرواح ضباطه وجنوده القتلى، وقد أكد أنه اتصل بعدد منهم وحصل على معلومات أفادته في ميدان المعركة، وقد كرس حياته لهذا البحث نتيجة ما وقف عليه من حقائق ثابتة حتى أصبح من أقطاب الروحية، يحاضر مرة ومرة يعقد الجلسات تلو الأخرى، ومن جملة الوساطات التي وقف على تحقيقها وتحليلها وساطة العلاج الروحي مؤكدا بأن الأرواح تعالج المرضى بأساليب مختلفة حيث قال عن دائرته العلاجية الخاصة «إنني أكتب بحرج كبير في الموضوع، لأنني لا أعلم إلا بصعوبة ما نقوم به في هذه الدائرة العلاجية، فلسنا نحن المعالجين، ولو أننا نساهم فحسب، بنصيب من القوة في اهتزاز الموجات الأرضية فتختلط بالإهتزازات العليا وتوجد بذلك خليطا يستعمل في أغراض العلاج. والسبيل كما أفهمه هو هذا، نعطي للمعالجين الروحيين إسم شخص مريض فيتولون فحص هالته وجسمه الأثيري، وكل اعتلال في الصحة يقابله تغير في لون أحد هذين الشيئين أو في كليهما، ثم نستمع بعدئذ لما ينبغي علينا أن نفعله، ثم تعلمنا أن نبني معا وفي وقت واحد أقوى ما نقدر عليه من صور ما يسمى باللون الفكري. وقد يظهر في لحظة ما بريق ضوء خافت أو هالة من الضوء يقف المريض فيها أو يتساقط عليه مطر من الضوء كالألعاب النارية أو غلاف من الضوء تغلف به الأجزاء العليلة، والأضواء المستعملة غالبا ما تكون ذهبية اللون أو فضية أو خضراء أو صفراء أو زرقاء فاتحة أو قاتمة أو وردية، ويعيد العلاج الروحي اللون المعيب في الجسد الأثيري إلى حالته الطبيعية، وهو ما يؤثر بدوره على الجسد الفيزيقي - لا على الفور - بل بعد فترة قد تمتد إلى شهور».

-VIII-

بينات وشهادات

إن بقاء شخصية الإنسان بعد الموت ثابتة لا جدال فيها، وفي الجلسات الروحية يتجلى جليا أن الأرواح التي تتحدث تختلف اختلافا بينا مع الوسيط من حيث المستوى الفكري والثقافي، وقد يكون الوسيط لا علم له على الإطلاق بموضوع حديث الروح، بل قد يتكلم لغة لا يعلمها، ولربما يكون في غيبوبة تامة لا قبل له بما حدث، وقد تكون تلك الروح المتحدثة معروفة لدى بعض الحاضرين ممن عاشت معهم على الأرض فيظهر التطابق بينا في القول والأسلوب والتفكير واللهجة مما يخالف الوسيط على الإطلاق، ومما يزيد يقينا أن أصحاب الجلاء البصري يرون الروح على صورتها المعروفة بها، حيث أن الروح تعمد إلى تذكر شكلها الأخير التي كانت عليه على الأرض حتى يعرفها الحاضرون، وغالبا ما تحتاج إلى مد يد المساعدة من طرف أرواح خبيرة تساعدها على الظهور على الشكل التي تريده، والأرواح الجدد غالبا يظهرون بأزيائهم بحكم إصرار ذاكرته على ذلك، وقد يجيء التطور بطيئا أو سريعا حسب الإتجاه الفكري وطبعه الخاص، فإذا تطور العقل فقد يتطور كل شيء، كما لو جمد فقد يجمد كل شيء، فالعالم مثلا يبقى عالما والجاهل يبقى جاهلا إلى أن يتغلب على جهله بمزيد المعرفة عن طريق التدريج، وقد يطول الأمد أو يقصر، كل حسب درجة استعداد. ومرونته وذكائه وملاحظته وإقباله. والروح في حد ذاتها تفيد وتستفيذ، فهي تستفيذ باستمرار في عالمها، وتفيد أيضا في عالمنا الأرضي، فلا غرابة إذا وجدنا بعض المثقفين أو العلماء قد استفادوا من أرواح راقية، حيث تلقوا منها معلومات لم تكن تخطر ببالهم، وكم منهم أعلنوا صراحة هذه الحقيقة، بل بعضهم اضطر إلى التراجع عن آرائه في الحياة بوجه عام أو بعض نظرياته العلمية أو معلوماته الخاصة. فمثلا نجد عالم الطبيعة المعروف «سير أولفرلودج» في مؤلفه «ريموند أو الحياة بعد الموت» يراجع نظرياته القديمة في ضوء معلوماته الروحية عن المادة والطاقة والزمان والمكان والإنسان، وجوانب فلسفية.

ويروي الجراح الكبير من البرازيل الدكتور «متى براسيلار» قائلا : «توجهت في 10 أكتوبر 1922م إلى «أنيربيدس برادو» كيما أشاهد عملية فتح خراج لطفل بواسطة طبيب من عالم الروح، وكانت الوسيطة هذه مدام «آنا برادو»، وتقدم أن به خراجا تحت إبطه الأيسر، وكان يتعين علي إذا ما شئت أن أتدخل بنفسي الإنتظار لمدة ثلاثة أيام أو أربعة حتى لا أحمل المريض سوى اليسير من الألم بالنظر إلى إلتهاب موضع الخراج. وفي الساعة التاسعة مساء دخل الوسيط إلى الغرفة المظلمة، وجلس الحاضرون متشابكي الأيدي، وجلس الغلام بجوارهم بعد إذ كشف عن دراعه الأيسر. وبعد نصف ساعة تجسد وجهان، أحدهما لروح تسمى «جُوَاوْ» تردد كثيرا على جلسات «برادو» وثانيها لروح مجهولة تقدمت نحو الكرسي الذي كان يجلس المريض عليه، ثم صار جسم «جواو» أكثر وضوحا فلمست أصابعه، وأخيرا ظهر شبح كامل تقدم ناحية المريض وانحنى عليه بطريقة شخص يجري عملية. وانتهت العملية بعد ثلاثين دقيقة فانسحب الشبح واختفى، وأخبرنا بفم الوسيط بأنه لم يفتح الخراج أكثر حتى يوفر على المريض ألما أشد وطأة، وأن العملية تعد على هذا النحو كافية كما تؤدي إلى الشفاء العاجل، ثم قال : «إن الصغير لن يشعر بأي ألم بعد اليوم». ثم أضيئت الغرفة، وتقدمت ناحية المريض، ولفرط دهشي العظمى تبينت أنه يمسك بيده منديلا ملوثا بالدم والصديد، وقد فتح الخراج وكان لا زال ينضح دما وصديدا، وقد أحس الفتى بحصول التدخل الجراحي أثناء حصوله، لكنه كان ألما محتملا بحيث لم نسمع منه أنينا خلال النصف الساعة».

هذه بينة وشاهدة من أستاذ بإحدى كليات الطب.

وهناك كتاب «البراهين الطبية للعلاج المعجز» لمؤلفه الطبيب الفرنسي «لي يك» وهو جراح بمستشفى «سان جوزيف» بباريس، يبين حالات مختلفة قد عولجت بطريقة نهائية بمراقبة أطباء قاموا بفحصها مع كامل الإحتياطات من كل شبهة، حتى أن الدكتور «لندسي جونسون» يقول في هذا الشأن : «إننا لا نعرف إلا النزر اليسير جدا من قوانين الطبيعة، ومن ثم تبدو ظواهر كثيرة لأول وهلة أنها مخالفة للطبيعة، فإذا ازدادت معارفنا علمنا أن هذه الظواهر خاضعة في الواقع لقانون طبيعي ؛ ويختفي عندئذ مظهرها المعجز الخارق للطبيعة. لكننا زيادة على تلك القوانين الطبيعية التي تحكم العالم المادي بدأنا نعرف عالما آخر مخالفا كل المخالفة لعالمنا، وهذا العالم هو الذي نسميه عالم الروح. ولا مراء في أننا نعرف الكثير من ظواهر الحياة، ولكننا سنجد أن هذه الظواهر الحيوية ترجع في الأصل إلى شيء وراء الحياة، وهذا الشيء هو الذي طالما قلت عنه أنه سبب الحياة التي ماهي في الواقع إلا المظهر المنظور للنفس، وكلما مضينا في درس طبيعة الحياة ازددنا اقتناعا بأنها شيء منفصل عن العالم الفيزيقي».

أما العلامة «ج. آرثر فندلاي» فقد نأخذ ما قاله بالحرف من كتابه المعروف «على حافة العالم الأثيري» ضمن ما تضمنه من بينات : «. . . ولقد تلقيت أنا بنفسي رسائل عن هذا الطريق ـ يعني الصوت المباشر ـ وعن ذاك، ولكني أصرح أن محادثات الغيبوبة هي الأحسن في حالة المحادثات التي تستمر طويلا، لأنها أدقها وأقلها مقاطعة، ولأنها تستغرق في الغالب ما يزيد على الساعة، وبهذه الطريقة تلقيت كثيرا من الأنباء التفصيلية عن كيفية حدوث الصوت المستقل، وعن حقيقة الجسم الروحي، وعن الأحوال القائمة في العالم الروحي، وعن التكوين النسبي للمادة التي منها يتألف ذلك العالم بالموازات بينها وبين مادتنا الفيزيقية، وكان يحضر هذه المحادثات كاتب مختزل يدون كل ما يقال. وكان أول ما أنبئت به أن الكون كله مكون من مادة ذات درجات مختلفة الكثافة والنشاط الإهتزازي، وأن هذه المادة تملأ جميع الفضاء الذي توجد فيه الحياة في مختلف درجات التكشف والإرتقاء، وما نشعر به نحن هنا على الأرض ليس إلا مادة تهتز في داخل حدود معينة، ويحيط بأرضنا ويتخللها ويرتبط بها ويتحرك معها عالم آخر من مادة أثيرية في حالة إهتزاز أعلى، ومن ثم قصرت حواسنا عن إدراكه، والجسم الباقي في عالمنا الفيزيقي جسم أثيري أو روحي يجمع ابتداء من لحظة الحمل حول نفسه، أو بعبارة أخرى يكسو نفسه بمادة فيزيقية بهيئة الإهتزاز. والجسم الأثيري هو الإطار الذي تربط به المادة الفيزيقية، ويتألف هذا الجسم الأثيري من مادة مترممة تماما مع مادة المستوى التالي الأثيرية، ولكنها تكون مقيدة بقيود المادة الفيزيقية مادامت مربوطة بها، وعند الموت يتخلص الجسم الأثيري من الجسم الفيزيقي المغلف له، ويتابع تأدية وظائفه بشكل طبيعي جدا في العالم الأثيري، إذ يكون كل ما فيه حقيقيا بالنسبة له كما كان كل شيء في العالم الفيزيقي حقيقيا إزاءه، والجسم الأثيري نسخة كاملة للجسم الفيزيقي في جميع تفصيلاته، ولذا يمكننا أن نفهم كيف أنه إذا واتت الظروف الروح الراغب في الحديث فاستطاع أن يجسد أعضاءه الكلامية أمكنه أن يهز جونا مرة أخرى مسمعا إيانا صوته.

الباب الثاني

الروحية الحديثة وحياة الآخرة

-IX-

تعريف علم الروح الحديث

علم الروح الحديث يطلق عليه بالفرنسية «سْيَانَسْ بْسِيشِيكْ» وبالإنجليزية «بْسِيشِيكْ سْيَانَسْ» وهذا الوصف لا يشير إلى علم النفس، فعلم النفس يعبر عنه «بْسِيكُولُوجِي» بالإنجليزية والفرنسية، أما كلمة «بسيشيك سيانس» فهي تشير إلى «علم الروح» وهذا إصطلاح أخذه جميع الباحثين في هذا الميدان، ولم يأخذه كإشارة للبحث «السيكولوجي» أو «علم النفس»، والكلمتان «ابسيشيك» و «ابسيكولوجي» مشتقان معا من الكلمة اللاتينية «ابسيشي» أي العقل أو النفس. فسارت الأولى تدل على علم الروح، والثانية على الإشتقاق القديم «ابسيكولوجي» يدل على علم النفس بمفهومه التقليدي، ولأن المعنى الإصطلاحي لكلمة «ابسيشيك» يشير الآن إلى الروح لا إلى النفس، وإلى التسليم ببقائها بعد الموت وبإمكان الإتصال بها، والترجمة الحقيقية لكلمة «ميتابسيشيك» تعني «ما وراء الروح» وهذا المعنى ـ ما وراء الروح ـ يستعمل في بعض الدول اللاتينية كمقابل لعلم «الباراسيكولوجي» وكلا التعبيرين يشيران إلى معنى دراسة كافة الظواهر الوساطية بدون ارتباط مبدئي بمصدرها، وهذه الدراسة تمثل الجانب المعملي من علم الروح الحديث، بينما جوانبه النظرية متعددة، منها على سبيل المثال دراسة مدى الإرتباط بين هذه الظواهر الوساطية وبين حقائق العلوم الأخرى، ومنها أيضا دراسة مدى الإرتباط بين هذه الظواهر وبين شتى المذاهب الفلسفية والعقائدية.

والتعبير الفرنسي «اسبيريتزم» بالإنجليزية « اسبيريتسم» يشير إلى الإتصال بالكائنات غير المنظورة، وهو على هذا الوضع يعد فرعا من الأصل العام «علم الروح».

وكتاب العرب يستعملون وصف «علم تحضير أو استحضار الأرواح» كمقابل للفظة «اسبيريتزم» وهو تعبير لا يحالفه التوفيق، على اعتبار أنه يشير إلى أن الروح تخضع لإرادتنا، وهذا غير صحيح، فالروح لا تؤمر، وليس لأي إنسان عليها سلطان، وما دور الوسيط إلا استسلامه لقوة واعية غير منظورة قد تريد طواعيته أن تتحدث أو تظهر عن طريق السيطرة على

جانب من وعي الوسيط متى أمكنها ذلك. وبالطبع هذا الإتصال يكون هدفه تحقيق غرض راق عند الأرواح الراقية، وغير راق عند أرواح غير راقية، فيبقى دور الوسيط سلبيا.

فهذه التسمية الغير الموفقة ـ علم تحضير أو استحضار الأرواح ـ جنت كثيرا على البحث الروحي في العالم العربي، حيث دفعت الأدعياء من الوسطاء إلى إيهام البسطاء أن بمقدورهم تحضير أية روح يطلبونها، ولم يعلموا بأن الروح لا تحضر إلا بشروط منها إرادة الروح وظروفها وقدرتها على إظهار نفسها باستخدام موهبة الوسيط ومعلوماتها في ذلك ومرانها، ثم أن جميع الجلسات الناجحة يستلزم وجود أرواح مرشدة أو حارسة لها خبرة خاصة قد تكون بمثابة «وسيط أثيري» بين «الوسيط الأرضي» وبين الروح التي ترغب في الإتصال، كل هذا بالطبع يحتاج إلى مران وتنظيم وبيئة وإلمام لنجاح العملية.

والمتعمق في هذا الميدان قد يلاحظ حالات من هذا النوع، فمثلا يتردد في طلب روح عبثا مدة سنين، بينما تحضر في الجلسات أرواح لا تخطر على البال، فهي تخضع لنواميس أكثر تعقيدا مما نتصور.

لعل الأوصاف الأجنبية لهذا العلم أقرب إلى الدقة والتوفيق من وصف علم الروح، فكما قلنا يطلق عليها إسم «ابسيشيك سيانس» بالإنجليزية، وإسم «اسيانس بسيشيك» بالفرنسية، كما يطلق على الإتصال بالأرواح «اسبيريتزم» وهي كلمة مشتقة من كلمة «سُولْ» الإنجليزية، وهي تعبر عن الشعلة القدسية، وباللفظ العربي «الروح» فكانت الترجمة لعبارة «ابسيشيك سيانس» تعني «علم الروح» حيث أصبح وصفا شائعا، وأي وصف خرج عن هذا النطاق قد يبعد الذهن عن حقيقة موضوعه، خاصة وأن كلمة «روح» عندنا بالعربية تفيد أكثر من معنى، فقد نطلقها على النفس الناطقة في الإنسان، ونطلقها أيضا على الجسد الأثيري.

فعلم الروح إذن هو علم يعنى ببحث الظواهر الوساطية وما ترسله الأرواح من بيانات وآراء بالإضافة إلى النظريات التي توضح الصلة بين العالمين. أما الروح فإن البحث فيها من ضرب الخيال، ولا سبيل لأي إنسان أن يخوض في وصف أو تركيب هذه الشعلة القدسية التي قال فيها عز وجل «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

-X-

البحث العلمي للروح

في قرية «هيدسفيل» قرب مدينة رُوشِيْتِرْ بولاية نيويورك بأمريكا، وذلك سنة 1848م، حدثت ظواهر غريبة مثلما تحدث في أماكن أخرى، غير أن الجهات الرسمية تدخلت في بحثها، حيث شكلت ثلاث لجان من علماء باحثين، فانتهوا إلى أن هناك ظواهر من كائنات غير منظورة هي أرواح الموتى ممن انتقلوا إلى العالم الآخر، ومن أشهر من بحثوا هذه الظواهر القاضي «إيدموندز» الذي كان رئيسا للمحكمة العليا بنيويورك، فكتب بيانا للجمهور في جريدة «نيويورك كورير» في شهر غشت 1953 بين فيه أن الطرقات التي كانت تحرث في قرية هيدسفيل» قد بحثها مستعينا بخبير كهربائي وعشرة من العلماء مبينا خطورة هذا الكشف الروحي.

ثم تلاه الأستاذ «جيمس مابيسر» أستاذ الكيمياء وعضو المجمع الأمريكي، فنشر نتيجة بحثه، ثم تلاه «روبرت هير» أستاذ الكيمياء بجامعة «بنسلفانيا» حيث نشر مؤلفا تحت عنوان «تحقيق تجريبي لظواهر الروح» وفي سنة 1854 عقد مؤتمر روحي بنيويورك فحاضر فيه «روبيرت هير». وقد زاد اقتناع هؤلاء الباحثين الثلاثة حينما أخضعوا الوسيط «دانيل دو نجلاس هوم» لتجارب العالم الكيميائي الشهير «وليام كروكس» (1832 - 1919م) تلك التجارب التي ساهمت في اقتناعه مما حفزه إلى أن يتقدم إلى المجمع العلمي البريطاني سنة 1874م بتقرير تاريخي تحت عنوان «بحوث في الظواهر الروحية».

ثم بعد هؤلاء قام نفر من علماء الفيزياء والسيكولوجيا والبيولوجيا والفلك والرياضيات على البحوث الروحية، وهكذا أخذ الإهتمام يتزايد إلى بلدان العالم المختلفة، فنشأت حركة واسعة تبحث في الروح ؛ ومما هو جدير بالإقتناع أن رواد البحث الروحي هم رواد العلوم المادية لهم أصالة الرأي والملاحظة. ودقة التجارب فهم قذوة للثقة، ومن بين هؤلاء «فريدريك و. هـ. مَايْرَزْ» 1843-1901العالم السيكولوجي ثم البيولوجي الشهير «ألفرد روسل والاس»1913 -1823م

والطبيعي البارز «السير وليام باريت» 1845-1926م. والعالم اللاسلكي «السير أوليفر لودج» 1940 - 1852م حيث ظل يواصل موضوع الأرواح سنين طويلة. والفيلسوف السيكولوجي «وليام جيمس» 1842-1910 والفيلسوف «هنري برجسون» 1859-1941م. والفيلسوف الفلكي «كامل فلاماريون» 1842-1925م. والفسيولوجي الشهير «شارل ريشيه» 1850-1935م. إلى غير ذلك من العلماء، ومنهم من واصل سيره في البحث مدة ثلاثين سنة مثل «كروكس» و«ريشيه» أو أكثر من الخمسين مثل «لودج» وغيرهم، كلهم انتهوا بإمكان الإتصال بالموتى، وبخلود الروح.

ومع هذا فإن البحث الروحي وجد معارضة بقدر ما وجد ترحيبا، فعلماء المادة قاوموا مقاومة صريحة، لأن الروحية في حد ذاتها مقاومة صريحة للماديين، ولا غرابة إذا قلنا أنها وجدت مقاومة عنيفة حتى من رجال العقيدة، وأخيرا انتهى أمر العلماء والمفكرين ورجال الدين إلى أن الأمر فيه جد، وصدق عليهم قول القائل «إن النفوس الضعيفة تؤمن بالمجهول إيمانا أعمى، والنفوس القوية تنكر وجوده، أما النفوس العظيمة فهي التي تقف من المجهول موقفا جديا» وتبين لهم أن الموقف جد خطير، وأنه أعظم شأنا مما يترك، وأنه لا داعي للقدع والتقريع بأساليب الهجوم، أما الجماهير فإنها بطبعها عدوة لكل جديد.

وبفضل صفوة من رجال العلم والعقيدة من ذوي الأذهان المتفتحة، أصبحت الهوة مختفية إلا من نفر من الجامدين البعيدين عن جوهر العلم والعقيدة.

يجب أن يعلم الجميع أن العلم الروحي رسالة جليلة من جوانب متعددة، فهو أثبت أخطر حقيقة كونية أدركها الإنسان بالفطرة، ثم بالفلسفة، ثم بالتجربة العملية، فهو يفتح ذهننا على أمور غامضة بيننا وبين عوالم غير محدودة تحيا فيها كائنات غير منظورة لنا، كانت بين ظهرانا وسنصبح يوما بين ظهرانها، بجانب هذا فإن العلم الروحي ينشيء صلةبيننا وبين أحبائنا الذين غربت أجسامهم عنا، ثم بالتالي يدعم إيماننا بالله تدعيما تاما يجعلنا نؤمن إيمانا قطعيا بأن الله خلق كل شيء بمقدار، وجعل هذه النفس بين ملكوته، مخاطبا إياها بقوله سبحانه وتعالى «يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

-XI-

النشاط الروحي بصفة عامة

صوت الروح قد يأتي من الخارج أو الداخل، فنحن غارقون في بحر عظيم وواسع من الذكاء الأثيري، والصلة به كصلة السمكة بالماء، لأننا لا نشعر بواقع المادة التي نحن فيها نتحرك ونستمد منها مقوماتنا ـ وهي الأثيري ـ، حيث أن في هذا الأثير تكمن دفعة الحياة كما يقول «برجسون» وفيه تدليل عقبات التطور والإرتقاء الكامنة في نفوسنا، فالطاقة التي تهبنا الحياة هي تمكننا من تنفس الهواء، بل الأثير، والتي تجعل الدم الحار يتدفق في العروق، فتحيا الخلايا التي تبني الجسد وتصلح ما تفسده الأيام، إنها طاقة يمكن وصفها بأنها طاقة الروح التي بداخلنا غير منظورة لكنها حقيقة، وهي حية وقوية وعلى صلة ببارئها الذي جعل الكون تحت قبضته لا يعلمه إلا هو، ومن هنا يأتي إيماننا بهذا الباريء المصور الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا، حتى إذا ما اشتد إيماننا به أدركنا أننا في دار هي قنطرة عبور لدار القرار، وأن الزمان متحد مع الفراغ معا، أما التفكير فلا يدخل في الزمان والفراغ، وقد نعلم أن البصر المغناطيسي يكشف أشياء مخبأة على مسافات بعيدة، فهناك أشخاص يرون حوادث وقعت في الماضي أو ستقع في المستقبل، ولربما يعجزون أحيانا عن تمييز المستقبل عن الماضي، فقد يتحدثون مثلا عن رؤيتين مختلفتين عن حقيقة واحدة من غير أن يرتابوا في أن الأولى للمستقبل والثانية للماضي، وقد يقول «كاريل» : «يوجد في أفراد معينين عنصر روحي قادر على السفر في الزمن» إن حقائق التكهن تشير إلى وجود مبدأ روحي قادر على انتشار خارج حدود أجسامنا، والمختصون في علم الأرواح يؤكدون بأن ظواهر معينة دليل على حياة الشعور بعد الموت، فالوسيط مثلا يعتقد بأنه مسكون بروح ميت، فيكشف للقائمين بالتجارب عن بعض التفصيلات لا يعرفها إلا الميت فقط ولا تلبث دقتها أن تثبت آجلا أو عاجلا. فالزمان يبقى عبارة عن حالات متنوعة في المكان، وخيوط داخلية في تكوين المادة الصلبة كما هي داخلة في تكوين مشاعرنا التي تشعر بها أرواحنا، فتبدو الأبدية في كل مكان، من حولنا

وفينا، وليست مجرد سراب تظهر من وراء الفضاء، وهكذا تقوى النفس وكنمو مع مرور الزمن، بينما الجسد يضعف ويضمحل بعد بلوغ النضج الكامل بتأثير الزمن وحده، وبالتالي فإن الدوام يمثل للجسد المادي معنى يغاير تماما معناه بالنسبة للروح، فدوام الجسد ضعف واضمحلال، أما دوام الروح فنضج في العقل والفضيلة والوعي والملكات، والمصدر الحقيقي لهذا كله، هو أن الزمان يغذي الجسد الأثيري الذي يحمل الروح ويستمد منها الشعور بهذا الزمن، فإذا كانت لا توجد هناك وسيلة علمية على ما أعتقد بمقدورها أن تبين حقيقة صلة الوجود الإنساني بمفهوم الزمن وبمدى قدرته على الإحساس به، فإن أقوى وسيلة تلك التنبؤات الصحيحة بأحداث المستقبل.

يقول الأسقف «درايتون توماس» بأن بعض أهدافنا الدنيوية يمكن أن تكون محل مراقبة من طرف أصدقائنا الموجودين في العالم الآخر، فيكون بمقدورهم أن يؤسسوا عليها توقعات قد تصح غالبا، كما أنه بمقدورها أن تعدل من خططنا أو تتعاون معنا أحيانا كما لاحظناه في جلسات أو أن تنبئات بخطط مرسومة في العالم الآخر. . . إلى أن ينتهي بأن مراسلينا الروحانيين قد أخبرونا بأنهم حصلوا على تنبآت مستقبلية من أرواح راقية في مستوى أعلى، وفعلا هذا هو مجرد تحريك موضع المشكلة إلى خطوة أبعد مما هي عليه.

إننا لو أدركنا أن الحياة بعد الموت تقدم لنا أفقا بدون حدود قصد التطور عن طريق التدريج، يكون من المنطق أن نفكر في أن أولئك الذين توفوا منذ آلاف السنين الماضية قد حصلوا على مستوى من الإدراك والطاقة العقلية التي تتجاوز بكثير مدى إمكانيات تصورنا، ثم يمكن أن نضع في تصورنا مدى نمو القدرة على المعرفة خلال سنوات قليلة على الأرض تمر فيها المراهقة ثم البلوغ، فما بالنا بالتطور الذي يمكن أن ينعم به أولئك الذين أمضوا قرونا عديدة في ذلك العالم من غير أن تعوزهم سنة ولا نوم.

-XII-

التكوين الروحي للإنسان

التكـوين الروحي للإنسان مرتبـط بعوامل عـدة، منهـا عـامل الإرتباط بالتكوين الفطري، ومنها عامل الإرتباط بتكوين الذرة، ومنهـا عـامل الإرتبـاط بالأثـير وبالفراغ والزمان والمكان، والبحث العلمي بين هـذه الإرتبـاطات لازال قـاصرا عن حقائقـها، لقـد كـان الإنسـان فيـما مضى يفـهم أن المادة صلبـة، وهو اليوم تظهر له جلية أنهـا مجرد كهـارب في رتبة اهتـزازات معينة، وهذا المصدر هو الكفيل باقتـناع وجـود عالـم للأرواح يتـولى تنظيم عملية اهتزاز هذه المادة، كـما يتولى الربط بين كهـاربهـا التي لا تربطهـا أية قـوة من عـالم المادة، وهي مظهـر خارجي لعـالم آخر هو أصل هـذه المادة ومبدعـها، لقد أصبـح من المسلم به أن كـل جسـم صلب له جسـم أثيري ثان يربط بين كهـاربه ويحافـظ على تماسكـهـا، ولنستعـن بـرأي «ويلْ ديُورَانْتْ» ولد سنة 1885م حيث يقول «عناصر الذرات التي تنحل تغنى تماما وتفقد كل صفـة للمادة بما في ذلك الثقل وهو أكثر صفـاتها الرئيسيـة، ذلك أن الميزان يعجـز عن وزنها، ولا يستطيع شيء أن يعيدهـا إلى حـالة المـادة، فقـد اخـتفت في عـظمة الأثير. . . والحرارة والكهرباء والضوء إلى غيـر ذلك تمثـل آخـر مراحـل المـادة قـبل اختفـائهـا في الأثـير، والمادة التي تنـحـل تخـرج من مـادتيـها بمرورها في حالات متتابـعة تنـتزع منهـا تدريجيـا صفـاتها المادية التي تعـود في النهـاية إلى الأثيـر الذي لا يمكـن وزنه، وهو ذلك الأثيـر الذي يبـدو أنهـا نشـأت منه. . . ». فلم يبق فرق أسـاسـي بـين الموجات الكـهرطيسية والضوء واللون والحرارة الإشعـاعيـة، كلها قـابلة للتبادل والتحول، تعمل كأنهـا في مجموعـة، والفـضـاء من خلالـها يموج بإشعاعـات متزنة، تحدث حركات في نظام بـالغ، وبذلك تصبح المـادة دوامة من الطاقة تسبح في رحـاب الفـضاء الواســع، فالفـكـرة عن المادة ليست جسمـا كما كـان المعتقد، كـما أن الزمـان والفـضـاء ليسـا إلا من خـواص الوجـود الذي نـحن مرتبطـون به، وبهـذا تـنهـار فكـرة المادة.

التي تعمل فينا تتدفق من الخالق الأزلي، القادر الواحد الأحد ذي الطول، ولكي تصبح لنا القدرة على إجتذاب هذا المجرى من الطاقة الداخلية، نحتاج إلى فن من التوجيه الروحي الصحيح، ومن اعتاد على الإيمان والتوجيه الروحي الصحيح فلن يعرف للخوف سبيلا.

إن العاملين على البحث في حقل القوة الروحية يؤكدون أن إشعاعات تنبعث من حقول الطاقات الآدمية البيولوجية والروحية بوجه عام، وإشعاعات العقل بوجه خاص، وهذه الأخيرة تكون أكثر فعالية بمقدار توافر المقدرة على تركيزها في هدف محدد، وتكون أكثر ضعفا حينما تكون خاضعة لتوجيه مهلهل غير مركز لموضوع واحد فتتبدد، ويجب أن نضع في الإعتبار أن خلايانا تتكون من حوالي ثلاثين بليونا، كل خلية تأخذ نصيبها من الإشعاع تنقله إلى شعورنا ولاشعورنا الأسمى. فالفكرة أو الشعور أو دافع الإيمان والإرادة، في الواقع ما هو إلا أمر قادم من أعلا حامل لإشعاع موجه إلى كل خلية على حدة. كما هو موجه إلى كل الخلايا بدون اعتبار للنتائج التي تقوم بتنفيذها، ولهذا إذا نحن شعرنا بضيق أو ضعف أو تعاسة فالسبب أننا قمنا بعملية سجن وشلل لخلايانا التي لا تحصى، والتي أصبحت لا تتعاون نتيجة لاوامر متناقضة أصدرها اليها العقل، ومن هذا المنطلق يتعين علينا ان نعيد النظر في أنفسنا بأنفسنا نتيجة أفكارنا الزائفة، وبسبب توجيه روحي سلبي فوضوي يرفض التعاون المطلوب مع الخلايا. ان توجيه مشاعرنا نحو إصدار إشعاع ايجابي في دفعة قوية تعيد بناء التناسق بين الروح والجسد وبالتالي الصحة، فيبدو واضحا ذلك الاتحاد العميق بين أعضائنا وبين الدفعة الاشعاعية من داخل الخلايا، فيصح إذ ذاك تسميته باشعاع الخلايا، وكمثال على ذلك فاننا قد نفكر في وجبة لذيذة تنشط الغدد اللعابية والافراز المعدي يقابل ذلك ايضا دفعة تأتي عن طريق الخوف او الشجاعة فتولد عن طريق تأثير الاعصاب والغدد في الدم وفي كل الاعضاء تغييرات عميقة لها صلة بتكاثر الخلايا، وهذه التأثيرات تمر باللاشعور متجهة الى اي عضو بوجه خاص، ان التجارب علمتنا ان التوجيهات الروحية السلبية كالضيق والخوف مثلا يمكن ان تجر الى زعزعة مباغتة للروح وانهيار في الصحة، بينما الحفاظ على تناسق الذات بسبب التوجيهات الروحية الايجابية تقودنا إلى ملء نفس هذا الجسد بطاقة جديدة ومتجددة يساعد على دعم الصحة النفسية والجسمية والعصبية. ان الروح تساعد على علاج الجسد، وهذا التداخل ما يدعى بالاشعاع الذاتي الفكري الى الجسد، كم من أمراض مستعصية يعجز معها الجراح فتتحسن بأساليب إغاثية من الروح، عكس ما يحمله البعض من تشاؤم تعكس على أجسامهم متاعب بسبب تأثير التوجيه الضار للعقل، وهكذا فان الثقة التامةبالايمان والتوازن تفقد جدور المرض

والالم ويحل محل ذلك الشفاء، ان العجيب في الامر ان الروح تؤثر في النباتات فتكسبها الضعف أو القوة، فما بالك بالتأثير المتبادل بين روح الفرد وخلاياه ومن لطائف القول ان من كانت روحه مليئة بالحب نحو الجميع متفتحة للانسانية طيبة عطوفة مغيثة، فان شعور الاخرين لمساعدته لهم وارشادهم تعكس هذا السلوك الايجابي عليه من طرفهم فيتبادلون الكفاح المشترك نحو السمو الى درجة أسمى عن طريق الدفعات المتبادلة، وهذه إشارة لتحقيق الذات، بمعنى أننا نعيش جميعا في حياة تكون قد أغنت انفسنا عن طريق مواهبنا.

يقول «إيكنهارت» في «جوهر الروح» : «بمقدورنا ان نرى الله ونتعرف عليه، وبمقدار ما يستخدم الانسان ذكاءه خلال هذه الحياة، بقدر ما يقترب من جوهر الروح، وبقدر ما يتعرف على الله. فبداخلك أنت ترقد الحقيقة وتكمن ولن يعثر عليها انسان اذا ما بحث عنها في العالم الخارجي. انني أعثر على الله بيقين أكثر في أعماق داخلي، فهو الحقيقة بذاتها التي نتعرف عليها في جميع الاشياء، بينما لا نتعرف على هذه الاشياء».

انه بقدر ما يمكننا ان نتعرف على وجود طاقات روحية ذرية بداخلنا بقدر ما تثبت ردود الفعل في شكل حلقات لسلسلة ايجابية تحقق من الداخل والخارج التناسق الذي يجلب السلام والسلامة لنا، وانه بقدر ما توجد الثقة يوجد الحب، وبقدر ما يوجد الحب يكون قرب الخلاص من الشر، وحيث أن الثقة تكون الوحدة، فمن البديهي ان تنبعث من الوحدة، قوة وبهجة تسمو نحو الارتفاع والعلا في تناسق ثلاثي يتجلى في التناسق مع أنفسنا ومع العالم المحيط بنا ومع الازل.

فالروح موجودة في أعماقنا، وتدل عليها مظاهرها الخارجية وقدرتها الفائقة التي تتجلى في السيطرة على وظائف المادة، كما ان هناك مراكز لطاقات كونية تنتج عنها حركات دائرية موجية ثانوية في وسط الجسد الاثيري لها مركزها والوانها وهي تنقسم الى ثلاث مجموعات على الشكل التالي .

مجموعة أ : تضم مركزين

• أولا : المركز الجذري وهو موجود عند نهاية العمود الفقري، ينقسم الى أربعة اجزاء، الوانها احمر وبرتقالي. وهذا المركز يمتص طاقة خاصة من عالم المادة.

• ثانيا : المركز الطحالي، ويقع فوق منطقة الطحال، به ستة الوان . أحمر - برتقالي - أصفر - أخضر - أزرق - بنفسجي، وهو يمتص القوة الحيوية من الشمس ويوزعها على باقي مراكز القوة بحسب ألوانها.

مجموعة ب : تضم ثلاثة مراكز تمتص القوة اللازمة لشخصية الانسان

• ثالثا : المركز السري، وهو يقع مقابل الظفيرة الشمسية، مقسم الى عشرة أقسام دائرية ذات إشعاعات خضراء وحمراء. وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالانفعالات والعواطف.

• رابعا : المركز القلبي، وله 12 إشعاعا، لونها أصفر ذهبي متألق.

• خامسا : المركز الحنجري، وهو مقابل الحنجرة، وله 16 إشعاعا يتألق بألوان خضراء وزرقاء تشبه ضوء القمر.

مجموعة ج . وهي مجموعة المراكز العليا وتضم مركزين.

• سادسا : المركز الحاجبي، وهو موجود بين الحاجبين، يبدو كأنه منقسم الى نصفين احدهما وردي اللون يتخلله بعض الاصفر، والثاني بنفسجي مائل الى الزرقة له 96 إشعاعا وهو وثيق الصلة بالغذة النخامية التي تسيطر على الغدد الصماء بالجسم المادي.

• سابعا : المركز الاكليلي أو التاجي، وهو موجود في قمة الرأس يتألق بشدة حيث انه يحتوي على 960 إشعاعا يغلب عليها اللون البنفسجي، وفي مركزه 12 إشعاعا تتالق بلون ذهبي خاطف، وهذا المركز وثيق الصلة بالغدة الصنوبرية، التي هي نقطة الاتصال بين الروح والجسد.

فهذه المراكز الطاقية خاضعة للمستودع الكوني للطاقة، ولها صلة بنشاط الانسان في الوقاية من الامراض العديدة كانت عضوية او عصبية.

وهناك الهالة التي تتميز باعلى اهتزاز عن الجسم الاثيري وليست جزءا من الجسد المادي ولا من خصائصه، وانما هي محيط خارجي من الجسد الاثيري متصلة به، وهي عبارة عن إشعاعات ضوئية تصدر من هذا الحقل البيولوجي، وقد يراها وسطاء الاستشفاف بيضاوية تعلو وتنخفض وتتحرك بصور شتى في أجزاء الجسم، وهي تختلف من شخص لآخر، ذات الوان متداخلة كقوس قزح يختلف لونها من شخص لآخر من أخضر أو أزرق أو بني الى غير ذلك.

والهالة عند الروحين تعني الجو الروحي المحيط بالاشخاص وبالاشياء، ولها أصناف متعددة بقدر تعدد الوجود، من وظائفها انها تحمي العقل أيضا من التأثيرات التي يتلقاها من الخارج، والتي تبدو في صورة مضايقات نفسية او قلق او عدم استقرار، وثبت انه بالامكان تشخيص بعض الامراض عن طريق اضطراب الهالة، يعرف هذا أصحاب موهبة الجلاء البصري، بحكم ان بعض الامراض تظهر اولا في الجسد الاثيري ثم تترك أثرها في الهالة، وهذا يعني ان صحة

الانسان لا تعني الجسد وحده، وعن طريقها يمكن قراءة بعض الافكار والاتجاهات، فمثلا اذا كان لونها يميل الى الوردي فقد يعني الحب العذري، كما لوكان أصفر فقد يشير الى النشاط العقلي الراقي، وان كان أزرق يميل الى اللون القاتم فقد يعني التدين، اما الاخضر الرصاصي فقد يشير الى الخديعة، والاخضر القاتم يعني الغيرة، والزاهي يعني التسامح، والاحمر الزاهي يدل على العضب والعناد، والاحمر القاتم يشير الى الشهوانية، والبني يعني حب المال والجشع الى غير ذلك.

وقد وجد في الهالة مراكز للطاقة ينبعث منها أشعاع أكثر دقة وإشراقا، وهذه المراكز تربطها خطوط دقيقة من الضوء تحدد الإطار الخارجي للشكل الإنساني.

-XIII-

الحياة بعد الموت

إن النفس تجمع محصول ما زرعته «لتجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» فإثبات بقاء الروح بعد فساد البدن أمر لم يعد فيه شك، لقد كتب الإمام الفخر الرازي تفسيرات في إثبات بقاء الروح في تفسيره المسمى «مفاتيح الغيب» خاصة في تفسيره قول الله تعالى «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي» وقوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون» وفي قوله تعالى «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا»، وقوله تعالى «أغرقوا فأدخلوا نارا».

قال صلى الله عليه وسلم «ألا إن أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار» وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبة طويلة : «. . . حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش ويقول : يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حله وغير حله، فالغنى لغيري والتعب لي، فاحذروا مثل ما حل بي»، وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب الأموات ذات ليلة في مقبرة القليب مع ذكر أسمائهم «. . . يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام. . . يا فلان. . . يا فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا، فقال المسلمون : يا رسول الله، أتنادي قوما قد جيفوا. فقال صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأسمع ما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون جوابا». وفي رسائل إخوان الصفا : أن الإنسان بعد مفارقته البدن يكون علي نفس تلك الصفات التي اكتسبها في الدنيا، ثم يقولون على أن النفوس المتجسدة للأخيار قبل الموت تكون ملائكة بالقوة، وبعد مفارقتها للبدن تصير ملائكة بالفعل، وهكذا فالنفوس المتجسدة الشريرة شياطين بالقوة، وبعد مفارقتها البدن تصير شياطين بالفعل. قال تعالى «شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول

غرورا» فشياطين الإنس هي نفس النفوس المتجسدة، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة التي تخرج من الأجسام الدنيوية. إن بقاء الروح وكيفية الحياة البرزخية والأخروية للنفوس بعد مفارقة البدن أمر ثابت، وزاد من مصداقية ذلك ما كتبه الغربيون في البحث الروحي يوافق عقائد العلماء المفكرين الإسلاميين ويؤكد صحة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة بحيث لا يبقى أدنى شك ولا إشكال لكل عقل سليم، وفي إحدى الجلسات الغربية حضرت روح خياط مقتول، فسألوه عن حادثة قتله وسببها ومكانها فأجاب أجوبة صحيحة تطابق الأوراق الرسمية، ولما سألوه بأن يسمح بإخبار والديه عن حضوره لجلستهم حتى لا يحزنا، أجاب على الفور بأن والديه ينكران بقاء الروح ولن تكون هناك نتيجة إلا الإستهزاء، وهذا ما يدل عليه قول الله عز وجل «ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليومنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون» وقوله تعالى «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون».

والإمام الغزالي وجماعة من علماء الأرواح، اتفقوا على أن الأرواح ثلاث درجات :

الأولى : أرواح سفلية تغلب عليها المادة، ميالة إلى الشر، غير راغبة في الخير، عملها إلقاء الخصومة والسوء، أو طائشة ميالة إلى اللهو واللعب والمزاح والعبث، أو متكبرة مغرورة بمعلوماتها التافهة التي لا قيمة لها تبتعد عن الحق والحقيقة وهي عقيمة لعدم لياقتها.

الثانية : أرواح علوية، وهي ميالة إلى الخير والصلاح، وهي إما صالحة تتصف بالجود وإلهام نيات الخير بباطن الناس الأحياء وأفكارهم ولكن معارفها محدودة وترقيها العقلي أكثر من ترقيها الأدبي، وإما حكيمة لها صفات أدبية متحسنة بلا نقص وعلومها من الناحية المادية زائدة، أو أرواح رفيعة جمعت بين العلم والحكمة والفضيلة تنفثها فيمن يطلبون الحق ببواطنهم بخلوص نية وبعد عن المطامع الدنيوية.

الثالثة : أرواح نقية وصلت إلى أعلى درجات الكمال، ليس لديها رغبة في الماديات كل اهتمامها هو الله، وقد ترتبط بمن له مقام سامي وقلب مجرد من الرذائل، وهذه الأرواح هي أرواح الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين مصداقا لقوله عز وجل «أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا».

أما الأرواح الخبيثة فهي مصداق الآية الكريمة «إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم قولا زورا»، طبقا لما سبق، فإن ملكات الإنسان لا تتغير بالموت، فالوحش يبقى وحشا والعاقل يبقى عاقلا والجاهل يبقى جاهلا، مصداقا لقوله تعالى «من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى» وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم «إن العبد يحشر على ما مات عليه».

-XIV-

شخصية الإنسان في عالم الروح

إن شخصية الإنسان في عالم الروح كثيراً ما تطرح لغزها فتخلف من ورائها الحيرة إلى ذلك العالم المجهول، كم تكون دهشة الإنسان القادم إلى عالم الروح حينما يرى جسمه البشري هو نفس الشكل والملامح تماما، ولنأخذ قول «جيمس آرثر فندلاي» مدير المعهد الدولي للبحث الروحي بلندن حتى وفاته سنة 1964م «نعيش هناك رجالا ونساء كما نعيش هنا، وما كلمة روح إلا تسمية أرضية، وليست جسومنا الأثيرية مشابهة فحسب لجسومنا الأرضية في تفصيلاتها كلها، بل هي أيضا حقيقة محسوسة لأصحابها كجسومنا بالنسبة لنا. . . لنذكر أننا حين نخلع عنا جسمنا الفيزيقي فإن كل فيزيقي يصبح غير حقيقي ويصبح كل أثيري حقيقيا إزاء وعينا.

ولقد عرفنا الكثير بخصوص المادة، فهي لا تنعدم حين لا تراها عيوننا الفيزيقية، وقد يتضح هذا على أتمه لو أننا أخذنا قليلا من الماء وسخناه ثم لاحظنا تأثير ذلك، فأولا نجد بخارا منظورا بعضه، ثم فوقه بخار غير منظور، وإذا عكسنا العملية بالتبريد استطعنا أن نستعيد هذا البخار غير المنظور إلى ماء كما كان، ففوق البخار، هذا لا يزال مادة علي الرغم من اختفائه عن الأنظار، وكل ما حدث هو أننا زدنا اهتزازاته ثم خفضناها حتى صار ماء مرة أخرى، فجسومنا الأثيرية تهتز بسرعة تقصر عن إدراكها عيوننا الفيزيقية.

ولا يبدو على الوجه هناك تأثير العمر جليا، فليس للروح أو بالأدق للجسد الأثيري من عمر يهد من قواه، أو من تأثير سيء في جمال الوجه أو البشرة، وذلك في الوضع العادي للإنسان، وما لم يقصد هو إظهار شخصيته السابقة قبل انتقاله إلى هناك لمجرد إمكان التعرف عليه.

ومن ينتقل في شبابه الأرضي يظل على هذا الشباب، ومن ينتقل في سن الطفولة ينمو كما لو كان قد ظل على الأرض، ويجد هناك عناية كافية وقلوبا رحيمة كثيرة من أقاربه الذين سبقوه إلى عالم الروح وغيرهم، أما من ينتقل في شيخوخته فإنه يرجع إلى شبابه تدريجيا

بحكم وجوده في أجواء الأثير التي لا تعرف الشيخوخة ولا تعترف بها، إذ أن الشيخوخة صفة تلازم الجسد المادي ولا تلازم الروح، أو بالأدق لا تلازم العقل الذي ينمو على مر السنين ولا يضعف بها، حتى أن الشيخوخة هناك هي في حقيقتها مزيد من الشباب.

إنه على هذا المعنى أجمعت الأرواح في أحاديثها، والثابت أن العقل يلازم الجسد الأثيري وهذا يعني أن الذاكرة ملازمة له قابلة للتطور معه، فتنمو بنمو العقل من غير توقف، يقول الفيلسوف الوسيط «سويد نبرج» في منتصف القرن الثامن عشر أن للإنسان ذاكرتين، واحدة خارجية تنتمي للإنسان الطبيعي وواحدة داخلية تنتمي للإنسان الروحي ـ أي الجسد الأثيري ـ وهذا ما يعرف عند علماء النفس بالعقل الباطن. والإنسان يحتفظ هناك بالعاطفة التي كانت لديه في الدنيا، فتتقدم تدريجيا بحيث لا شيء يحجز عن التكامل إلى ما لا نهاية، فكل شيء ينمو ويستمر فلا نهاية لأي شيء طيب، لأن الطيب يستمد وجوده من اللانهاية، وهكذا تتقدم الأرواح باضطراد نحو الحكمة عن طريق معرفة الحق والخير، وقد يحدث التفاوت من إنسان لآخر، فالذكي الطموح قابل للتطور أكثر من البليد القانع بحاله، وما دمنا بهذا الصدد فلا بأس أن نعطي صورة من هذا النوع، فهذه روح «سير آرثر كونان دويل» تتحدث إلى الأسقف «شارل تويديل» في إحدى جلساته قائلا «إن هدفي في هذه الحياة هو أن أحب كل إنسان، وأن أفعل كما كنت أفعل عندما كنت في الجسد الفاني، إنك تعلم يا «تويديل» أنه بدون طموح لا يمكن أن توجد سعادة حقيقية، ولذا فنحن نظل طموحين في اتجاه أو في آخر، ولكن بما أنه لا يوجد هنا طموح من طبيعة طموح الأرضين، مثل طموحهم إلى المال، فلا حاجة بنا إلى أن نخرق القوانين، والأمر الهام هو تقدمنا الروحي، وإذا كانت ذاكرتنا تحيا بعد الموت، وإذا كنا نتطلع خلفنا إلى حياتنا الأرضية متأملين فيما أخطأنا فيه، وإذا كنا مستعدين وقابلين إصلاحها، فإننا نشرع على الفور في بذل أقصى جهدنا في هذا السبيل، ولكن العقل ينبغي ابتداء أن يكون مستعدا، غير عنيد كما يفعل الكثيرون عند مرورهم إلى هنا، ويمكنني أن أحرر لك صفحات كاملة عن هذا الموضوع». فالإنسان إذن، عندما يستيقظ من رقدة الموت، هو نفس الإنسان بعواطفه وآماله ومعرفته وميوله التي كانت لديه قبل الموت، وإنما يستوعب ببطء معرفته الجديدة بعد تغير حالته ومكانه بمرور الأيام والأزمان فيحصل على تقدم وافر.

وعن تطور وعي الإنسان بعد الموت نأخذ قول الدكتور «جوستاف جيلي» مدير المعهد الدولي لما وراء الروح بباريس : «إن الموت للإنسان المتطور تطورا كافيا يؤدي إلى انفجار الدائرة

المحددة التي كانت الحياة المادية تعتقل فيها الوعي الذي يتجاوزها، وهي دائرة المهنة والأسرة والوطن، فيجد الكائن نفسه محمولا خارج الأفكار والذكريات المألوفة، وخارج حبه وأحقاده وعواطفه وعاداته. وبالقدر الذي يسمح له به تطوره الحالي يتذكر ماضيه كما يصبح لديه نوع من الإحساس السابق بالمستقبل، فيمكنه أن يحكم على الطريق الذي سلكه ويقدر نتائج سلوكه وجهوده، وهناك أشياء كثيرة تبدو لها أهمية قصوى في سجرى حياته تظهر له عندئذ تافهة وضئيلة القيمة عند النظر إليها من عل. كما أن فرحاته الكبرى وآلامه وانفعالاته التي لا تتناسب مع النتائج، ومشاعره التي اجتاحت حياته، ومطامحه التي افترستها، كل ذلك يتضاءل عندئذ إلى مقداره الحقيقي، فلا يشغل بعد إلا مكانا ضئيلا في تسلسل ذكرياته الواعية. وبين روابطه القديمة يتلاشى الواهي منها كما يتلاشى الضباب الخفيف مع طلوع الفجر، أما الروابط القوية فهي تكون جزءا لا يتجزأ من سلسلة مصيره، ولا يمكنه التخلص من حلقاتها إلا تدريجيا. فهذه الفترة التي يقضيها الإنسان خارج الأعضاء ليست فحسب مرحلة استجمام وتركيب عام وحكم تلقائي على النفس، بل إنها بوجه خاص مرحلة نشيطة جدا للإندماج النفسي، إذ فيها يتم في هدوء اندماج التجارب الجديدة في التجارب القديمة، كما تتميز في الكائن حالات الوعي التي تم تسجيلها خلال الحياة، وهذا الإندماج لا غنى عنه لتوحيد الشخصية وللتناسق الروحي، فيبدو أن اضطرابات الشخصية - لا ترجع مهما كانت غريبة غامضة - إلا إلى عدم الإندماج النفسي بمعرفة الكائن قبل حياته الحاضرة، وإلى ميل العناصر العقلية التي لم تمثلها الذات نحو المروق عن سلطة العقل ومناهضتها. . وفي الجملة يبدو أن المراحل المتتابعة للحياة العضوية وخارج الأعضاء لها دور في التطور متميز هنا عنه هناك، ولكن مكمل له، وفي سلسلة الحيوات المتعاقبة لا يبدو للحياة الأرضية من قيمة تذكر إلا كقيمة يوم واحد في مجرى هذه الحياة، فللحياة الأرضية برمتها ولليوم الواحد نفس القيمة، وبينهما تماثل حقيقي، فهناك أيام سعيدة وأخرى سيئة، كما توجد حيوات سعيدة وأخرى سيئة، كما توجد أيام وحيوات مفيدة وأخرى ضائعة. . . إلى أن يقول : وهكذا الحال من وجود إلى وجود، وعن طريق فيض التجارب الكثيرة المسجلة المهضومة يصل الكائن شيئا فشيئا إلى الأوجه السامية من الحياة التي لا يكفلها إلا التطور الكامل للوعي، أي عند تحقيق السيطرة عليه. والسيطرة على الوعي ينبغي أن تمتد - كغاية مثلى - على الحاضر والماضي والمستقبل، بمعنى أن تحقق نوعا من الإحساس الغامض بالمستقبل الذي لا يبدو مفهوما الآن، ولكن ما يمكننا بالأقل أن نصل إليه عن طريق المنطق هو حالة من معرفة الذات والكون متسقة بالقدر الذي يمكنها من إلغاء نسيان الماضي، ومن السماح بالإستخدام المنظم والطبيعي للملكات السماوية وما وراء الروحية، وبالتالي من

رؤية معجزات التطور المتحرر السعيد، المنبثق في النهاية من ظلمات الجهل، ومن قيود الحاجة ومن الآلام الرهيبة».

إن علم الروح أقام الدليل على تأثير العقل في المادة، وهذا التأثير مادام حقيقة مقررة فقد يبلغ مداه في عالم الروح، حيث يؤثر العقل بطريقة مباشرة في مادة الجسد الأثيري فيعطيها مظهرها الخارجي الذي به يتعارفون هناك كما هو الشأن في تعارفنا على الأرض، ثم أن شباب العقل يضفي على الجسد الأثيري شبابه الأبدي، فقد يتشكل الإنسان هناك بحسب الذاكرة التي تعمل عن طريق العقل، ومن المشاهد في الجلسات أن الروح حينما تنزل إلى المستوى الأرضي تتشكل في صورة أيامها الأخيرة على الأرض ليتعرف عليها الحاضرون، وحين عودتها تأخذ شكل شبابها الذي لا يكبدها أي مجهود ذهني، ومن أجل ذلك فإن جمال الأخلاق يضفي على صاحبه هناك جمال الجسد الأثيري فيتفاعل العقل معه بصفه مستمرة، وبالتالي فإن ملامح الإنسان هناك تعبر تعبيرا تاما عن حقيقته ومشاعره من غير تصنع. وقد يقول «سويد نبرج» «إن الشكل يبدو جميلا بقدر ما يكون صاحبه قد أحب داخليا الحقائق المقدسة وعاش فيها، لأن داخليات الإنسان تصبح هناك مكشوفة وتتشكل بحسب المحبة والحياة، وبقدر ما يكون الحب داخليا بقدر ما يكون مطابقا للسماء، وبقدر ما يكون الوجه أكثر جمالا بالتالي. . . » ويزيد قائلا «لقد رأيت وجوها ملائكية من السماء الثالثة لا يمكن لأي رسام مهما أوتي أن يعطي لألوانه بريقا من الضوء يعادل جزءا من ألف من البريق والحيوية اللذين يلمعان على وجوه هذه الملائكة، أما وجوه ملائكة السماء القريبة فيمكن للرسامين أن يقلدوها إلى حد ما. أما على المستوى الأرضي فإن قوانين الوراثة البيولوجية تلعب الدور الأول في تشكيل الجسد الذي يتجاوز كثيرا دور الروح أيا كان مستواها في نضج الخلق والعقل بدون إنكار لتأثير الذاكرة في الشكل، فإن شكل الإنسان هو في النهاية نتاج ذاكرته أي نتاج عقله في حدود قوانين الوراثة هذه. أما هناك فشكل الإنسان خاضع خضوعا مباشرا لذاكرته.

وأخيرا ماذا عن الحواس ؟ إن الجسد الأثيري يحمل حواس الإنسان ويستخدمها هناك ما يقابل الأعضاء الأرضية، وهذا الإستخدام هناك يظهر تدريجيا، لكن بعد الإنتقال بوقت كاف لا يبقى لحاستي اللسان والسمع معنى، فقد يصبح التخاطب عن طريق التلباثي - أي الإتصال الفكري - وهذه هي الطريقة الطبيعية للتفاهم.

-XV-

الطبيعة في عالم الروح

عالم الروح هو عالم حقيقي لا رجعة في هذا القول، وهذا العالم أكثر نشاطا من عالمنا، والأرواح فيه ترى مناظر مشتركة تميز طبيعة المكان، فهناك مناظر طبيعية وسهول وجبال وهضاب وصحاري وأنهار وبحيرات ومحيطات ومروج وأزهار إلى غير ذلك، ولا مبالغة إذا قلنا بأن كل ما يوجد على الأرض من مناظر له نظيره في ذلك العالم وأزيد، وكما تخبر الأرواح بذلك فإنها منتشرة في كل مكان، والزهور تكاد تنبض فيها الحياة كما لو أنها كائنات حية، وترسل منها روائح عبقة، بل ينبعث منها رنين لمن داعبها، فروائع الطبيعة تتجاوز بكثير ما هنا على الأرض، ولا أثر للزلازل والبراكين والأعاصير باستثناء رياح هادئة خفيفة، ولا أثر للأمطار باستثناء غيوم أثيرية، والماء كثير غير أنه لا يحدث البلل، وهو مجرد اللهو والمتعة لا من أجل الإغتسال، لأن طبيعة الحياة هناك ضوئية لا تعرف القذارة، هذا ما أجمع عليه الروحيون وما أخبرت به الأرواح، أما الليل لا أثر له، فكل ما هناك شفق يبدو هادئ النوم ومدته قصيرة تهجع فيها أغلب الأرواح للراحة في منازلها، فهي تغفو لفترات لكنها لا تعرف للنوم سبيلا كما هو الحال في عالمنا الأرضي، ومن المتفق عليه أن الحيوانات هناك موجودة بجسدها الأثيري أيضا. تواصل حياتها في مناطق معينة ومختلفة من العوالم الكوكبية الأثيرية وإن كان من الراجح لا تصل إلى المستويات الروحية والعقلية التي تعلو هذه وتلك، والسائد في الإعتقاد الروحي أن جميع الكائنات على اختلاف أنواعها لها حياة أخرى بعد الموت بما في ذلك الحيوانات الأليفة وغير الأليفة والأسماك والحشرات والفراشات والحيوانات المفترسة غير أنها تفقد رغبة الإفتراس بفقدانها حاجتها للطعام، كما هو الشأن بالنسبة للحيوانات الأليفة التي لا يؤكل لحمها ولا تمتطى ظهورها وإنما هي للزينة وإشباع نزعة بعض الناس، أما الطيور والفراشات فهي في الحدائق والمنازل بوفرة وهي لا تخاف الإنسان ولا تعاكسه، وفي هذا الشأن تقول روح «سيلفر بيرش» «الدينا مملكة حيوانية كبيرة يسكنها الجميع سويا في سلام، فيها كل

الحيوانات وكل الطيور، وقد انعدمت بينها البغضاء، هنا يرقد الأسد مع الحمل فلا يتنازعان أو يفترس أحدهما الآخر، لدينا حدائق جميلة كثيرة فيها أزهار من كل لون ومن كل صنف متسقة في شكل جمالها الذاتي، لدينا ألوان لم تروها قط، لدينا بحيرات جميلة وجبال وترع وأنهار وطيور عجيبة لها ريش فاخر وألوان جذابة، لدينا أنواع كثيرة جميلة من الحشرات ليست كتلك التي عندكم، وإنما هي تطورت لأنها انتقلت من طور الشرانق وبرزت في كل بريقها. . . »

إن النبات والحيوانات أجمعت عليها كل الكتب الروحية فيما بعد المادة، وكما تحدثت عن ذلك عدة أرواح في جلسات عدة، كما تجسدت حيوانات وطيور أمكن تصويرها.

لقد أشرنا سابقا إلى ثبوت تأثير العمل المباشر في المادة وسيطرته عليها، وعلى إمكان استقلاله عنها، ومن هنا نكشف واقع مظاهر الحياة هناك، إذ الحياة عقلية بكل معنى الكلمة ابتداء من المستوى الثالث الذي يرتكز أسلوبه اليومي على طريقة الخلق بالفكر. إن التأثير المباشر للعقل في المادة هو كل شيء هناك، فالموت الفيزيقي هو مولد الجسد الأثيري في عالم ما بعد المادة، فالإنسان حينما يدرك أنه ولد من جديد ينتابه الخجل الغريزي ويشعر بحاجة إلى رداء يستر به بدنه، فيبحث هذا العقل عن الرداء فيصنعه من الأثير بطريقة لا شعورية، فيكون هذا أول درس تلقته الروح من الطبيعة عن طريقة حياتها الجديدة، ومن هذا المنطلق فإن كل مادة صلبة أو رخوة يصنعونها بتأثير العقل في الأثير، وهذا يبدو شيئا ما فوق تصورنا ولكنه الواقع المحتوم، إذ يبدو العالم هناك عقليا صرفا، إذ نواميس الحياة هناك أرقى بكثير على المستوى الأرضي، فلا غرابة إذا قلنا بأن الأرواح تصنع حاجاتها باستخدام العقل، فهم يصنعون أزهارهم ونباتاتهم وأشجارهم بأساليب عقلية تغزو الحرث والغابات إلى غير ذلك فتبدو لحواسهم صلبة، وعن طريق هذا التأثير العقلي أيضا يشيدون مبانيهم ويوسعونها أو يزيلونها، إن كل ما في الوجود نسبي، فالتأثير المباشر للعقل في المادة ينمو مع الوقت كما يعلو كلما علا مستوى الحياة أو ينخفض كلما انخفض هذا المستوى. كما أن الشيء المراد خلقه بالفكر كلما كان هاما ودقيقا كلما احتاج الأمر إلى ذوق فني وخبرة ومران، فقد يمكن عن طريق التأثير العقلي المباشر في الأثير صنع الطعام الذي يأكله أغلب الأرواح بحكم أنه ما زال علقا بأذهانهم مما تعودوه على الأرض حتى يزول تدريجيا هذا التعود، وهذا الأكل لا ينزل إلى الأحشاء وإنما هو يذوب في الفم فتشعر الروح بطعمه، لأن الجسم لا يتوفر على دورة دموية أو جهاز هضمي، وقد تتنفس الروح كما نتنفس نحن. إن الروح بقدر ما تتقدم بقدر ما تكف عن احتياجاتها الأرضية عما هو أسمى، فعلى هذا أجمعت البحوث الروحية.

والشائع في منازل المستويات الراقية من عالم الروح وجود غرف لاستقبال الضيوف وأخرى تهجع فيها لحظات قصيرة، وذلك بحكم التعود القديم، ولبعض هذه المنازل غرف للعبادة، إذ العبادة تلعب هناك دورا أكثر بكثير مما نعرفه هنا، إذ أن العقول تصبح أكثر استجابة للإهتزازات الكونية العالية فتترنم معها بعد تحررها من ربقة الغلاف الكثيف الذي كان يغلفها وهو المخ، والمساكن مفروشة بأصناف الرياش حسب ذوق الروح الراقية التي تتجاوز وسائلنا اليدوية بكثير، وليس من شرط أن يكون المنزل مستقلا أو متلاصقا، فالروح حسب اختيارها حتى في ذوق النوافذ والأبواب والدرج لإضفاء شكل معين.

وبالتالي فإن هذه المنازل في حد ذاتها تكوّن مدنا جميلة هي أفضل بكثير من مدننا الأرضية، حيث تتميز بحدائقها وبحيراتها المترامية غير أن هذه المدن لا تتميز بالطوابق والعمارات الضخمة والسكنى المشتركة، لأن الضيق لا مجال له هناك كما لا مجال لمشكلة النقل، والجمال لا يحد المساكن والمدن أكثر من مشاعر الخير التي تغذي النفوس السامية. وصخب المواصلات غير موجود، فالإنتقال يكون عن طريق الفكر، ومع هذا فقد يصنعون بعض وسائل النقل من أجل المتعة والتعود كباخرة أو عوامة أو غير ذلك، وفي مستوى العالم الثالث مظاهر حضارة راقية كقاعات ومعاهد ومتاحف ومعارض وفنون جميلة، كما قد تقام حفلات رائعة يعجز عنها الوصف، وإن كان عباقرة الموسيقى يلعبون دورا فلا يقل ذلك أهمية عباقرة الشعر والأدب.
والكشوفات العلمية وأنواعها والمستجدات فيها. لأن الحياة هناك ليست حياة خمول وكسل، بل على العكس من ذلك، فالعوالم الراقية حافلة بصور النشاط الرفيع والخدمات الراقية، فلا بطالة ولا كسل، وليس الدافع هو لقمة العيش كما نتصور، وإنما هو حب للعمل وحده، فكل يختار العمل الذي يحبه ويناسب ملكاته الفنية والعقلية ومداركه وميولاته، فمثلا هناك أعمال حراسة وإرشاد وإلهام لسكان المستويات المادية من أرضيين وغيرهم أو مزاولة نشاط زراعي أو معماري أو صناعي بسبل عقلية لا يدوية، كما أن هناك مجال مواصلة البحث والتعمق في ميادين العلوم المختلفة من أدب وفلسفة وأبحاث علمية نظرية أو معملية أو طب أو فلك إلى غير ذلك، وهناك صور للكفاح الغير المتوقف لنصرة المبادئ السامية والأهداف النبيلة التي تتطلع إليها النفوس من أجل تحقيق العدالة والمساواة في حدود ما تملكه تلك الأرواح متخطية ما قد يصادفها من عقبات، كما أن هناك مساعدة لإنقاذ وتخفيف الآلام والعلاج وتفقد الأرامل الأيتام ومواساة المحزونين، وليست هناك محاكم كما هو الحال عندنا لأن التشريع السماوي يعرف كيف ينظم حياته من غير أن ينظمها له غيره، فلا إرغام ولا تحذير فالحياة متحررة وعقلية بمعنى

الكلمة، وبقدر ما ينمو الإدراك بقدر ما يتيح لصاحبه فرصا متزايدة للسعادة النفسية. فالحياة عندهم فرص وتربية وتعليم وصفاء، فهناك تندمج السياسة مع التعليم مع الجنس مع العقيدة فيصبح كل واحد منها جزءا من الآخر، والأرواح يمكن أن تقرأ كتبنا الأرضية بحكم أن كل كتاب له اهتزاز معين وطول موجه، والفكر هو الذي يعطي للكتاب سرعته الخاصة في الإهتزاز أو طول الموجة، بل كل عبارة وكل كلمة لها اهتزازها الخاص، وعن هذا الطريق تصل الأرواح إلى قراءة مؤلفاتنا الأرضية إن شاءت، أو بالأدق إلى قراءة الأفكار التي وراء العبارات والألفاظ، وبجانب الثقافة هناك هوايات رياضية تحافظ عليها بعض الأرواح كهواية كانت لها على هذا الكوكب الأرضي، فتطول هذه المدة أو تقصر حتى تتخلى عنها تدريجيا، وهذا لا ينسيها عملها المنوط بها، فقد تعشق ركوب الخيل أو السباحة أو الرماية أو الصيد البحري أو الكرة الطائرة إلى غير ذلك، فقد يجد أندية لذلك وهواته وتسهيلات لذلك، كما هو الشأن لمن كان ولوعا بالمطالعة فإنه يشبع رغبته نتيجة التسهيلات التي يجدها، إذ أن العلم غير محدود هناك، وجميع الأعمال القيمة موجودة وبسهولة.

إن نظام الخالق الأعظم قد دبر الأمر بمقدار وبتخطيط عجيب، إن الإنسان يستأنف حياته الأخرى مما شغف به في الحياة الأرضية، فيتصل اتصالا فعليا به، ثم تتاح له فرص الإنغماس حتى يضمن النجاح والتقدم، أما الأشياء الدنيوية فقد يتضاءل الإهتمام بها تدريجيا إلى أن يتخلص منها، ولسنا نقول أنه فيما بعد سيكرهها، ولكنه ينتقل إلى شيء جديد مليء بالحركة والغبطة، وهذا النوع غير مادي بالمرة.

-XVI-

الزمان والمكان في عالم الروح

الكون كله وحدة لا يتجزأ، غير أن الإحساس به يختلف هنا عن هناك، وإننا بادئ ذي بدء نأخذ جانب الرياضيات الحديثة التي توصلت إلى معرفة أن الزمان والمكان لا يعتبران شيئين منفصلين عن بعضهما، إن مستوانا المادي يجعلنا نشعر بالزمان منفصلا عن المكان لأن المستوى المادي مكون من ثلاثة أبعاد هي الطول والعرض والإرتفاع، وهذا التقسيم مرتبط بقدرة الحواس المادية المقيدة بهذه الأبعاد التي تبدو لنا منفصلة عن بعضها، أما العالم وراء المادي في الواقع مكوّن من أربعة أبعاد هي الطول والعرض والإرتفاع والزمن، وهي مجتمعة معا ومتداخلة يتلاشى فيها الزمان بالمكان، ويتلاشى فيها المكان بالزمان، مثل ذلك مثل تلاشي الأسود في الأبيض الذي ينشأ عنهما لون ثالث، فمزج الزمان بالمكان تنشأ عنهما حالة، فالنفس هناك في حالة إحساس بالسعادة أو الشقاء أو مركبة منهما، مثل ما هي توجد في حالة مركبة من الإحساس بالزمان والمكان مندمجين معا نتيجة تحول حواس الإنسان هناك بعد التحرر من اعتقال الجسم المادي الذي كان يحس بالأبعاد الثلاثة فقط، فأصبح يحس بالأبعاد الأربعة التي أصبح مندمجا فيها، فيبدو لحواسهم عالما غير زماني وغير مكاني، والروح كلما ارتقت نما فيها الإحساس بالحالة الزمانية المكانية، وكلما هي لا زالت مقتربة من المستويات المادية للوجود كلما ضعف فيها هذا الإحساس حتى ليبدو لها إحساسها بالزمان والمكان غير مختلفين بكثير عن إحساس سكان الأرض، وهناك افتراض عوالم أخرى مرتفعة قيل أنها خماسية أو سداسية الأبعاد لا يندمج فيها الزمان والمكان فحسب، بل يندمج فيها الماضي مع الحاضر مع المستقبل أيضا.

وهناك نظرية النسبة عند أعلام الرياضيين قربت الفهم عن حقيقة عالم الروح وربطتها بعالم المادة، وهي تلاقي الآن قبولا واستحسانا، كما أن بيانات الأرواح عن وصف عالمهم غير المادي توافق هذا الرأي، فكانت نظرية النسبة من جهة ورأي الأرواح من جهة أخرى عاملا في اكتشاف عالم الروح.

والزمـان بالنسبـة لنا مـا هو إلا حالة ذهنية، ليس له كـيان خـاص به، بعد أن أصبح من خصائص المادة حيث هو البعد الرابع فيها، فهو حالة ذهنية قبل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها، فالمستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضي، وهذا يعني أننا نقطع جزءا من المستقبل ونضمه إلى الماضي، فلا ينقص هذا عن ذاك بحكم أن كلا منهما لا نهائي، لكن الحقيقة الكونية في النهاية هي أن الزمان عبارة عن حالات متنوعة في المكان وخيوط داخلة في تكوين المادة الصلبة مثل ما هي داخلة في تكوين مشاعرنا التي تشعر بها أرواحنا، فهو حالتنا النفسية وحدها، فالأبدية في كل مكان، من حولنا وفينا ومنها تنبع نفوسنا وليست مجرد سراب.

فالروح تقوى وتنمو مع الزمن، أما الجسد ذو الأبعاد الثلاثة فهو يضعف وبالتالي يضمحل بتأثير الزمن، فالدوام صفة مغايرة بين الجسد والروح، فدوام الجسد قابل للضعف والإضمحلال، بينما دوام الروح قابل للنضج العقلي ونمو الوعي والملكات على الأزل، وهذا يعني أن طبيعة الزمن الأزلي الذي لا يقبل الضعف والإضمحلال، بل حرة صاعدة عكس المادة.

لقد جاءت نظرية «أينشتين» الرياضية متفقة مع نظرية الفيلسوف «برجسون» والملهم «سويد نبرج» التي تثبت أنه لا وجود للسنين والأيام، بل تغيرات في الحالات الداخلية لأصحابها، فلا غرابة إن وجدنا الأرواح الراقية تعلن أنها تحيا في عالم زماني مكاني ـ أي له أبعاد أربعة، طول وعرض وارتفاع وزمن ـ لذلك تشعر أكثر أنها في الحاضر، دون نفي إحساسها بالزمن، ومن ثم كان الفارق بين عالم المادة وعالم الروح فارق الحالة أكثر من فارق الزمان والمكان، إنه فارق في قدرة الحواس على الإحساس أكثر منه فارق في المكان الغير المحدود وفي الزماني اللانهائي، مثل ذلك مثل إنسان ولد أعمى لا يمكنه أن يفهم الضوء، لكنه إذا حصل على الإبصار تغيرت حالته ولم يتغير مكانه، وهذا هو الشأن بالنسبة للإنسان، إذا ألقى بجسده المادي، فلن يكون قد غير المكان، وإنما غير الحالة.

ولنختم الموضوع برأي روح «جاليليو» العالم الفلكي المعروف «1564 - 1642م» إذ يشرح معنى الزمان والمكان للجمعية الروحية بباريس سنة 1862 - 1863م، حيث نأخذ فقرتين من فقرات حديثة الطويل فيقول : «إن الفضاء لا حد له، وإن شئنا أن نمثل في ذهننا المحدود عدم تناهي الفضاء فلنتصور أنفسنا طائرين من الأرض نحو إحدى جهات الكون بسرعة الشرارة الكهربائية، فبعد طيراننا بثوان قليلة لا تعود الأرض تتراءى لنا إلا ككوكب حقير ضعيف النور جدا، وبعد قليل تتوارى عن نظرنا بالكلية، على أنه لا يمضي على سفرنا إلا دقائق قليلة إلا

ونكون قد نأينا عن الأرض ملايين في ملايين من الفراسخ ورأينا ألوفا في ألوف من العوالم، ولكن لدى التحقيق نكون لم نخط بعد ولو خطوة واحدة في الكون، وإذا استقام سغرنا أجيالا وألوفا وملايين في ملايين من العصور والدهور فإننا لا نكون مع ذلك قد خطونا خطوة في طريقنا، وذلك إلى أي صوب اتجهنا وإلى أية نقطة أنتحينا من تلك الذرة الحقيرة التي بارحناها وأنتم تدعونها أرضا، هذا ما عندي من تعريف للفضاء.

وأما الزمان فهو كالفضاء لفظة معبرة بنفسها غنية عن التحديد، وقد يسوغ أن ندعوه تعاقب الأشياء باللانهاية، فلنتصور أنفسنا في بدء عالمنا أي في عصر بدأت فيه الأرض تتبختر تحت النفحة الإلهية وبرز الزمان من مهد الطبيعة السرى، فقبلها كانت الأبدية سائدة ساكنة والزمان يجري مجراه في عوالم أخرى، ولما برزت الأرض إلى حيز الوجود استبدلت فيها الأبدية وأخذت السنون والقرون تتعاقب على سطحها حتى اليوم الأخير. أي ساعة أن تبلى الأرض وتمحى من سفر الحياة، ففي ذلك اليوم تتعاقب الأشياء وتزول الحركات الأرضية التي كانت مقياسا للزمان أيضا، فينتج عن هذا أن الزمان يتولد من تولد الأشياء وينقضي بانقضائها، وهو بقياس الأبدية كنقطة سقطت من عباب الجو في البحر، فتختلف الأزمنة على اختلاف العوالم، وخارج هذه غير محدودة، ففضاء لا حد له وأبدية لا قرار لها هما الخاصيتان العظيمتان للطبيعة العامة، وإذا كان الزمان يمثل تعاقب الأشياء الزائلة ومقياسها فإننا إذا جمعنا ألوفا في ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة في الأبدية، كما أن الألوف في الألوف من الفراسخ تعد نقطة حقيرة في الفضاء. وإذا مضى على حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدر ما كتب على طول خط الإستواء فإنه ينقضي هذا العدد الجسيم، والنفس كأنها ولدت اليوم، وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى للأعداد، ممتدة من الأرض إلى الشمس وأكثر فإنه ينقضي هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون والنفس لا تتقدم - في الزمن - يوما واحدا إلى الأبدية، ذلك لأن الأبدية لا حد لها ولا قياس، ولا يعرف لها بداية ولا نهاية، فإذا كانت القرون كلها لا تعد ثانية بقياس الأبدية فما أهمية عمر الإنسان على الأرض؟».

-XVII-

المجتمع الروحي والجو العائلي

المجتمع الروحي على شكل أمم تتشابه إلى حد ما في وجوهها، حيث تتميز كل أمة أو كل أسرة عن الأخرى حسب ما يطفح به الوجه من عواطف داخلية، إذ ليس للإنسان في الحياة الروحية أن يحمل وجها مغاير العواطفه كما قد يحدث هنا في الدنيا، وهكذا فإن الوجوه تختلف هناك حسب نوع مشاعر الخير والجمال التي تراه غذاء لها، والقارة الروحية يجمعها قانون التوافق في السلوك والأخلاق والميول والإتجاه، فلا أثر للون والنزعة والنزوة، ورغم تعدد الشعوب والأجناس فإن الصلات بين الأحباب في أحسن حال على المستوى الواحد وعلى المستويات الراقية المتقاربة، كما أن السياحة طليقة بين المستوى الإهتزازي، إن الأرواح التي في مناطق عالية بإمكانها النزول إلى المناطق التي هي أدنى من أجل الدرس والخدمة والزيارة، بينما الأرواح التي هي في مناطق أدنى لا يمكنها الصعود إلى تلك المناطق العليا، لأن قانون الترنم والإهتزاز يمنعها من ذلك، والحرب لا تعرف معناها هناك إلا بين الخير والشر، فإن الصراع قائم على أشده والحرب معلنة على الدوام بين التخلف والتقدم وبين الجمود والتطور، وذلك بأساليب عقلية روحية ممتازة تنتهي دوما بانتصار الخير على الشر مهما طال الصراع.

لقد ينفصل الشر عن الخير من أول يوم يموت فيه الإنسان، فتتجه روحه إلى مكان يحد حسب قيمته الأدبية، ثم يبدأ في الترقي تدريجيا إلى أن يدرك ناموس الحياة بغريزته ويخضع له. وعن الحكام هناك فإنهم أكثر الناس اتصافا بالمحبة والحكمة إذ يريدون الخير للناس حسب محبتهم ويعرفون كيف يؤدون ذلك بحكمة، فهم لا يسودون ولا يأمرون، ولكنهم يديرون ويخدمون، وبهذا لا يصنعون لأنفسهم العظمة بل التواضع، وهذا عكس ما في الجحيم، فالكل ينتمي إلى حب الذات، والكل يريد فرض إرادته ويسود، فتمتلأ نفوسهم حقدا، فيكون مقابل ذلك الإنتقام والوحشية، ومن ذلك يكون مصدر الشر والخوف يكفل الطاعة.

اما المناطق الراقية فإن علانية الصفاء هو أسلوب الحياة لديهم فلا خديعة ولا رياء لأن قراءة الفكر هي وسيلة التخاطب، وبذلك يكون من السهل قراءة نوايا المنافقين الذين يكشف النقاب عنهم بسهولة فيكون هذا طرفا من تعذيبهم، وفي نفس الوقت فإن ذلك يمثل ثواب المخلصين، وهذا قانون طبيعي لا مناص منه، وهذا ما يمكن أن نعبر عنه بعلانية التصرفات والشعور والضمير، هذه العلانية التي هي قانون الحياة هناك، ولنأخذ بهذا الصدد قول روح «جوليا» في إحدى رسائلها لوسيطها «سير وليام ت ـ ستيد» «إننا لا يمكننا أن نلبس أقنعة هنا كما نخفي بها أفكارنا ونوايانا التي في الصدور، فهذه كلها مكشوفة لكل من كانوا في نفس المستوى من المحبة، وهذا أمر مقرر للتقدم، فابتداء يوجد إحساس بالعري بسبب فقد كل الماديات، وثانيا إحساس بالعري بسبب فقد كل قناع وكل رداء يخفي الأخلاق الحقيقية.

نعم هذا الجانب من الحياة يشبه جنة عدن قبل السقوط في الخطيئة حتى بالنسبة لأولئك الموجودين في الظلمة الخارجية، ولكنهم لأنهم ليسوا في النور فإنهم لا يشاهدون عريهم واضحا تماما، فنحن بالعري نشبه آدم وحواء عندما أصابهما الخجل لما أدركا الحالة التي كانا عليها.

وإذا كانت محبة الله لا تسترنا برداء ـ يبدو كرداء العروس في يوم زفافها ـ لكان علينا أن نتمنى أن نطير بعيدا متوسلين إلى الصخور أن تسقط علينا كما تحجبنا عن عين الله وأعين رفقائنا، لأننا كنا ـ كما تعلم ـ لنا مثلنا العليا التي كان ينبغي أن نصل إليها ؛ وعندما نستبين مدى المفارقة بين الحقيقة وبين الرؤية التي أعطاها الله لنا كما نرى ذواتنا الحقيقية فإننا نقف مدانين أدلاء إزاءها، ولكن المدلة هي بوابة المحبة». وفي هذا الشأن أيضا نأخذ رأي الروح المرشد «سيلڤر بيرش» لدائرة «هانن سوافر» قائلا «لا يوجد كذب في عالمي، لأنه لا يمكنك أن تخدع القانون، فالقانون كالمرآة يعكس الواقع، إنه يهتك كل حجة وخديعة ويتركك عاريا ممزقا لكل واحد كما يراك، الأنانيون فقط هم الذين يخشونه. . »

إن التوافق والإنسجام هما الرابطة الحقيقية التي تجمع الأرواح، وعكس ذلك هو الذي يباعد بينهم، هذا ما تؤكده روح «أفرار» المرشد للوسيط «روبرت جيمس لنر» في قولها : «هناك مرحلة أسمى من غيرها وجديرة بالإعتبار، تلك هي العلاقة الروحية بين روح وأخرى فإنها أسمى بكثير من أية علاقة يمكن أن يصل إليها اللحم والدم، فنحن لا نظل بعد في منطقة القيود متى وصلنا إلى الأبدية، ففيها يكون الله هو الأب للجميع، وكل الأمم البشرية أبناء وبنات متساوين أمام الواحد، وهكذا تكون كل الأرض والسماء أسرة واحدة، وليست هناك أبوة على

الأرض تداني هذه الأبوة السماوية، إذ ليس للأبوة الزائلة أن تضاهي القوانين الأزلية، ولا للسلطة المتنازع عليها أن تقارن بولاء الروح للروح الإلهية والتفاني في خدمتها».

نعم، هي أسرة واحدة في السماء تجمع بين جميع البشر، لا فرق بين اللون واللغة والشعب، إنه الكل في مرتبة واحدة تسودهم الأخوة تحت لواء الرحمن الرحيم، أما روابط الدم والفوارق الإجتماعية في كوكبنا الأرضي فتنتهي عند منطقة حدود القبر، وتبقى العلاقة الروحية الصرفة التي يباركها الله ويزكيها.

إنه بقدر ما تنطلي الخديعة على صاحبها كما أسلفنا، فإن الإنسان أيضا لا يمكنه أن يخدع نفسه، فهو غير ملزم بمعاشرة من يكره أو من لا يحب، لأن الإنسان هناك يدرك قيمته الخاصة به على حقيقتها، وبهذا لا يخدع نفسه كما كان يفعل أحيانا على الأرض، أو يضفي على نفسه فضائل زائفة قد يكون على نقيضها، كما لا يمكن أن يفرض على الغير ما أراد، وبهذا فإن الروح العنيدة التي تظل على حالها من الغرور والخديعة لا مكان لها في المناطق العليا من عالم الروح، فالمتواضع أقرب إلى سبل الإرتقاء من العنيد الغرور الذي يظل في تعاسة قد تصل إلى قرون، وعلاقة السعادة له حينما تتفتح خيوط عيوبه، فعند ذلك يبدأ في الإرتقاء التدريجي، وهذا يطابق قول «سقراط حينما نادى بأن سبل السعادة تكمن في معرفة النفس.

وعلماء الروح يؤكدون بأن الجنة والنار بمثابة حالتين يعدهما الإنسان لنفسه في عالم الروح بسبب سلوكه في العالم الأرضي، وذلك بالإرتقاء إلى الطبقات العليا أو الإنحطاط إلى الدرجات السفلى، حيث يلتقي بمن هم على شاكلته طبقا لقانون التوافق، فيعاني الويلات نتيجة الحسد والغضب والأنانية والكبرياء وغير ذلك من الإيذاء والموبقات، ويعيش في ذلك زمانا، حتى إذا ما دخل مرحلة الندم تفتحت أمامه طريق الطهر تدريجيا من علله الخلقية والنفسية.

إن العلانية والتوافق والمحبة شعار القانون الأساسي للحياة الإجتماعية هناك، كل هذا ينبع من إشراق الروح الذي هو المصدر، فالحب الطاهر هو كل شيء في المناطق العليا وهو نوع الصرف والعلاقة والتعامل، فلنأخذ قول «جوليا» أيضا كدليل على ذلك إذ تقول «هنا يوجد السلام والحياة والجمال، وفوق كل شيء توجد المحبة، الجمال في كل مكان والمرح والمحبة. المحبة !. . . المحبة هي السماء، فالله محبة، وعندما تفقد نفسك في المحبة تجد نفسك في الله. . . إننا نرى الإثم والألم في عالمكم ونحاول أن نزيحهما جانبا، ولكنهما لا يضايقاننا كما كانا يفعلان من قبل لأننا نرى الجانب الآخر، فلا يمكننا أن نشك في محبة الله لأننا نحيا فيها، فهي أعظم شيء، بل الشيء الحقيقي الوحيد في الوجود.

وما الآثام في الحياة الأرضية سوى ظلال زائلة حتما، لكنها ليست خاصة بعالمكم، ففي هذا الجانب أيضا توجد آثام وتوجد آلام، والجحيم يوجد على هذا الجانب كما يوجد النعيم، ولكن سعادة أهل النعيم هي في إخلاء الجحيم من سكانه، فنحن نتعلم دائما كيف ننقذ الآخرين بالمحبة ونخلصهم بالتضحية، فبغير التضحية لا يوجد خلاص. . . ».

وعن العبادة هناك، فإن التسامح الديني في المناطق الراقية يكتسي صبغة التسامح، فعبادته سبحانه وتعالى تجري على كل أسلوب وغط، وكلما ازدادت الأرواح نضجا ورقيا كلما خفت الفروق بينها إلى أن تزول في المناطق العالية حتى تبقى النفوس الطيبة من جميع الأجناس والأديان يسودها الحب والفهم والتقوى.

ولننتقل إلى موضوع آخر قد يكون حلقة مع موضوع المجتمع الروحي، ألا وهو الجو العائلي، فقد تناول هذا الموضوع أيضا أعلام من الروحية وتصدوا إليه بقدر كاف من الصراحة والوضوح، والإتفاق الحاصل أنه كلما كان التآلف موجودا ومرغوبا فيه كلما أمكن التئام الشمل بين الأسرة من جديد، وكلما رغب اثنان في العيش تحت سقف واحد كلما كان لهما ذلك، وبهذا تكون الصلة العائلية أو المعيشة المشتركة ممكنة وعلى صورة أرقى، لأن مستوى الوجود هناك أرق وأرقى برقي المشاعر والإنفعالات، وبرقي العقل والملكات، خاصة في المستوى الثالث من ذلك العالم.

والآن نأخذ فقرات من أقوال «سويد نبرج» الفيلسوف السويدي والوسيط الشهير في شأن الصلات العائلية هناك حيث يقول : «. . . لأن سكان السماء من النوع الإنساني، وهم من الجنسين معا، ولأن المرأة للرجل منذ بدء الخليقة كما أن الرجل للمرأة، ولأن هذا الحب فطري فيهما، من هذا يتضح أن الزواج موجود هناك كما هو موجود على الأرض، لكنه يختلف كثيرا هناك عنه هنا، فإن الزواج في السماء عبارة عن اتحاد جزئين في عقل واحد يسمى أحدهما الذكاء والآخر الإرادة، فالزوج يقوم بوظيفة العقل حين تقوم الزوجة بوظيفة الإرادة، فإذا ما حدث هذا الإتحاد بين العقل والإرادة شعر به كل منهما حبا هو الحب الزوجي، والذي يسمونه هناك المعيشة المشتركة، والتي يقال في وصفها إنه لا يعتبران هناك إثنين، بل شخصا واحدا، وهذا الإتحاد لازم بحسب الطبع والميل الفطري في كل منهما، بل أيضا بحسب الشكل الخارجي. فبحسب الطبع تجد أن الرجل أكثر خشونة وأقل جمالا وعنده القول أكثر خطورة والجسد أقوى بنيانا، في حين أن المرأة تملك وجها أكثر رقة وجمالا، وعندها اللفظ أكثر نعومة والجسد أكثر مرونة. ويوجد فارق مماثل بين الذكاء من جانب والإدارة من جانب آخر وبين

الفكرة والعاطفة ؛ كما يوجد فارق مماثل بين الحق والخير وبين الإيمان والمحبة، لأن الحق والإيمان ينتميان إلى الذكاء حين ينتمي الخير والحب إلى الإرادة. وإذا كان الذكاء والإرادة متوافرين عند الرجل والمرأة معا. إلا أنه عند الرجل يسود الذكاء وعند المرأة تسود الإرادة، فالكائن الإنساني ينتمي إلى أحد النوعين بحسب ما يسود لديه من أحدهما. أما في السموات فلا توجد سيادة لأحد الطرفين على الآخر، لأن إرادة الزوجة من إرادة زوجها، كما أن عقل الزوج من عقل زوجته لأن أحدهما يحب أن يريد وأن يفكر كالآخر، ومن هنا جاء اتحادهما في واحد. . . فإذا كان بينهما اتحاد في العقل وهو الذي يصنع الزواج ويولد الحب الزوجي في السموات، فإن كلا من الزوجين يرغب في أن يعطي زوجه ما يملكه من عقل أو من إرادة. . .

وبقدر ما يوجد اتحاد في العقل وفي الإرادة فإنه يوجد أيضا اتحاد في الحق وفي الخير، لأن العقل يتلقى من الخالق الحق المقدس كما تتلقى الإرادة الخير المقدس، فإذا أراد الإنسان أمرا كانت الإرادة له خيرا، وإذا تعقل أمرا كان التعقل له حقا. ومن هنا يحق القول بأن اتحاد العقل مع الإرادة هو في نفس الوقت اتحاد للحق مع الخير، وهذا الإتحاد هو الذي يصنع من الإنسان ملاكا، كما يصنع الذكاء والحكمة ونعيم الملاك، لأن الملاك ملاك بقدر ما يغذيه من خير متحد مع الحق ومن حق متحد مع الخير، أو هو ملاك بقدر ما يغذيه من حب متحد بالإيمان، ومن إيمان متحد بالحب. وعندما يريد الإنسان ما يريده الآخر ويحبه كان كل منهما حرا، لأن الحرية تنتمي إلى الحب، فلا توجد حرية لأي منهما عندما توجد سيادة، فالمسود يصبح عبدا لسيده كما أن السيد يصبح أيضا عبدا لشهوة السيادة، ولكن ذلك لن يفهمه أبدا من لا يفهم كيف تكون حرية الحب السماوي، فإذا ما تدخلت السيادة حدث الإنقسام، لأن السيادة تنفي الإرادة وتتعارض معها، ومن لا يملك الإرادة لا يملك الحب، وإذا ما تعارضت السيادة مع الإرادة حلت الكراهية محل المحبة» ويقول أيضا «والأرواح عندما تسمع كلمة «زنا» تفر هاربة. فالإنسان عندما يرتكب الزنا للمتعة تغلق في وجهه أبواب السماء. وإذا أغلقت أبواب السماء أغلق في وجهه الإتصال بالله والإيمان به. ومن تم كان الميل للزنا ميلا لتحطيم اتحاد الخير بالحق الذي تصنعه السماء، وكان هذا الميل هو الميل الجهنمي الذي يقع على النقيض من نعيم الزواج الذي هو نعيم السماء، ومن تم يقرر أن إنتهاك حرمة رابطة الزوجية يغضب القوانين الإلهية، كما يعد انتهاكا للقوانين المدنية في جميع الممالك، فهو مضاد للضوء الحقيقي المنبعث من العقل لأنه ليس فقط ضد النظام الذي وضعه الله بل هو أيضا ضد النظام الذي وضعه الإنسان، كما يقرر بأنه لما كانت كل حرية إنما تجيء من ناحية الحب فإن أعظم الحريات قاطبة

تجيء من ناحية الحب الزوجي الذي هو الحب السماوي نفسه». وفي هذا الصدد نعود أيضا إلى قول الروح «جوليا» «إنهم هنا لا يزوجون ولا يتزوجون، ولكننا كملائكة في السماء في مقدورنا أن نختلط وأن نتحد بأي كائن تتوافق اهتزازاتنا مع اهتزازاته بقدر ما يطول هذا التوافق. إن نشوة هذا الإتحاد تتجاوز نشوة الحب الجسدي على الأرض، لأن نطاق الجسد الإنساني يتجاوز ذلك الجزء منه المعد للإنجاب. فلا توجد قيود هنا على حب الحرية، وإذا كان أي شخص يصل إلى هنا يجد أنه غير قادر على الترنم في انسجام إلا مع من كان زوجا له على الأرض فيمكنهما أن يكرس كل واحد منهما نفسه للآخر كما كان يفعل كلاهما على الأرض، ولكننا لا ننظر إلى هذه الأنانية من الإثنين بوصفها تمثل أعلى مراحل التطور. نعم إن الجنس يستمر هنا، ولكن الجنس شيء أعمق من الأعضاء التي يعبر بها عن نفسه موقتا على الأرض». وهكذا نستخلص بأن الحب الجنسي موجود هناك على المستوى الثالث بطريقة أسمى، وأن العاشقين على المستوى الأرضي حينما يغادران الأرض من الممكن أن يبقى الإرتباط وثيقا على المستوى الثالث هناك، الذي يقرب مستواهما الإهتزازي، أما الطقوس لا أثر لها هناك، ولقد قلنا أن الأصل في هذا الزواج هو التفاهم والتعاطف الإهتزازي المتبادل وذلك على المستوى العقلي والروحي، على اعتبار أن هذا الإختلاط هو أسمى وأرفع بكثير عما نعرفه على مستوى الأرض.

وقد يتساءل سائل عما يكون بعد الشجار الدنيوي بين الزوجين ؟ إن الشجار والتصادم بين الزوجين ما هما إلا من ضرب الشخصية القوية، ومثل هذه المشاحنات ليس شرا بذاتها، وإن كانت تحول دون إحساس الطرفين بهذه السعادة التي قد تمنع بدورها كل تقدم مستقبل في العقل والروح، إن الخلاف الزوجي حينما يكون جديا يعزى إلى خلاف في مدى التطور عند الطرفين، لأن الزواج على الأرض غالبا ما يعزى إلى إحساس بتجاذب جسدي، حتى إذا ما تم إشباع الجسد فقدت الرابطة الزوجية تجاذبها العقلي والروحي، أما إذا بقي التجاذب العقلي والروحي فهذا هو السر في بقاء التجاذب الروحي أيضا هناك، فالحب لا يموت بالموت، وإنما يحصل على حياة جديدة لأنه لا يقبل الموت، بل وراء كل حياة توجد أخيلة للحب، فعلينا أن نحذر الطلاق مهما بدا من التعاطف العقلي والروحي ولو قدرا ضئيلا، وقد يبدو في المستويات العليا هناك أن تحدث بين العاشقين أنه لم تبق مزايا روحية من العروة الوثقى التي كانت تجمعهم، فإنهم يتفقون على إنهاء هذه الصلة ومع ذلك فإنهم يظلون رفاقا بغير تبادل لوم أو تقريع، بل تبادل عرفان الجميل للنعيم ولفهم الحياة، وللحب الذي كان لكل منهما فضل منحه للآخر.

وهذا حديث ألقاه أحد المفكرين من العالم الآخر في إحدى الجلسات الروحية للعلامة «دزموند» حيث يقول : «لماذا لا تعلمون أنكم تحيون ؟ إنكم لا تعرفون حتى كيف تصلون إلي اهتزازات العوالم الثلاثة التي تحيون فيها في وقت واحد، إنكم تعلمون إمكانيات الأمواج الضوئية واللاسلكية، ولكن ماذا تعرفون عن الأمواج الأثيرية ذات التردد العالي؟ إنكم تعرفون الأشعة دون الحمراء وفوق البنفسجية، ولكن ماذا تعرفون عن إشعاعات الإهتزاز المتداخل بعضها في البعض الآخر ؟ إنه من الممكن لمحطة الجسد اللاسلكية أن تضبط نفسها مع أطوال الموجات ذات التردد العالي المنبعثة من اهتزازت العالم الكوكبي والتي تتخلل هذا العالم كما يرتفع بنفسه في العالم الروحي الأسمى، وبالتالي يلمس الإهتزازات الكاملة المنبعثة من مركز النواة الموجودة داخل الثمرة، والتي لا تجيء من الخارج. عندما تقترب من إنسان تقول أحيانا، إني لا أحب هذا الشخص ولا أعلم لماذا برغم أنه يبدو وعلى ما يرام، ولكني شعرت بعدم الميل إليه» وهنا يشرح العلامة «دزموند» هذا القول برأيه فيقول : «فبحسب الظاهر لا يوجد أي سبب منطقي لعدم الميل هذا، ولكن يوجد سبب مخبوء. كذلك الشأن عندما يكون الإهتزاز المنبعث من رجل ما أو من امرأة أعلى في طول موجته أو أدنى من الإهتزاز الصادر من الشخص الآخر، فيحصل تصادم بين طول الموجتين المنبعثتين عن الهالتين، وبالتالي عدم انسجام بين اهتزازاتهما. . . ونفس القانون يحكم الميل المباغت للآخرين، عندما تكون الإهتزازات على نفس طول الموجة، أي على نفس مستوى السرعة، وعندما يجد الشبيه شبيهه يشعر بالتعاطف نحوه سواء أكان رجلا أم امرأة، وفي الحالات المتطرفة يحدث الوقوع في الحب. فالعاطفة ليست سوى ضبط للإهتزازات، وعندما تكون الإهتزازات ذات تردد عال تصبح العاطفة أشد اشتعالا، وبالتالي فإن قانون الحب يمكن أن يعرف بوصفه قانون التجاذب بين جسمين لهما نفس مستوى التردد أو سرعة الإهتزاز التي تنصهر أو تتلاشى خلال حرارة طول الموجة الأخرى وسرعتها، وخصوصا تماثلها ؛ فيجد كل منهما في الآخر متعته الوحيدة ورضاءه».

وعن الفكر والجمال والموت، فإن الأجساد المادية أو الأثيرية ما هي إلا اهتزازات تتغير، فعند تحرر الجسد الأثيري من الجسد الأرضي معنى ذلك تغيير الإهتزاز لدرجة أن الجسد الأرضي لا يمكن احتواؤه، فيسافر هذا الجسد الأثيري بسرعة الضوء إلى مسكنه الأثيري الذي يجري عليه القانون الطبيعي القائل بأن الشبيه ينجذب إلى شبيهه. والجسد الأثيري انعكاس للعقل والروح، فالأفكار الجميلة تصنع جوها الجميل، إن كل فكرة تمر في العقل تغير تعبيرات الجسد، فمثلا أصحاب العقول الفظة سيحصلون مع الأيام على وجوه فظة وأيضا على أجسام فظة، والأرواح

لهم القدرة على أن يتشكلون في العمر الذي يريدونه وأن يرتدوا ملابسهم الأثيرية التي يرغبون فيها، بل إن أرادوا الزيادة في القامة فلهم ذلك، وفي المعتاد أن أغلبية الأرواح قد يظهروا في مقتبل العمر بين الثلاثين، وما العمر في حياة الإنسان إلا خرافة، غير أنه بمقدور الراحل هناك أن يحمل معه مظهر العمر حينما يتقدم في الإرتقاء من مستوى إلى مستوى أعلى مثل ما يفعل الموت الفيزيقي عندما نتحرر إلى المستوى الكوكبي، بحكم أن الموت من خصائص الحياة والحب هناك، فيقابل صاحبه بالفرح والمرح كأسعد تحرر إلى حالات أسمى من الوعي. والحجب بين العوالم الكوكبية الدنيا والعليا مرفوعة أو بالأقل شفافة، فالإتصالات موجودة بين المستويات الكوكبية، لكن توجد هناك فترات تكون فيها الكائنات الأعلى اهتزازا في راحة وتأمل حتى عن أحبائها ممن هم في المستوى الأقل اهتزازا.

إن الموت ما هو إلا نوم ونسيان، نوم موقت حتى يتأقلم الجسد الأثيري الذي تحرر حديثا من الأرض، وهو ميلاد سماوي جديد كذلك هو نسيان، أي أن الروح المتقدمة تواجه عن طريق ذهولها مشاعر جديدة، ومن اليقين أن ما قابلته الروح على الأرض من صور الفشل والخيبة ستصبح في انطلاقة الزمن ترى ذلك من ضرب التفاهات.

هذه جوانب هامة تطرقنا إلى كشفها، توصل إليها علم الروح الحديث من بحوثه المضنية مع بعض تحفظاتنا لبعض ما قالته بعض الأرواح والذي لم نتطرق إليه، وقد ركزنا المجتمع الروحي والجو العائلي أغلبيته على مستوى العالم الثالث من العوالم الروحية، أو كما يسمونه «بالسهرلاند» واخترنا هذا المستوى الكوكبي على اعتبار أن الأغلبية العظمى من الأرواح الأرضية الجديدة العديدة تلتحق مباشرة به، وهذا المستوى راق منه تنطلق الروح السعيدة إلى مستويات هي أرقى وأرق شفافية منه، تتنوع فيها أساليب الحياة، كما أن هناك مستويات كوكبية غير راقية ولا سعيدة يصطلحون عليها «بالظلمة الخارجية» أو «وادي ظل الموت» وفيها يقاسي الإنسان مظاهر الفاقة الروحية والعزلة والألم وكشف عيوبه والعيش مع الجهلة والأشرار التي تعكس له رذائله وأنانيته، وهذه العشرة تكون بمثابة المرآة التي تعكس أخلاق الإنسان فيقاسي من ذلك بقدر ما كان يفرضه على الآخرين، فقانون التوافق يمثل حكمة علام الغيوب إلى أن تدركه رحمته التي وسعت كل شيء والتي لن تتخلى عنه في النهاية.

الباب الثالث

الروح في الميزان

-XVIII-

روح هارون الرشيد تتكلم

أردت أن أروي هذه القصة، لأنها كذبت حدثا تاريخيا من تاريخ المسلمين، وغيرت مجراه من تلفيقات خيالية إلى حقيقة ناصعة، بعدما كان القصد منها سياسيا على حساب مسألة أخلاقية ملفقة، يمكن أن نقول أنها لعبت دورا في وقتها كباقي المناورات السياسية. ثم انكشفت اللعبة بعد حين.

وسأنقل القصة برمتها من كتاب «الأرواح» للعلامة المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري طبعة ثانية سنة 1931م صفحة 318 حيث كتب تحت عنوان «هارون الرشيد يخاطبني» فيقول : «أما الأمر الثاني الذي أدهشني، فذلك أننا كنا ليلة جالسين عند ذلك السري في نحو سنة 1922م، ونحن في جلسة من تلك الجلسات، إذ حضر زوج ابنته ذلك الشاب الأديب، وهو يحسن الفرنسية، وكان يخاطب بها «جان دارك» المشهورة، ونحن الحاضرون معه لا يروقنا، فقالت «جان دارك» بواسطة الكتابة كما هو معلوم» أتحبون أن أحضر لكم روحا عالية مسلمة، فقلنا جميعا نعم، وكان معنا حسن أفندي حسين كما قلت سابقا، فلم يمض إلا ثوان حتى رأينا المرحوم زوج ابنته قد تحرك القلم في يده، وألفينا كتابة هي نفسها الكتابة الكوفية بخط جميل جدا يشبه ما نراه مكتوبا في المصاحف الأثرية وما هو مكتوب على بعض المساجد الإسلامية، ولكننا ما كنا نقدر على قراءتها، وغاية الأمر أن ذلك الشاب كان يميزها أسهل منا بسبب تحريك يده بها، وأول ما كتب هذه الجملة.

يا أستاذ طنطاوي :

ولما رأيت السيف جلل جعفرا ... ونادى مناد للخليفة يا يحيى
أسفت على الدنيا أعاتب أهلها ... عليها، وقلت الآن لا تنفع الدنيا

فقال : عوفيت يا أستاذ طنطاوي، أنت عقلك كبير، ولكنك حسن النية، إستمر في تأليفك، ولكن أنا أريد منك أمرا، فهل أنت فاعله، قلت نعم، فقال : بحق الله، بحق النبي،

بحق القرآن إلا فعلته، فكاد يغشى علي، والحاضرون دهشوا لهذه المفاجأة، ولماذا اختار فلانا.

فأكدت له أني أفعل ذلك، فقال والله إن جعفرا مازنى بأختي العباسة ولا زوجته لها، ولكنه رجل خانني فقتلته.

فهل تعاهدني أن تسهر الليل وتجد بالنهار وتقرأ في الكتب وتبحث فيها حتى تؤلف كتابا به تطفيء النار المتأججة في الشرق والغرب وتدفع الأكاذيب التي نشرها «جورجي زيدان».

فعاهدته على ذلك، فقال له صاحب المنزل وهو يضحك، ما تقول في والد الشيخ طنطاوي، فقال : أنا أعرفه وهو سعيد، ثم قال : هل تحب يا أستاذ طنطاوي أن أذكر لك اسم والدتك، لأنك كنت تمتحن الأرواح فيها، وذكر الحرف الأول من اسمها فقلت له كفى.

فقال له صاحب المنزل، وكان يحب الضحك كثيرا، لزوج ابنته وهو الوسيط «لا تضع قلما على الورقة لئلا يقلع عين الخليفة، فقال له : يا سيدي، أنا الآن روح من أرواح الله، ولست خليفة، فقال ذلك السري، ما هذا، وهل الله له أرواح ؟ فقال الرشيد، يا حبيبي، تعلم اللغة العربية ثم كلمني، وبعد ذلك أخذ الرشيد يلاطف صاحب المنزل، فقال له، أنا لا أواخذك بقولك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمزح ولا يقول إلا صدقا، إن أباك كان محبوبا للنبي، وهو الآن في درجة عالية، وأمك صفتها كذا فقال : وما تقول في أخي أحمد ؟ فقال : أما هذا فلا تسألني عنه، فقال صاحب المنزل، حقيقة أخي كان يرتكب الآثام.

ثم عطف ثانيا وقال، يا أستاذ طنطاوي تذكر وصيتي، فقلت، سأعمل بها، فكن مطمئنا، وانتهى الحديث.

وبعد ذلك بأيام، حضر لصاحب المنزل وقال، قل للأستاذ طنطاوي لماذا لم يعمل بجد فيما أوصيته به.

وبعد مدة قال، قل للأستاذ طنطاوي، أنا شاكر له على عمله.

وبيانه أني بعد أن قمت من ذلك المجلس بحثت فوجدت في المكاتب كتابا اسمه «العباسة أخت هارون الرشيد»، وما كنت اطلعت عليه قبل ذلك، فشتريته ودرسته، وبحثت في كتب التاريخ فوجدت الرواية خيالية، والعلم يكذبها، فألفت فعلا كتابا هو الآن عندي اسمه «براءة العباسة أخت هارون الرشيد»، ووضع لهذا الكتاب حسن أفندي حسين وهو كاتب مشهور بمصر، مقدمة ذكر هذه الحال كلها، والكتاب الآن تحت الطبع».

انتهى قول المرحوم الشيخ طنطاوي، أما الكتاب فقد طبع بالفعل.

-XIX-

الأرواح على شاشة التلفزة

في سنة 1967م كانت الملايين من سكان «كندا» و «أمريكا» المجاورة لها تشاهد على شاشة تلفزيون «تورونتو» إذاعة مخصصة لوسيط روحي شهير، وأثناء العرض دخل أحد الطلبة المتوفين في جدل مع أحد «الإكليريكيين» وهو الأسقف «جيمس بيك» رئيس كنيسة «كاليفورنيا» وكان قد سبق هذا الجدل حادث مفجع وقع منذ سنة ونصف تقريبا. فما هو هذا الحادث ؟

كان الأسقف في «كامبردج» يلقي بعض محاضراته، إذ تلقى سنة 1966م نبأ انتحار ابنه «جيم» بنيويورك حينما كان يتلقى دروسه، فلم يدر الوالد ظرف الإنتحار ولا سببه، بعد إجراء عملية الجنازة لاحظ أن بعض الأمور غير عادية تقع في بيته مثل انتقال كتب أو صور أو دبابيس من مكانها إلى مكان آخر، والغريب أن الدبابيس كانت توضع على شكل عقربي كلما حلت الساعة الثامنة وعشرين دقيقة، وهو الوقت الذي حصل فيه الإنتحار.

أصيب الأسقف بحالات اضطراب وانهيار عصبي ونفساني خاصة وأن ظروف الإنتحار لم تنكشف بعد، فنصحه أحد أصدقائه مراجعة وسيط روحي، فقصد الوسيطة «أينا تويج» التي لم تكن تعرف شيئا عن ابنه، وأثناء الجلسة تمكنت منه، فأكدت للأسقف أن ابنه نادم على ما قام به من انتحار حينما أضاع صوابه بسبب تعاطيه المخدرات، وأنه يمكن أن يتصل به بعد مضي خمسة أشهر.

وفي الموعد المحدد جاءه أحد أصدقائه وأخبره أن ابنه اتصل بالسيد «جورج ديسله» من أتباع الروحية طالبا الإتصال بوالده، وحتى يثبت له صحة قوله، أخبره بأن الولد حدثني عن الكتاب الذي أضعته وكنت تفتش عليه فوجدته في غرفته، وهذا أمر بالطبع لم يكن يطلع عليه أحد سوى الأسقف.

بعـد ذلـك بسنة ـ أي سنة 1967م ـ قـررت إدارة تلفـيـزيـون «كندا» أن تـذيع من مـحطة «تورونتو» برنامجا روحيا استدعت لحضوره الوسيط الأمريكي الشهير «أرثير فورد» والأسقف «بيك» الإكليريكي المعتدل، الذي فقد ابنه.

قبل بداية الحفل طلب الأسقف من الوسيط تخصيص حفلة شخصية أمام آلات التصوير ولم يمض وقت قصير حتى وقع الوسيط في غيبوبة، فجلس بجانبه الأسقف ومدير الإذاعة، فتركزت أنظار المشاهدين على ما يجري.

أعلن الوسيط وهو في غيبوبته عن روح مرشده السيد «فليتشر الكندي» الذي توفي خلال الحرب العالمية الأولى، والذي يتابع تحركاته الروحية منذ سنة 1924م، إنه الآن متصل بابن الأسقف، فطلب الأسقف إعطاء إيضاحات على الولد المتوفى، وأسباب الإنتحار، فبدأ «الروح ـ فليتشر» نقل ما أوضحه «جيم» قائلا : «كنت أحب أن أقول لك أشياء كثيرة يا أبي. . . إن ما حدث كان بسبب خطأ ارتكبه السيد «هلفر ستون» «وكان الوسيط فورد» ينقل الكلام الذي يصل من مراقبه «فليتشر»».

وتوقف «فليتشر» عن نقل كلام الإبن، يسأل الأسقف هل يعرف الشخص المسمى «هلفر ستون» فتأمل الأسقف قليلا فاستدرك قائلا : «وجدته». إنه توفي بعد وفاة ابني، كنت أعرفه، لكني كنت أظن أن ولدي لا يعرفه. ثم تابع «فليتشر» نقل كلام الإبن عن طريق الوسيط، حيث قال : «أثناء دروسي في «كاليفورنيا» غرَّ بي «هلفر ستون» تعاطيت المخدرات، ورغبة مني في التخلص من هذا الداء صممت على متابعة دروسي في «نيويورك» ولكن هناك وقعت على مجموعة من الطلاب تتعاطى المخدرات، وبعد إحدى الحفلات الصاخبة شعرت باليأس فانتحرت».

ولم يكد البرنامج التليفزيوني ينتهي حتى بادر بعض المشاهدين الذين لهم علم بفصول القصة إلى الإتصال هاتفيا لتأييد صحة الواقعة.

-XX-

وازن الأرواح

تجربة علمية غريبة، وطريقتها من الغرابة أشد، ألخصها من كتاب بكامله في صفحات قليلة، أما الكتاب فعنوانه «وازن الأرواح» ومؤلفه أشهر أديب فرنسي «أندريه موروا» عضو المجمع اللغوي الفرنسي، ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود، فظهر معربا سنة 1971م، أما صاحب البحث والتجربة الغريبة والطريفة في آن واحد، فهو الدكتور «هـ. بـ. جيمس» الذي ظل يعمل إلى آخر حياته في مستشفى القديس «برنابيه» بإنجلترا. بعد ما يحكي الأديب تردده في كتابة القصة، يرى في الأخير أنه من أوجب واجباته الوفاء بالعهد، ونشر الموضوع لوضعه على المحك العلمي لمن يريد ذلك.

ويبدأ قصة الإتصال بالدكتور «جيمس» حيث يقول :

«عرفت الدكتور «جيمس» في أثناء الحرب، وكانت مقابلتنا أول مرة في حقول «الفلندر» التي تعلوها الأوحال، فقد رأيته بين طائفة من الإنجليز، امتلات نفوسهم فرحا وبانت في وجوههم علائم الصحة، لكن «جيمس» من بينهم قد لفت نظري إليه بخديه البارزين المعروفين ووجهه الذي ظهر فيه آثار موجات الألم، وكان قد جاء حديثا إلى الفرقة التي كنت أقوم فيها بمهمة ضابط الإتصال الفرنسي ليكون طبيبا لها، فما لبثنا أن ارتبطنا بأسباب المودة. وقد احتفظت له، على ما كان يسود الزمان والمكان إذ ذاك من فزع بذكريات تكاد تكون سارة، ذكريات للشهور التي قضيتها معه في نتوء «إيبر» إذ كنا نقيم معا في خيمة واحدة. خيمة ننام فيها على أسرة الجيش، وكان بين سريرينا صندوق «بسكويت» نستعمله مائدة ومكتبة، حتى إذا ما أقبل الليل، وأرقنا صفير القذائف التي تمشي فوق رؤوسنا متجهة صوب «بوبيرنج»، واضطراب جوانب الخيمة المبتلة، كلما خفق الهواء كنا نأخذ في الحديث بصوت خافت نتذاكر أخبار الشعراء والمجانين.

كنت أحب زميلي، فإنه رغم مظهره الذي يدل على عدم المبالاة بشيء، كان يخفي قلبا رقيقا وشعورا حيا، وكان شديد الإنطواء على نفسه، فلا يتحدث عن خصوصياته، حتى أني على طول ما عاشرته وشدة ما خالطته لم أعرف من حديثه أكان له زوجة وأطفال أم لم يكن، وما أن أعلنت الهدنة حتى افترقنا فجأة، كما افترق كثيرون غيرنا، وقد قامت الكتب طول العام التالي للهدنة مقام اللقاء، وعرفت عن هذا الطريق أن «جيمس» يعمل بمستشفى «بلندن»، ثم أهمل أحدنا «ولست أدري الآن أينا» الإجابة على خطاب الآخر، وانقطعت الرسائل، فأصبح «جيمس» ـ بمر الزمن ـ صورة مختلطة بذكرياتي، لكنها لا تعدو أن تكون خيالية كأنها شخصية بطل من أبطال القصص.

وأخيرا لم يعد يخطر لي حتى في الحلم، واستمر ذلك إلى ربيع سنة 1923م، ففي هذا العام اضطرني البحث في المتحف البريطاني إلى الإقامة بلندن مدة طويلة، وقد طال بي العمل، فشعرت بالتعب والوحدة والضيق ؛ وفي ذلك الصباح، وقد أشرقت الشمس زاهية وضاءة لم أجد من نفسي شجاعة على العمل بالمتحف، فنظرت فترة من الزمن إلى الحمام، وقد كان يشبه حمام «سان مارك»، وهو آلف نافر في أروقة المتحف المقامة على النسق اليوناني، واسترسلت في الأحلام، وشعرت بأن الوحدة، وإن كانت لمدة قصيرة بين الفينة والفينة، ضرورية للصحة فإنها تصبح إذا طالت مدتها، ثقيلة على النفس لا يطاق احتمالها» إلى أن يقول الأديب الفرنسي : «أرشدني أحد رجال الشرطة إلى طريق مستشفى القديس «بيرنابيه»، وكان المستشفى على شاطيء النهر، يبدو كالملجأ بين منازل حقيرة ومخازن لا يتخلل حيطانها نوافذ، أما مبنى هذا المستشفى فإنه لا يمتاز عن أغلب مباني لندن في كونه يشبه في نقشه، هذه المباني ذات النقش الرومنتيكي حيث ترى خطوطا بيضاء طويلة توضح سواد الظلال، وقد انتشرت البقع الصغيرة ذات الشكل المزدهر البراق، فكانت تبعث فيه شيئا من الحياة. فمن خضرة العشب، إلى زرقة ثوب تخطر فيه مرضعة، إلى حمرة ثياب ثلاثة أشخاص في دور النقاهة يخطون أولى الخطوات بعد ملازمة طويلة للفراش، وفي أعلى مدخل المستشفى ترى قطعة من القماش قد علقت وكتب عليها.

«إن مستشفى القديس «برنابيه» يستمد حياته من الهدايا والصدقات، وأنه يعوزه الآن ثلاثون ألف جنيه».

فدخلت المستشفى وسألت البواب عن الدكتور «هـ. بـ. جيمس»

– الدكتور «جيمس» ؟. . . ربما تجده في هذه الساعة في دار الأطباء المقيمين بالمستشفى، أعْبر الطريق تحت القوس التذكاري، ثم اتجه شمالا.

ولما سرت حسب إرشاده وجدت بيتا منفردا، بني أيضا بالمستشفى بالحجر الأبيض الذي اسود لونه من أثر الدخان، ولكنه مغطى بالكروم البرية واللبلاب. وفي أسفل السلم لوح كتب عليه أسماء الأطباء، كل اسم منها متبوع بكلمة «موجود» أو «غائب» وعلى رأس القائمة قرأت اسم : الدكتور «جيمس»، الطابق الأول، غرفة نمرة 21 داخلي، فصعدت وما لبثت أن وجدت اسم صديقي مكتوبا على لوحة صغيرة من الخشب معلقة على الباب، ففاجأني إحساس بقلق، وساورني شيء من التردد، أيسر «جيمس» برؤيتي بعد هذا النسيان الطويل ؟ أم سأشعر بعد التحية والإستقبال بالوحدة بين هذا الركام القائم من المداخن والأكواخ ؟ وأخيرا قرعت الباب، ووضعت يدي في حركة لاشعورية على قبضته، فلم تدر إذا كان الباب مغلقا من داخل القاعة، وسمعت صوتا له صرير يشبه ما تثيره الريح من صوت عند مرورها بالحديد الصديء، سمعت ذلك الصوت الذي أعرفه تماما، يقول في نغمة تبدو كأنها خافقة :

- انتظر قليلا من فضلك.

ساد السكون. . . فسمعت خطى تسرع وصوت حلقات تنزلق أثاره فسار بسرعة، وصرخة تشبه صرخة حيوان صغير قد لدغ، أو صدم بدون تعمد، ثم رنين زجاج اصطدم بعضه ببعض، ثم صوت الماء وهو يسيل في الحوض على مهل فيضجر السامع. أمام هذا الباب وقفت أنتظر ! انتظر وقد استولى عليّ إحساس مبهم بعد الرضى، ليت شعري ماذا يصنع «جيمس» ! ثم يصف الكاتب منزل الطبيب المتواضع، ويصف شحوب وجهه ووهن جسمه وحالته النفسية التي تحمل آهات، فيذكره لحياة الليالي أيام الحرب، وكيف كان يحدثه بعمق العالم المقتدر عن تحليل الشخصية وانقسامها إلى غير ذلك، فيرد عليه الدكتور حينا بأنه الآن يعالج المرضى بالسرطان والقلب والرئة.

ويقول «أندريه» : «في هذه الأونة سمعت من وراء الستار صوتا لا ينساه قط كل من سمعه، وهو الصوت الحاد السريع الذي تحدثه الفيران بأظافرها الصلبة عند عدوها، فتخيلت فجأة مخبأ في خندق من خنادق السكك الحديدية كنت أشارك فيه «جيمس»، فقلت له مسرورا :

- فيران ؟ أتظن وجود فيران في مستشفى ؟. . إنك واهم يا صاح. . إني آسف لعدم إمكاننا البقاء هنا، لنذهب إذن، فقد حانت الساعة التي أمر فيها بمرضاي. . أتريد أن ترافقني ؟ ربما شاقك هذا.

ولكني كنت إذ ذاك قد بلغ بي ضيق الصدر الغاية فقلت :

- أواثق أنت من وجودي لا يسبب لك اضطرابا ؟ إن من السهل أن أعود في فترة أخرى، فأجاب في صوت سمح متهكم معا : كلا. . كلا. . إنك لا تسبب لي اضطرابا الآن. . .

ثم توجه مسرعا نحو الحوض واغترف منه غرفة من الماء الممزوج بالصابون، فمسح به بقعة حمراء كانت على حافته».

ووجد «أندريه» نفسه مع «جيمس» يتجول بين أسرة المرضى الذين يراقبهم الطبيب فيلاحظ وجهه تغير من عبوس إلى بشوش لما رأى رجلا يشرف على الموت وهو في حالة احتضار، فيسرع المشي لينزل صحبة الصديق بثلاثة سلاليم نحو مدرج الموتى وتشريح الجثث ليخبر مساعده «جديحوري» وقت التشريح، فيقول :

- نهارك سعيد يا «جريحوري» هذا أحد أصدقائي الفرنسيين يزور المستشفى، لقد حضرت لأخبرك بأنه سيكون عندنا هنا بدون شك، هذه الليلة، المريض رقم 413. .

- فأجابه الرجل القصير «جريحوري» حسن يا دكتور، سأعود هذا المساء، سيكون كل شيء على ما يرام. . آ. الساعة العاشرة تقصد ؟

قال «جيمس» :

- أجل، ومن الخير، إذا أمكنك أن تبكر عن هذا الموعد قليلا، فهمس «جريحوري» قائلا : بهذه المناسبة، أتذكر أنك مدين لي بالإثنين الأخيرين ؟

فنظر «جيمس» حوله قلقا مضطربا نظرته التي أدهشتني إذ رأيتها أول مرة حيث كنا بحجرته، ثم سحب من حافظة نقوده ورقتين أعطاهما لـ «جريحوري»، فأخذهما الرجل، وبينما كانت يداه تطويانها في بطء نظر إليَّ قائلا :

ربما يريد السيد الفرنسي رؤية مدى استعدادنا ونظامنا ؟ ففهمت بجملة غير واضحة، ذلك أن هواء المدرج بدأ يشيع في الشعور بأني مقبل على مرض، وخشيت أن أقع مغشيا عليَّ دون سبب واضح، واستمر الرجل القصير في حديثه، وقد ظهر بمظهر الراضي عن نفسه، وجعل يقول : نحن هنا على استعداد لتلقي الجثث حتى ولو بلغت عدتها الثمانية في كل يوم، وعلى كل حال فاستعدادنا فيه الكفاية دائما إلا في فصل الصيف حيث يكثر موت الأطفال فيضيق بهم المكان. . ومع ذلك فإنني يا سيدي أستطيع بحسن ترتيبي ألا أضيق بهم ذرعا حتى في أشد أوقات الصيف حرا. . أليس كذلك يا دكتور ؟ بل لقد تمكنت من أربع جثث على مائدة واحدة. . أجعل ساقي الواحدة موازيا لرأس الأخرى. . إني أؤكد لك أنه عمل مرهق. . كلا، كلا، لا تخرج من تلك الجهة يا سيدي، إنك لم تر بعد أجمل ما عندنا.

ثم توجه نحو الباب الحديدي المثبت بالحديد اللامع، وكان على هذا الباب بطاقة كتب عليها « الأستاذ «سيمبسون» يريد قلبا سليمة، يحب أن تراعى العناية التامة».

ثم فتح الباب رويدا رويدا، وكان له صرير، فشعرت عند فتحه ببرد قارس مميت، وأحسب أن وجهي حينئذ بدا شاحبا : ذلك لأن «جيمس» أخذ بذراعي وجعل يمد عينيه إلى وجهي، ثم نزلنا بضع درجات فإذا بنا في كهف حيطانه من آجر، وفي وسط هذه الحجرة الباردة توجد آلة من حديد تشبه تنور الخباز، أو مرجلا ضخما، وإذا أردت الدقة، فإنها تشبه القالب الذي تصب فيه الحلوى إذا كبر حجمه أضعافا مضاعفة، فإن قضبانا طويلة من الحديد كانت تخرج من تلك الآلة، فنظر إلى «جريحوري» وغمز بعينه كأنه موشك أن يقدم لي أبدع هدية في العالم، ثم فتح بابين في خفة وسرعة تدهش، وسحب أحد القضبان، فكدت أصيح ؛ ذلك أنه جذب لوحا طويلا ودفع به حتى صار بيننا، وكان عليه امرأة عارية.

لقد كانت الفتاة جميلة حقا ! وإن أنس لا أنسى ما حييت الجسم الناصع البياض نصوعا لم نعتد رؤية مثله، تعلوه نقطتان ورديتان شاحبتان، هما حلمتا الثديين، وكانت عيناها مطبقتي الأجفان، وعلى فمها الساحر ابتسامة حزينة مترفعة. يا للعجب ! أيصدق الإنسان أن سيدة مثل هذه تموت في مثل هذا المستشفى ؟ كم كان يود الإنسان أن يعرفها، وأن يخفف عنها، وأن يعينها. . ؟ ! كان «جيمس» و «جريحوري» قد وقفا جامدين يمدان بصرهما إليَّ.

ثم قال «جريحوري» أتعرفها يا دكتور ؟ إنها الفتاة الروسية. . ونحن ننتظر أن تطلبها أسرتها. . وما لبث «جريحوري» أن رفع القضيب بحركة عنيفة ملقيا اللوح والجثة في الآلة الحديدية السوداء، ثم قال فخورا : يمكننا أن نحتفظ بتلك الجثث هنا في البرد إلى الأبد. . أتريد أن ترى رجلا ؟

– كلا. . أشكرك، أريد أن أخرج، أخذ «جيمس» بذراعي في مودة ورفق قائلا : سأقودك إلى حجرتي حيث أعطيك كوبا من «البورتو» إن لونك جد شاحب. . نحن إذن يا «جريحوري» على اتفاق فيما يتعلق بهذا المساء ؟ في تلك اللحظة سمع في المدرج صوت جرس يدق، فقال «جريحوري» :

– إثنان ثم أربعة، هذه الدقة نداء لك يا دكتور، فقال لي «جيمس» : معذرة سأتركك لحظة. . كل طبيب مناله نمط خاص من الدق، فإذا دق الجرس مرتين، ثم أربع، فذلك نداء لي. . وفي كل إيوان بل وفي كل حجرة جرس مثل هذا. . يكفيني الآن أن أسال بواسطة التليفون، المركز، لأعرف أين يحتاجون لي. . أيمكنك أن تنتظرني هنا ؟

– إني أفضل أن أراك في مكان آخر. . أتريد أن تتناول العشاء معي هذا المساء ؟ إني أنزل في فندق صغير في وسط لندن، فأجاب في صوت خافت كأنه يحلم :

هذا المساء. . هذا المساء. . نعم، ليس ذلك من المستحيل. . سأطلب إلى أحد زملائي أن يشغل مكاني، إني أرغب أيضا أن أتحدث معك. . غير أنه يجب كما تعلم، أن أكون هنا الساعة العاشرة، فإذا أردت تناول العشاء مبكرا، حوالي الساعة السابعة مثلا، فلا مانع عندي.

- سأنتظرك «في فندق «جونسن». . ودق الجرس ثانية مرتين ثم أربعا».

وكانا على موعد في رحاب الفندق التقليدي البسيط، فتجاذبا أطراف الحديث عن الماضي، لكن الدكتور تدرج بالكاتب نحو موضوع لم يسبق أن فاتحه به أيام الحرب، حيث طرح فكرة الإعتقاد بالروح وخلودها، فدارت رحى المناقشة بينهما، ووجد الكاتب نفسه في هذا الموضوع بمثابة التلميذ أمام الأستاذ، وقد تدفق عليه الدكتور كسيل ولم يكفهما الوقت، حيث أكد له أنه سينير بصيرته أكثر حينما يتفضل بمرافقته إلى المستشفى، وما أن ذهبا تحت جناح الضباب وأكاليل المصابيح الملونة في الليل حتى طرح الضيف السؤال :

- «ماذا عسى أن نرى ؟»

- ربما لا نرى شيئا، سوف تحكم بنفسك.

وعلى أي حال، يجب أن تعلم أنك أول شخص أُسر إليه بأبحاثي، وستفهم لماذا كان ذلك، ثم أردف، وهو يلقي بنظرة عدائية إلى امرأة لابسة ثياب الحداد، وجالسة بالقرب مني.

أفضل ألا أتحدث هنا، وعبرت السيارة نهر «التاميز» في وسط هالة من ضباب كثيف تخاله القطن الأصفر المندوف، وقد أكسبت نيران المعامل على ضفة النهر البغيضة، الليلة القطنية أنوارا عظيمة باهتة، أما أنا فقد صيرتني هزات العربة المتتابعة وسنان.

وفجأة قال الدكتور «جيمس».

- آن النزول، كنا حينئذ أمام مستشفى القديس «برنابيه» الذي كان يتألق تألقا خافتا في غمرة الضباب، فقادني «جيمس» وسط الأفنية، والخطا بمهارة الخبير المتثبت. وما لبثت أن رأيت باب حجرة الأموات المعدني، ومع أني كنت أقدر أنه سيقودني إلى تلك الغرفة فقد اقشعر بدني قسرا، وبدا رفيقي في حالة توتر عصبي شديد. ماذا سيرينا «جيمس» من أسرار تتصل بعالم الموتى الرهيب في مسائنا هذا ؟ كان الباب مقفلا بالمزلاج، فدق «جيمس» على الباب دقة طويلة أتبعها بدقتين قصيرتين.

- فصاح «جريحوري» من الداخل مسمعا صوته الكريه :

ها أندا يا سيدي. .

وما أن سمعت صوته حتى استولت عليّ حالة من الضيق تألمت لوجودها، غير أني لم أتمكن من التغلب عليها، والآن، وأنا أفكر هادئا في تلك الحالة، فإنني لا أجد من الهين على تعليل شدتها، فإذا كان «جريحوري» لم يرق في عيني، فلم يكن ثمت ما يدعو إلى اعتباري إياه غير محضر لا ينفع ولا يضر، ثم أن معرفتي الطويلة بـ «جيمس» تبعث في نفسي الثقة به حتما لقد تغير كثيرا منذ عرفته في أثناء الحرب، حقا لقد تغير حتى أصبحت أشك في حاله أهو في تمام عقله، ولكن ماذا كنت أخشى ؟ أمنظر الموت ؟ لقد ألفته فيما بين سنتي 1914-1918م الإشتراك في اقتراف جريمة بدون علمي ورضاي ؟ ولكن أية جريمة ؟

حاولت قدر جهدي، كما كنت أفعل منذ عشر سنوات، أثناء الضرب بالقنابل، ألا تطير نفسي شعاعا وألا تراع، ثم ولجت الباب عازما على أن أكون مالكا زمام نفسي، وقال «جريحوري» :

- سعد مساؤك يا سيدي الدكتور.

غير أنه حين لحظ وجودي شده، وظهر عليه أنه قد ضاق بي ذرعا وقال :

ما هذا يا سيدي الدكتور ؟. . أأحضرت معك شخصا ؟. . ثم اعتزل به ناحية وأسر إليه بصوت خافت ألفاظا لم أتبينها.

فقال «جيمس» بصوت عال :

- لا تعر هذا بالا، فصديقي هذا فرنسي غريب عن المستشفى، ثم أنه كان رفيقا وفيا لي طوال مدة الحرب، وسوف لا يبوح بشيء.

- آمل ذلك، أمل ذلك، وإلا كان الجزاء يا سيدي الدكتور، أن نودع المستشفى إلى الأبد.

فأجاب «جيمس» في شيء من الضيق : حسن، حسن، أؤكد لك أنه سوف لا يبوح بشيء. هل تسلمت الرجل ؟

فتنحى «جريحوري» عن مكانه، مظهرا بذلك مائدة التشريح، فرأيت عليها جثة كاملة العرى رأسها مرسلة إلى الوراء، وعرفت فيها الرجل ذا اللحية البيضاء الشقراء الذي رأيته في الصباح يحتضر، لقد كنت أخطأت حين حسبته شيخا، كان المرض قد أنهك وجهه، غير أن جسمه كان لا يزال فتيا جميلا ذا عضل قوي يوحي وهو في حالة الموت تلك التي يرثى لها بشعور مؤلم عن مقدار تلك القوة الهائلة التي أسرف في تبذيرها، وكان على فخذه الأيسر وشم يمثل ثعابين متعانقة، وعلى صدره وشم آخر يمثل زورقا ملأت قلاعه الريح.

قال «جيمس» : لقد أخرنا هذا الضباب، كم مضى من الزمن منذ أن أحضرته إلى هنا ؟

- لقد لفظ النفس الأخير في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين بالتقريب يا سيدي الدكتور. . والساعة الآن العاشرة والنصف.

قال الطبيب : لا بأس. . لم يضع الأمر برمته من يدنا، كن نشيطا يا «جريحوري» ! أحضر الميزان ثم أسرع ملتفتا نحوي : أما أنت فاجلس على أحد تلك المقاعد. . لا تلفظ ببنت شفة ولا تأت بحركة الآن. . سأشرح لك فيما بعد ما تكون قد شاهدت.

وما أن اختفى «جريحوري» تحت المقاعد حتى ظهر حاملا آلة، عرفت بعد أن أتم تركيبها وأعدَّها أنها ميزان، في أعلا لوحة صغيرة كميناء الساعة وبه عقرب، كان هذا الميزان يشبه ما نراه من مثله في محطات السكك الحديدية، وكان المسطح الذي توضع عليه الأشياء للوزن بحيث يسع جثة إنسان ممدودة، فألقى عليها المحضر، بمساعدة «جيمس» جثة الرجل الأشقر، ثم ثبت في أعلا العقرب مرآة صغيرة، واختفى «جريحوري» من جديد تحت المقاعد، ثم عاد حاملا أسطوانة مركبة فوق عمود طويل، وسمعت لف زنبرك، فأيقنت أنه كان يملأ آلة تشبه أن تكون ساعة.

قال الدكتور في حدة :

- هيا أسرع يا «جريحوري» أسرع. . أمتأهب أنت ؟. . لأطفئن النور. وما أن أتم حديثه حتى كان النور قد انطفأ، وحينئذ رأيت شعاعا عكسته المرآة المثبتة في أعلا العقرب يضيء الأسطوانة التي كانت تدور ببطء. وهكذا كلما تحرك العقرب حدثت حركة أوسع نطاقا في نقطة من النور على سطح الأسطوانة، كانت هذه هي بعينها الطريقة التي اعتيد استعمالها لزيادة حساسية «الجلفانومتر»، وقد شاهدتها قديما في عهد الدراسة في فصول الطبيعة.

لم أفهم شيئا قط من التجربة التي كنت أشاهدها، لكن الموضوع كان قد أخذ مظهرا علميا، فأصبح مألوفا لدي، وأعاد الطمأنينة إلى نفسي، وأصبحت أشعر بجماله الفريد، فتلك الظلمة التي يتلألأ فيها شعاع ضئيل، وهذا الجسم العاري الذي يتوهمه الإنسان في إبهام خلال ظلمة الليل، ووجه «جيمس» المنحني على الأسطوانة والذي كان يضيئه الشعاع لحظة بعد أخرى، كل هذا كان يذكرني بلوحات المصور و «مبراندت» التي تمثل فيلسوفا وكيماويا يعملان في ظلمة باهتة لا يتخللها غير نور ضعيف منبعث من نافذة ضيقة غريبة.

خيم السكون على الغرفة لحظة، ثم ارتفع صوت «جيمس» من ثنايا الظلمات قائلا :

– هل بدأت تفـهـم الآن ؟. . لعلك أدركت أن النقـطة المضيـئـة على سطح الأسطوانة تعيّن وزن الجسم. . انظر الآن إلى العلامتين المتألقتين اللتين تحددان أعلا وأسفل الأسطوانة. . ترى أن النقطة الـتي يقع عليهـا الشعـاع تهبط قليـلا قليـلا. . إذن وزن الجثة يقل، فلم يقل ؟ ليس من الصعب إدراك السبب. . إن جزءا من الماء الذي تشتمل عليه أنسجة الجسم يتبخر ببطء وبما أنه ليس هناك ما يعوضه من الغذاء. . لاحظ أن ذلك الهبـوط مستمر في انتظام، وهذا ما يمكنك رؤيته إذا لاحظت النقطة المضيئة تهبط بدون ارتجاج. وفي الواقع لا يرى الإنسان أية علة لعدم انتظام هذا البحـر. . مضى الآن نـحو ساعة منذ حدوث الموت. . ستستمر تلك الظاهرة مدة نصف ساعة أخرى تقـريبا، ثم ينبغي أن تركز انتباهك على الأسطوانة. وتلا ذلك صمت عميق حتى لقد سمعت تنفس «جريحوري» و «جيمس»، استمرت النقطة المضيئة في هبوطها البطيء بينمـا هذا الرجل ـ الذي كـان من غير ما ريب، وفي عين زوجته وأطفـاله مركـز العـالم ـ ملقى على المسطح، تجرى عليه تجربة غـامضة، وفي سقف المدرج دق الجرس ثلاثة ثم اثنين. وبعد هنيهـة قال «جيـمس» بصوت لمحت فيه من جديد التوتر العصبي الشـديد الذي كان قـد انتابه في بداية هذا المساء.

مضت ساعـة وخمسـة وعشرون دقيقة، فعلقت بصري بالأسطوانة لا أحيد عنهـا، وكنت أسمع في وضـوح دقات «كرونومـتر» كان يحـمله «جيمس»، من غـير شك في يده، وبعد فترة أخرى قال : مضت ساعة ونصف.

ثم رأيت بعد ثوان أن النقطة المضيئة تقفز فجأة، لقد كان القفز ضئيلا غير أنه كان من السهل ملاحظته، فصحت :

– هل رأيت يا دكتور ؟

– فـرد «جيـمس» ساخـرا : لقد رأيت جيـدا، ومـا أحضرتك هنا إلا لـترى هذه الظاهرة، ثم أضـاء «جـيـمس» المصـابيح فـرأيت، ولـم أزل بعـد في حـالة الـغشـاوة، شـار بي «جـريـحـوري» المدهونين اللامعين، والرجل الأشـقر الممدود في وضع من تلك الأوضاع الخـاصة بالموتى، والتي يتبين فيها الإهمال والرخاوة.

عاودني الهـدوء، وشعرت باتجـاه قوي نحو المعرفة، ووجـدت الموضوع شائقا إذ بدأت أفهم ما يبحث عنه صديقي، فوددت من كل قلبي أن أعلم كيف يفسر هو تجربته، وما لبثت أن قلت لم يبق الآن إلا أن تشرح لي. .

- انتظر. . يجب أن تترك «جريحوري» يذهب أولا لشأنه. . ثم نذهب نحن إلى غرفتي لأريك أشياء أخرى. . شكرا يا «جريحوري» إلى الغد. قال الرجل القصير بكل أدب بينما يحمل الميت بين ذراعيه ليضعه على مائدة التشريح :

- أأحتفظ بالقلب للأستاذ «سيمبسن».

فقال «جيمس» هازا كتفيه :

من الذي يهتم بالقلوب ؟ نعم يجب طبعا أن تنفذ ما نؤمر به. وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة دوّن عليها بعض الأرقام، ثم أخذ بذراعي وذهبنا.

أخذت مكاني في المقعد الوحيد الموجود في الغرفة، وكان عن يميني كأس من الوسيكي، وعن يساري علبة من السجائر، وما لبثت أن سألته :

- والآن يا دكتور ؟

- والآن يا صديقي افترض أنك تنتظر مني شرح ما شاهدنا. . ولكنني أود أن أعلم أولا رأيك فيما رأيت.

- أنا ؟. . ماذا تريد أن أقول لك ؟ إن الحديث الذي دار بيننا أثناء تناول العشاء، ثم التجربة التي شاهدتها منذ لحظة يرشدان ـ فيما يظهر ـ أن تبحث عن. . ما عساي أسميه. . النفس الإنسانية. .

وإلى أنك تؤمن بالروح فتبحث عنها بطرق مادية. . مع أن هذا ـ معذرة وصفحا ـ كما يبدو لي يتعارض مع الروحية. . على أنه من الخطأ أن أتعجل في الحكم ما دمت لا أعلم شيئا عن تجاربك فيما عدا تجربة هذا المساء، عليك إذن البدء في الحديث.

كان «جيمس» واقفا متكأ على المدفأة فأشعل غليونه. وعندئذ سمعت طنينا وراء الستارة الخضراء، كأنه صوت عدو مخالب حادة على لوح من خشب.

- «جيمس» أصدقني الخبر، إن هذه فيران، أليس كذلك ؟

فقال مبتسما : فأر، فأر !. . ينبغي أن أذهب بك لترى مسرحية «هملت». . توجد الآن فرقة تمثيلية جديدة، ستتحدث يا عزيزي عن الفيران بعد قليل، فلنعد إذن إلى بني الإنسان. . سأبدأ بالإجابة على اعتراضك الأول. لقد قلت لي : «أنك تبحث عن الروح في صورة مادية».

ليس الأمر كذلك. . إذ أنني لا أبحث عن الروح، بل عن نوع من الطاقة، إذا اتصل بالمادة منحها تلك الخاصة المجهولة : الحياة. . إنك توافق على أنه لم يمكن الآن إحداث ظاهرة الحياة. . إنك توافق على أنه لم يمكن إلى الآن إحداث ظاهرة الحياة بواسطة تركيبات طبيعية كيماوية على الرغم من تأكيدات الماديين المتعصبين.

– هذا صحيح. . غير أنه يمكننا الإعتقاد بأننا سنتبين الأمر في ذلك يوما ما.

فقال في شيء من الضيق :

– إذا سرت على هذا النسق فليس هناك ما يمنع من اعتقاد كل شيء. . لكني أكرر أن هذا ليس من العلم في شيء، بل هو عقيدة لا ترتكز على أساس. . ومهما يكن الأمر، فلا يسعك إلا موافقتي على أننا علميا وتجريبيا، لا نعرف ما الحياة، ليس من الحماقة إذن البحث ـ كما أحاول أن أفعل ـ عما إذا كان في الأجسام الحية نوع من الطاقة يختلف عن كل الأنواع المعلومة. . لاحظ أن هذا البحث لا يثير المعنى الديني أو الفلسفي للروح، ولكنه يبدله ويحوله ويؤخره إذا وصلت إلى إثبات أن كل كائن حي ينطوي على كتلة معينة من «السيال الحيوي» فإنه يبقى علينا بعد ذلك أن نميز في هذا السيال نفسه بين ما يرجع إلى الروح وما يرجع إلى المادة، ثم يبقى علينا أيضا بيان كيفية ارتباطهما، أقول لك ذلك حتى لا تتأثر بالآراء القديمة المتوارثة، فتشك ـ بدون تحقيق ـ فيما أحدثك عنه. .

– لقد بينت لك يا عزيزي «جيمس» موقفي فيما يتعلق بهذا، وأنا الآن مصغ إليك بروح ناقدة، لكنها متحررة من كل قيد. . وعلى أية حال ففكرتك فيما يتعلق بالسيال الحيوي ليست جديدة. «فمسمر» الذي كان أحد الأسباب البعيدة للثورة الفرنسية. . فقال الدكتور وهو يأخذ نفسا من غليونه :

– نعم، نعم أعلم ذلك. لكن هناك على الأخص شخص أهم منه قد سبقه، ويغلب على ظني أنك تجهله، وهو البارون «دي ريشنباخ».

– إنه شخصية عجيبة، ولقد اعتقله رجال الشرطة الفرنسية، لأنه أراد تأسيس دولة مستقلة جديدة.

لقد كان كيماويا كبيرا، فهو الذي اخترع «البرافيني والكربوزون» وفي سنة 1860م انغمس في دراسة مسألة إشعاعات الأجسام الحية، كان يملك في «بافاريا» عدة قصور، هي في الجمال غاية، بعضها يقع على شاطيء البحيرات، والبعض الآخر أنشأه فوق الجبال، ودأب يجمع فيها أناسا على جانب عظيم من الحساسية حتى أنهم ليرون في الظلام الحالك حول الآدميين

والحيوانات والأزهار سيالات مضيئة سماها «ريشنباخ» ـ «أود» وهي كلمة سنسكريتية معناها «الذي يخترق كل شيء» هؤلاء الأشخاص الذين يجمعهم «ريشنباخ» يرون في الظلام حول الأجسام إشعاعات خارجة منها ليست بدخان ولا ببخار، ولكنها تشبه أن تكون لهبا لطيفا. . غير أن من الغريب أن تلك الإشعاعات مشربة بالزرقة حول الجزء الأيمن من الجسم، وبالحمرة حول الجزء الأيسر منه، لقد حاولت إعادة تجارب «ريشنباخ» فلم أصل إلى أدنى نتيجة، ولا أظن أنك رأيت «اللهب الأودي» حينما كنا مجتمعين منذ قليل في الظلام الدامس، رغم أننا كنا جميعا في حالة من الحساسية لا غاية بعدها ؟

- كلا لم أر شيئا.

- وحول الجثة ؟

- لا شيء.

وأنا أيضا لم أر شيئا، وكان الأمر كذلك، ولكني وجدت شيئا آخر، ها أنذا أقص عليك أمره. . لقد قرأت في صحيفة طبية كانت تصدر في أثناء الحرب قصة تجربة قام بها رجل يدعى الدكتور «كروكس» وقد قال إنه وزن جثث حيوانات، فلاحظ هبوطا مفاجئا في الوزن بعد زمن معين لكل فرد بعينه. . وقدر هذا الهبوط المفاجئ في جثة الإنسان بسبعة عشر في المائة من الملليجرامات، وانتهى من ذلك بقوله «إذن فالروح موجودة، ووزنها 17 % من الملليجرامات» حملت هذه الصورة، غير المهذبة من البحث على الإعتقاد بأن ذلك من لغو الكلام. . بل لقد أعلن أن «كروكس» هذا مخبول، فلم يقرأ أحد بحثه بعناية. . أما أنا فقد استوقفتني ظاهرة الإخلاص في أسلوبه، والدقة فيما أدلى به من تفاصيل ومع ذلك فما كنت لأحاول إعادة تلك التجارب الصعبة المملة لو لم. . «وهنا توقف ولاح عليه أنه آسف على أخذه في تلك الجملة، ثم قال دون أن يتممها» وفي العام الماضي أوحت إلي الظروف، وحياة المستشفى التي تضع في متناول يدي الجثث، أن أتحقق من صحة قول «كروكس». . فوجدت، على دهشة أن ما قاله حق. . غير أنه لم يصل بالتجربة إلى غايتها الأخيرة، إن الهبوط المفاجئ أثناء استمرار التبخر عند الإنسان لا يحدث مرة واحدة فقط، بل يتكرر ثلاث مرات، فالمرة الأولى تلك التي لاحظتها هذا المساء، تحدث بعد مضي ساعة وخمس وثلاثين دقيقة تقريبا من الموت، وتتراوح فيما بين 15 % و 19 % من الملليجرام. . أما الثانية والثالثة ـ ولم أنظرهما اليوم لتحقيقي منهما جيدا ـ فتحدث إحداهما بعد الأولى بعشرين دقيقة، وتحدث الأخيرة بعد ساعة تقريبا. . أتريد أن تقول شيئا ؟

– ليس بشيء هام. . إنه لا يعدو ملاحظة بسيطة. . من الطبيعي أنك لا تتمكن من وضع الجثة على مسطح الميزان إلا بعد الموت ببضع دقائق، فمن يدريك أنه لم يحدث هبوط مفاجئ أثناء تلك الفترة ؟

ففكر هنيهة ثم قال :

– هذا صحيح. . لكني أعود إلى الحديث عما أعلم عن خبرة. . . ففيما يتعلق بنتيجة التجربة لا يسعنا الشك. . لقد لاحظت ذلك بنفسك منذ قليل، وكل شخص يمكنه التحقق من ذلك أضفه إلى هذا أني أجريت تلك التجارب على الحيوانات، لذا جلبت تلك الفيران التي شغلت فكرك. . فاتضح لي أيضا من هذا أن استنتاجات «كروكس» صادقة، فالهبوط المفاجئ موجود هنا أيضا، على أنه ضئيل جدا بالنسبة للهبوط الذي يحدث في وزن جثة الإنسان، إذ هو عند الفأرة شديد الضعف حتى أنه من الصعب قياسه، هذا ما حدث، ولا محل للنقاش فيه، أما الإستنتاجات، فإنها موضع للنقاش. . وأشعل غليونه الذي كان قد انطفأ ثم نظر إليَّ، فلم أنبس ببنت شفة، فتابع الحديث قائلا :

إن ما وصلت إليه في البحث للآن لا يوحي إليَّ بأن الروح تزن 0,17 من المليجرام كما يقول «كروكس» بل بأن كل كائن حي، إنما مصدر حياته نوع لا يزال مجهولا من الطاقة، يغادر الجسم وزنا. . إنك تعلم أنه يمكننا وزن الضوء، وأنه يمكننا أيضا من الوجهة النظرية حصر الضوء وضغطه في أنبوبة زجاجية. . فلم لا يكون الأمر كذلك فيما يتعلق بالطاقة الحيوية ؟

حقيقة أن وزن الضوء بالنسبة لما نحن بصدد وزنه في تجاربنا هذه، يكاد يكون منعدما. . ولكني لا أرى أن هذا حجة ضدي، فإنه إذا دل على شيء فإنما يدل فقط على أننا أمام ظاهرة تختلف تمام الإختلاف، وليس ذلك بعجيب، لقد وصلنا الآن إلى معرفة حالات غريبة من حالات المادة، حتى أن طنا من الذرات المضغوطة إلى أصلها يمكنها أن تدخل في جيبي الأصغر هذا. . أتتابعني في الفهم إلى الآن أم تحسبني مخبولا ؟

إن من الصعب أن أتعود هذا النوع من التفكير، غير أن ما تقوله يبدو لي في غاية الوضوح. . على أني سأوجه إليك اعتراضا مرة أخرى، إنك فيما يظهر تعتبر أن الجسم الإنساني وحدة حية، بينما هو ـ على ما نعلم ـ ليس كذلك، إذ أن خلايا الجسم المختلفة لا تموت كلها في آن واحد، فالقلب يحيا أكثر من المخ، ولا أزال أذكر أنني حينما كنت في أمريكا رأيت في معامل «كارل»، أنه من الممكن بواسطة طرق صناعية، جعل خلايا القلب تستمر دهرا لا يكاد ينتهي. . يعضد هذا ما قاله أحد العلماء ولقد نسيت الآن اسمه، قال : «إن خلايا الجسم

بالنسبة للموت كسكان مدينة حلت بها مجاعة، فالأضعف يفارق الحياة قبل الأقوى» فإذا كان الموت يحل في الجسم تدريجيا، فكيف يتلاءم ذلك وفكرتك القائلة بالهبوط المفاجئ ؟

إن ملاحظتك هذه منطقية، وقد فكرت فيها، أما الجواب فهو أني لا أشاهد هبوطا مفاجئا واحدا بل ثلاثة، ثم أن فكرتك عن الموت الفردي للخلايا لا تعدو أن تكون فرضا. . وإذا كان هناك نوع من القوة يرتكز عليه ما نسميه «بالشخصية» فينبغي أن تزول دفعة واحدة «وذلك بلا شك أثناء الهبوط المفاجئ الأعظم» وعلى أية حال فشخصية أحدنا تتميز تمام التمييز عن حياة كل خلية من خلايا جسمه. . إن الشخصية إما أن توجد تامة أو لا توجد. . أكرر أني لا أريد بذلك أن أجعل من الروح شيئا ماديا، ولكن ـ كما شرحت لك منذ قليل ـ بما أن الروح ترتبط بالجسم لكي تعبر عن أفكارها، ولكي تدرك ما تحس به، فمن الممكن أيضا أن ترتبط بعد مفارقة الجسم بتلك الطاقة الحيوية المجهولة التي شاهدنا خروجها منذ قليل.

– أتريد أن تقول أن الشخصية تبقى فناء الجسم إذا تمكنت الطاقة الحيوية فيه أن تتجمع كلها في مكان واحد ؟

– نعم. . ولكنني الآن أريد أن أؤكد شيئا، وإنما أقول في بساطة تامة أن هذا ليس من المتعذر أن ينسجم مع العقل والمنطق.

– لكن هذه الطاقة، إذا نظرنا إلى الواقع لا تبقى متجمعة.

– إننا لا ندري شيئا عن ذلك، غير أنه من الممكن «كما قلت لك في الفندق منذ قليل» أن يكون الأمر في هذا كالأمر في المادة التي يتكون منها الجسم، والتي تعود في صور مختلفة إلى المادة الكلية، كذلك القوة الحيوية التي عندنا، تعود عند مفارقة الجسم، إلى المقر الهائل للطاقة الروحية، وتستمر هناك إلى اللحظة التي ترتبط فيها من جديد ببعض الجزئيات المادية فتهب الحياة مرة أخرى لكائن آخر.

– أو بعبارة أخرى، أنك تعتقد بخلود النفس الكلية لا بالحياة الفردية بعد الموت ؟

إنك تتذوق الأفكار يا صديقي بأسلوب فرنسي حاد. . ألا ترى أنك تقودني الآن إلى ميدان الفروض، وهو ميدان لا ينتهي إلى غاية ؟. . إن المسألة التي تشغل دائرة تفكيري أبسط من ذلك وأسهل. . إذا أمكننا الحصول على الطاقة الحيوية لإنسان ما، فهل ذلك يعني أننا حصلنا أيضا في الوقت نفسه على شخصيته ؟ وهل يتحقق له ذلك ـ لا أقول الخلود الأبدي ـ «كل المشاكل التي تدخل فيها فكرة اللانهاية تعلو على الإدراك الإنساني» ولكن على الأقل فترة من الحياة بعد الموت ؟ وذلك ما أبحث عنه.

- إنه إلى حد ما، جنون ولكنه جنون شائق يا دكتور. .

وبعد، هل حاولت الحصول على هذا الشيء الذي يزن 17 % من المليجرام.

- إني لم أتمكن من إجراء تجربة ذلك على إنسان. . فأجريت التجربة على الحيوانات. إذ وضعت أثناء تجربة الميزان بعض الحيوانات تحت أوعية من الزجاج، ولكن ماذا التقطت فيها ؟ وهل التقطت شيئا ما ؟ لم أدر قط من أمر ذلك قليلا ولا كثيرا. . على أنني أضطر لرفع الإناء الزجاجي حتى أتمكن من إخراج الحيوان، فإذا كان قد تجمع في هذا الإناء شيء، فهل ينطلق حين رفعه ؟ إني أجهل ذلك. . إذ أن السيال الحيوي لا يزال غير مرئي رغم ما يؤكده «ريشنباخ». . وذلك لأجعل الملاحظة سهلة. . طبعا عند إجراء التجربة على الإنسان تصبح النتيجة أكثر وضوحا بسبب أن ما تجري عليه التجربة أكبر. . ولقد طلبت من أجل ذلك، منذ ثلاثة أيام، إناء زجاجيا يكفي لتغطية جسم إنسان. . سيصلني الأسبوع المقبل، وسنرى. . أتبقى هنا إلى ذلك الحين ؟

- أنا مضطر للعودة إلى باريس لبضعة أيام، ولكن عملي لم يقارب بعد النهاية، لذلك سأكون في لندن يوم الجمعة المقبل، حوالي الساعة السابعة مساء. . أتريد أن تتناول العشاء معي ذلك اليوم ؟

- كلا، لا أستطيع أن أترك المستشفى يوم الجمعة. . ولكن أحضر أنت إلى هنا وربما ـ ونظر إليّ طويلا كما ينظر البناء إلى عمود من الخشب أو إلى الحائط ليقدر صلابته واحتماله ـ ثم قال :

- طبعا أنت لا تزال عند وعدك بأن لا تتحدث إلى إنسان، كائنا من كان عما رأيته هنا. . ذلك أني أفقد مكاني، وأفقد الوسائل التي أتمكن بها من متابعة تجاربي، فصافحته وشددت على يديه ثم افترقنا.

ويحكي الأديب رجوعه إلى فرنسا، واتصاله بصديقه العالم «مونستيه» وكيف باح له بالسر من غير أن يذكر اسم «جيمس» وكيف هذا العالم هو بدوره أخذه إلى مخبره وأطلعه علي بعض أسرار هي تسير تقريبا في نفس السياق، ثم عودته إلى ابريطانيا واتصاله مع صديقه «جيمس» في الموعد المضروب، ومحاولة إشاده لبعض الأجهزة التي زوده بها صديقه الفرنسي «مونسيه» من أجل الوصول إلى النتيجة، وهكذا يحكي قائلا :

«فحدثته بما كان، وبينت له أن الطريقة التي استعملتها لا تحمل في ثناياها أي خطر، ووصفت له ما رأيت في المعمل، ونقلت له كل ما أمكنني أن أحيط به من حديث «مونستيه».

- أتتبين الأمر يا «جيمس» ؟ يخيل إلي أنه إذا أمكنك أن تجعل الأشعة التي فوق البنفسجية تمر فوق الجثث، عندما تعتقد أن شيئا يفارقها فربما رأيت حينئذ أن السيال يصبح مرئيا حقيقة. . إننا بصدد فرض لا نعلم نتيجته، ولكن ألا يمكنك أن تجرب ؟. .

إن آلة الأشعة لا بد من أن يوجد بالمستشفى واحدة منها حتما.

فقال وهو مستغرق في التفكير :

- نعم. . غير أن الصعوبة إنما هي في الاتيان بها إلى حجرة التشريح. . ومع ذلك فهذا نفسه لا يدخل في دائرة المستحيلات. . كم أنا شاكر لك على هذه الفكرة الطيبة. . كثيرا ما رأيت تجارب من هذا النوع، ولكنني لم أفكر قط في تطبيقاتها فيما أنا بصدده. . وعلى كل حال يمكنني أن أحاول التجربة في حجرتي على أحد الحيوانات الصغيرة. ولعلك تتفضل بالحضور غدا مساء لنقوم بهذا معا، فوعدته بالمجيء، ثم رجوته إذا كان في عزمه أن يقتل فأرا أو حيوانا آخر، أن يفعل ذلك قبل حضوري، ذلك لأني لا أطيق احتمال هذا المنظر، فسخر قليلا مني ثم قال : إن الحيوانات لا تتألم، إذ أنها تخدّر قبل القتل بواسطة الحقن.

كان «جيمس» حينما لقيته في مساء الغد في حالة توتر عصبي لا تكاد توصف، وما أن سمع خطواتي على السلم حتى بادر لاستقبالي مادّا كلتا يديه قائلا في صوت خافت :

- مرحبا بصديقي، ما رأيك في أننا عثرنا على حل للأمر الذي يهمنا، والفضل لك.

- ماذا تعني ؟

- ادخل وشاهد الأمر بنفسك.

كانت الحجرة مظلمة، ولكن «جيمس» قادني وهو آخذ بكتفي قائلا :

- انتبه فإن الآلة في وسط الغرفة. . اتجه قليلا نحو اليسار. . استمر في الإتجاه أيضا. . حسن. . إتجه الآن إلى الأمام. . أترى شيئا ؟ فرأيت نحو المدفأة ضوءا خافتا في حجم البندقة تقريبا، غير أنه أطول قليلا، وحينما نظرت عن كثب لاحظت أن النور تتخلله تيارات لا تماثله في الوضوح وإنما تقل عنه، وليست مستقرة وإنما تدور في بطء عظيم، أما المنظر العام فإنه يذكر ببعض الصور للنجوم الخافتة الضوء.

فسألته :

- ماذا أرى ؟. . إن ذلك طريف وعلى قدر كاف من الجمال. . فقال :

- سأريك في وضوح أكثر.

ثم ابتعد عني لحظة وأنار الحجرة، فرأيت فوق المائدة ناقوسا من الزجاج تحته فأرميت ممدد على جنبه. . واختفت بندقة النور الرمادية، فنظرت إلى «جيمس» في هيئة المتسائل. فقال :

- إنك لتبدو مندهشا. . ومع ذلك فلم أقم إلا بوضع فكرتك موضع التنفيذ. . وما رأيت ليس إلا كتلة صغيرة من. . إني لا أجرؤ على أن أسميها مادة. . فلنقل إذا شئت كتلة صغيرة من الناقوس. بعد موت الحيوان بإحدى وعشرين دقيقة، فتبلبلت أفكاري إلى حد كبير. ولم أكد أصدق ما رأيت وما سمعت.

- حقا إن هذا غريب مدهش يا «جيمس».

وغريب أيضا أن أحدا لم يفكر هذه الفكرة. . إنه اكتشاف عظيم، ألا تعتقد ذلك ؟ إني لم أعد أرى شيئا في الناقوس.

- إننا لا نراه في الضوء العادي، وهذا ما يفسر لك كيف أنني ـ كغيري من الناس ـ لم نلاحظ هذه الظاهرة فيما مضى. . ولكن طريقتك، أو إذا شئت الطريقة التي أوحى بها صديقك الطبيعي، هي التي حالفها التوفيق.

- إني أود أن أرى من جديد.

فأطفأ النور وأدار الآلة، فما لبثت أن رأيت البندقة النورانية تلمح في خفوت لطيف.

- إني بدأت أعتقد يا «جيمس» أنك سائر في طريق اكتشاف عجيب لم يدر بخلد أحد. . أتعتقد أنه الشخصية. . كلا، لا يمكن الحديث عن شخصية فأر. .

أتعتقد أن ذاتية هذا الحيوان تستمر على صورة ما مرتبطة بهذا النور الضئيل ؟

- إني لا أعلم أكثر مما تعلم يا صديقي العزيز. .

وكل ما يمكنني أن أقوله لك، هو أن ذلك، فيما يظهر لي ممكن، بل مرجح. . وأن في عزمي أن أعيد التجربة على الإنسان عندما يكون في حوزتي ناقوس أكبر. . هذا وألفت نظرك إلى أن من حظنا أن يكون السيال أخف من الهواء، وأنه لذلك يتجمع في أعلى الناقوس، ولذلك يكون من السهولة بمكان الإحتفاظ به، حتى ولو رفع الإنسان الناقوس لإخراج الجثة.

ثم مكثنا لحظات صامتين في هذا الظلام الدامس، ننظر إلى البندقة النورانية التي ربما كانت دليلا على وجود كائن خفي. . وأخيرا أضاء «جيمس» الحجرة، فقلت :

- إنه لغريب مدهش حقا، أن ظواهر مهمة جدا، وبسيطة إلى حد كبير، مكثت للآن بمعزل عن علم الناس».

ثم يحكي الكاتب أنه شغل نفسه بهذا الإكتشاف العلمي لدرجة أنه أخَّر بحثه الأدبي الذي جاء من أجله، ويبدأ يتردد كل يوم تقريبا على صديقه «جيمس»، وتعود رؤية الجثث على طاولة التشريح، فيحكي قائلا :

«وفي المساء حينما رافقت «جيمس» في أثناء مروره بالمرضى، فوجئت مندهشا برؤية وجه «وليم سلاتر» ـ «تعرف عليه سابقا كبائع للحم» ـ الهادئ الوديع عادة، قد التهب من أثر الحمى، وكان يصبح «الإختراع العجيب. . لم يبق منه إلا القليل» ـ «جملة كان يرددها وقت بيع اللحم تدخل في الدعاية من أجل البيع بقيت علقة بذهنه» ـ ثم رأيته في الغد في منتصف الليل على منضدة التشريح.

وبدأت أتعود رؤية هذه المناظر التي تتصل عن قرب بالموت، ولذلك كنت هادئا نسبيا. أما «جيمس» فقد كان في هذا المساء على العكس مني في حالة تهيج، وقد ساعد «جريحوري» في إخفاء الناقوس الكبير تحت المدرج، وكان يخشى أن يكسره الرجل القصير عند حمله معنا لوضعه على النضدة فوق الجثة، وقد عدل الدكتور عن استخدام الميزان، إذ قد كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يوضع الناقوس في اتزان على مسطح الميزان، ولكنه استعار مرة أخرى آلة الأشعة فوق البنفسجية، أما «جريحوري» فإنه لم يكن على علم بأبحاثنا الجديدة، ولذلك ساعدنا وهو ضيق الصدر مضطرب.

وأخيرا تمكنا من وضع ذلك المسكين تحت الناقوس الكبير، ووضع الآلة بحيث تمر أشعتها بأعلى الناقوس، كل هذا أخذ وقتا طويلا حتى أنه لم يبق لنا بعد الإنتهاء إلا ست دقائق على اللحظة المعينة التي فيها ـ حسب معلوماتنا المألوفة ـ سيحدث «شيء ما» فأشار «جيمس» الذي كان ينظر إلى الساعة، على «جريحوري» أن يطفئ النور، فوجهت بصري نحو أعلى الناقوس الذي لم أعد أراه، ومكث على هذا الوضع محاولا ألا أحيد عنه فتراءى لي الإنتظار طويلا لا يكاد ينتهي بعدها قال «جيمس» :

– دقيقة واحدة.

أخذت أعد ببطء : واحد. . إثنان. . ثلاثة. . أربعة. . وعندما وصلت في العد إلى خمسين رأيت ضبابا يضرب إلى الزرقة تمثل لي أولا في صورة غير محدودة تمتد على عرض موقع الأشعة ولكن هذه الفترة كانت من القصر بحيث لم أتمكن من الملاحظة الدقيقة، ثم ما لبث هذا الضباب حتى تركز مكونا كتلة لبنية اللون يبلغ طولها تقريبا أربع بوصات، واتخذ جزؤها الأسفل شكلا أفقيا، أما الجزء الأعلى فقد استدار تبعا لإستدارة الناقوس.

لم تكن هذه الكتلة جامدة لا تتحرك، ولم تكن متجانسة، بل كان يرى بها تيارات بعضها من بعض، ولا يمكنني أن أصفها بالدقة إلا إذا طلبت إليك أن تتصور دخان سجائر، يخل في كثافة، ولونه قد نضدت دوراته الحلزونية، ودوائره حتى تكون منها شيء محدد الجوانب، وما أن تبين ذلك «جريحوري» حتى صاح في هلع :

– دكتور. . دكتور. . دكتور. . أترى هذه البيضة النورانية ؟

فنصحه «جيمس» بالتزام السكون، وبينما أنا أنظر إذا بي أرى رأس الدكتور تعترضه لحظة مرور الأشعة، فتضيء ملامحه، ثم مالت الرأس واختفت في الظلام، فشعرت وإن كنت لم أره، بأنه مائل نحو الجوهر الغريب الذي أصبح أسيره، لكي يلاحظه عن كثب واتجه تفكيري إلى «وليم سلاتر». . وأخذت أسأل نفسي. . أحقا بقي تحت هذا الناقوس الزجاجي شيء من هذه النفس الساذجة المستسلمة ؟ أحقا أن مصدر الحياة لهذه الجثة تركز الآن في هذا الحيز الصغير ؟ أسجيننا قوة غير مشخصة أم هو «وليم سلاتر» نفسه ؟ أيمكنه أن يرانا ؟ أشاعر هو بما نفعله به ؟ أيفكر الآن في «الإختراع العجيب» فإذا كان ـ ولو على فرض ضئيل الإحتمال ـ شاعرا، فهل من حقنا أن نأسره ؟ وبينما أنا أفكر في هذا، إذا بي أسمع «جيمس» يقول :

– النور يا «جريحوزي».

فاجأني النور برؤية الدكتور، والرجل القصير ذي الشارب المدهون اللامع، والآلة المغطة بالقماش الأسود، والناقوس وقد زالت عنه جاذبيته، يغطي جثة رجل عجوز ذي شارب أبيض، نظر «جيمس» هازا رأسه، فرأيت أنه ينوء بالنجاح الذي أناخ عليه بكلكله، أما «جريحوري» فإنه خاطبني قائلا :

– أرأيت البيضة النورانية يا سيدي ؟

فأجاب «جيمس» في شيء من الضيق :

لقد رأيناها جميعا. . والذي أرجوه الآن يا «جريحوري» هو أن تحفظ في عناية هذا الناقوس فلا تكسره ولا تعكس وضعه الذي هو عليه الآن. . أتعي ما قلت لك ؟

فأجاب «جريحوري» وهو منفعل قليلا :

– نعم. . ولكن أرجو ألا تحضر ناقوسا آخر، فليس عندي له مكان. . بل لو رأى الطلبة هذا الناقوس. . فقاطعه.

– إني لا أحدثك عن ناقوس آخر. . سنساعدك في وضع هذا تحت المدرج.

ثم تعاونا نحن الثلاثة في حمله وما كان ذلك سهلا. وبعد ذلك تركنا «جريحوري» الذي انطوى على نفسه والتزم الصمت، وما أن صرنا في فناء المستشفى تحت السماء المكللة بالنجوم حتى قلت لـ «جيمس» :

– إني أعتقد أن من الواجب أن تنيره في الأمر بعض الشيء. . فأنت في حاجة إليه. .

– إنك عجيب يا صديقي، ماذا تريد أن أقول له ؟

إنه على علم بما أعلمه وما تعلمه، أيمكنك أنت أن تشرح ما رأينا ؟

فعرفته بعجزي عن ذلك، غير أنه يبدو لي أن التجربة تثبت النظريات التي شرحت لي عندما تناولنا العشاء معا أول مرة. فإذا كان يأمل الإحتفاظ بجزء من الكائنات الإنسانية بعد الموت، فإنه بصدد الوصول إلى ذلك، ثم أني اعترف لي بأنني لا أدري إلا ما يقوده هذا النجاح، إذ أننا لو فرضنا أن ما تحت الناقوس هو روح «وليم سلاتر» المسكين فإنه لا يمكنه أن يتصل به، وأضفت إلى ذلك أنني لا أعترف له بالحق في أن يحتفظ بهذا الجوهر، الذي نجهل من أمره كل شيء، سجينا.

– افترض يا دكتور أن القانون الإنساني هو أن سيالا حيويا يخرج حقيقة من الجسم ليمتزج بمصدر هائل للحياة، فبأي حق نعترض سبيله ؟ ليست نواقيسك خالدة وسيأتي اليوم الذي ينقطع فيه «وليم سلاتر» رغم جهودك عن أن يكون «وليم سلاتر»، فماذا تكون إذن نتيجة عملك سوى تأخير «وليم سلاتر» وإبقائه عبثا في ظروف ربما كانت بشعة ؟. . إنك وصلت إلى اكتشاف سيمهد لك نوعا من المجد حينما تعزم على نشره. . ولكن ينبغي أن تقتصر من ضرره على ما تضطرك إليه الضرورة، إن في السماء والأرض لأشياء لم يحلم بها العلم الذي تعلمته يا «هوراشيو» ».

فقال «جيمس» :

– إنك تذكرني أنه ينبغي أن أرافقك ذات مساء لرؤية «هملت». . أتمنى لك ليلة سعيدة، وقد يصف الكاتب تعلقه بهذا البحث لدرجة أنه أصبح يتناول غذاءه ضمن مجموعة الأطباء الذين يتناولون غذاءهم داخل المستشفى، وقد اختلى به أحدهم وطلب منه مساعدته على معرفة ما يقوم به «جيمس» في الخفاء تدرعا وراء حالته النفسية المقلقة التي تثير انتباه الأطباء بعد سرد قصة حبه القديم وربطه بممثلة هي تشبه في الخد والقد والصورة غادته المتوفية في ظروف غامضة، خاتما قوله بتحذيره وتحذير «جيمس» مغبة الإطلاع على أعماله وتصرفاته في الجثث. وهنا يستطرد الأديب في حديثه قائلا :

«لم يكن في مقدوري الإمتناع عن متابعة تلك الأبحاث في حرارة وتحمس. كان من الصعب تحريك هذه النواقيس الزجاجية ذات الحجم الهائل، والإحتفاظ بها، فعرضت لـ «جيمس» فكرة بسيطة ولكنها مرفقة : هي أن يركب في أعلى النواقيس كرة زجاجية يبلغ قطرها أربع بوصات تقريبا تتصل بالناقوس بواسطة أنبوبة زجاجية، وحينما استخدمت الأشعة فوق البنفسجية لرؤية ما حدث، شوهد كما هو متوقع، أن السيال ارتفع من الناقوس إلى الكرة، فأصبحت كلها تقريبا مضيئة، بينما بقي الناقوس مظلما، وإنه لمن السهولة بمكان فصل الكرة الزجاجية عن الناقوس ولحمها ثم الإحتفاظ بالمادة أو بالطاقة» التي نحن بصدد البحث عنها، وكلما اقتضى الأمر يمكن لحم أنبوبة زجاجية جديدة بالناقوس تعلوها كرة، وبذلك يمكن استخدام ناقوس واحد ما دام محاطا بالعناية حتى لا يكسر.

هذه الكرات الزجاجية الصغيرة التي يسهل حملها، احتفظ بها الدكتور في حجرته الخاصة وحتى لا يختلط عليه الأمر في التمييز بينها، ألصق بكل منها بطاقة كتب عليها اسم الشخص الذي شاع منه ما تحتويه الكرة، وتاريخ الحادثة التي يسميها الآخرون الموت، ويسميها «جيمس» التحول، كانت الكرة رقم «1» لـ «وليم سلاتر» ورقم «2» للسيندة «ريم» بائعة السمك الثعباني ورقم «3» لبحار نرويجي، ويبلغ عدد الكرات جميعها سبعا، موضوعة الواحدة تلو الأخرى، على رف خصص لها في حجرة «جيمس».

لقد كنت أمضي الساعات في النظر إليها وهي أمامي تشبه فقاقيع الصابون صيرتها صلبة معجزة من المعجزات فجأة، وفي كل منها يتحرك تياران مستطيلان يمتزج فيهما اللون الأزرق باللون الأخضر، أحدهما مسنم والآخر مجوف، واستدار كلاهما مع الكرة لم يكن هذا على ما أعتقد، سوى صورتي السماء والأشجار المنعكسة على زجاج النافذة غير أني أحيانا كنت أعتقد أني أرى داخل الكرات أشكالا تدهشني، وحينما كان يجدني «جيمس» منكبا على الكرات أتأملها كان يقول :

- آه إنك تنظر إلى «نفوسي».

- إني أريد من كل قلبي أن تمنحها الحرية يا دكتور.

- فيما بعد، فيما بعد. . حينما أعلم عنها كل ما يمكنني أن أتعلمه منها.

كان «جيمس» لا يفتأ بين آونة وأخرى يتحقق بواسطة الأشعة من عدم هرب نفوسه أو بالأحرى كما كان يقول «أطيافه السيالة» من خلال سجنها الشفاف، فلا يلاحظ أي تغيير إذ

يجد في كل مرة الضوء اللبني نفسه، والحركات الدائرية بعينها، وما من شك في أن حياة حقيقية، وإن كنا لا ندرك كنهها، باقية داخل الكرات.

اكتشف «جيمس» أن للسيال تأثيرا واضحا في الأشياء، فحينما يقرب من الكرة لوحة من مادة عازلة، فإنها تضيء في خفوت، هذه الظاهرة جعلتني، فترة طويلة آمل حدوث اتصال أطياف، إن الضوء الذي تحدثه الكرات على اللوحات يتغير باستمرار، ألا يمكن المخاطبة بواسطة طول هذه الفترات الضوئية وقصرها ؟ كل محاولاتي لشرح هذه العلامات الضوئية ذهبت مع الريح، أما «جيمس» فإنه حاول أن يؤثر في أرواحه، مرة عن طريق أشعة «إكس»، وأخرى عن طريق أشعة «الراديوم».

هذه النتائج التي لم تؤد إلى نتيجة كان لها تأثير سيء في نفسي، وقد كنت أشعر بأنها عديمة الجدوى، فضلا عن أنها قاسية شديدة القسوة، ولا غرابة في أن تستعمل هنا كلمة «القسوة» إذ أننا نجهل كل شيء عن أثر هذه التجارب على جوهر من الممكن أن يكون حساسا، ولقد ناقشت «جيمس» غيرما مرة، محاولا صرفه عن ذلك. فلم أصل إلى نتيجة، ثم عدنا إلى مناقشات كانت من العنف بحيث خيل إلي حينا أنها ستضع حدا لصداقتنا، وذلك لسبب تجربة أكثر بساطة من سابقتها، ولكنها بدت لي أكثر قسوة وأشد فظاعة.

فقد اضطرتني أبحاثي للذهاب إلى دار كتب في «أكسفورد»، فغبت يومين عن المستشفى، وحين عودتي ذهبت لزيارة صديقي فوجدته بصدد اختيار كرتين جديدتين أضيفتا إلى مجموعته أثناء غيبتي، إحداهما تحمل رقم «8» والثانية رقم «9» وأخبرني «جيمس» أن رقم «8» فتاة راقصة انتحرت اسمها «أجاتالين»، أما رقم «9» فهو روسي، إسمه «ديمتري دوسكف» مات بالسرطان.

ولكنني دهشت حينما رأيت الكرتين، ذلك أن «جيمس» بدلا أن يفصل الأنبوبة عن الكرة، فتعود تامة التكور، أبقى الأنبوبة واكتفى بأن لحم نهايتها، فقلت :

– هل اتخذت طريقة جديدة. . إنني لا أحبها. . إنك بذلك تزيل كل ما لفقاقيع الصابون من جمال.

– إنك لا تدري ما سأفعل. . وسترى أنني محق في هذا العمل، بل إني لا أعتقد أنك، أنت الذي تشكو دائما احتمال وجود القسوة في حبس روح منعزلة عن غيرها، ستكون مسرورا مني.

- ماذا تعني ؟

- إن الأمر في غاية البساطة. . هب أنني أصل الأنبوبتين بعضهما ببعض، وأجعل الكرتين بحيث تكون إحداهما فوق الأخرى، فماذا يحدث ؟

- لست أدري. . وإنما يرجح أن يمتزج السيلان ويشغلا الفراغ كله.

- ذلك ما يخيل إلي أيضا، وحينئذ لا تكون هناك روح وحيدة منعزلة، بل روحان أصبح اتحادهما وألفتهما بحالة لا تبيح العلاقات الواقعية إدراكها. .

- ماذا بك ؟ ألا تعتقد ذلك ؟

- لست أدري، ولكن تلك الفكرة تبدو لي وحشية، بل إنه لا يمكنني أن أتصور أنك أجلتها بذهنك. .

كيف ؟ أتتخذ محض المصادفة هاديا لك في اختيار كائنين ليس بينهما سابق معرفة، بل ربما ينشأ بينهما كره وبغض، ثم تفرض عليهما نوعا من الإمتزاج والخلطة القوية التي تصل إلى ما لا يمكن تصوره أو تخليه ؟. . وكل هذا لا لعلة، وإنما لمحض حب الإستطلاع. . على أن ذلك ليس لحب الإستطلاع، فماذا ستعلم من نتيجة محاولتك؟. .

لا شيء، ذلك أنه على فرض أننا بصدد كائنات حساسة شاعرة، فإنك عاجز كل العجز عن الإتصال بها.

كان «جيمس» ينظر إلي في رزانة يشوبها الحزن ثم قال :

إنك بالغت في ظلمي. . إنك تعلم أنني لست رجلا شريرا. . كلا. . لقد ذقت الآلام عن كثب، وشعرت بمرارتها، فلن أكون سببا لإثارتها عند الآخرين، وإذا كان الآخرون يلومونني على هذه التجارب، فليس من المستحيل أن ننتحل لهم العذر، ولكن إذا أتى هذا اللوم منك. . كان ينبغي أن تفهم منذ عهد بعيد أنني ما كنت لأشتغل بهذه الأشياء الخطرة لو لم يكن عندي الأمل في أنها ستنال السبيل إلى مجهولات لا يحصيها العد. . . أحسن بي الظن إني أعدك بعدم الإستمرار في هذه الأبحاث بمجرد عثوري على ما أنا بصدد البحث عنه.

- كلا يا «جيمس»، إني أرجوك رجاء حارا أن تدع الأمور على ما هي عليه. . أعدل عن هذا. . سأنبئك بأمر كان يجب أن أخفيه عنك. إني أؤكد لك أنه إذا لم تنصرف عن اتباع هذه السبيل الخطرة من نفسك فسيجبرك الآخرون على تركها، فأجاب بسرعة :

- إني لا أواطئك على ذلك. . ووداعا.

خرجت، وما أن وصلت إلى الشارع حتى أسفت على ما قلت.

تلقيت في صباح الغد بالفندق الرسالة التالية «صديقي العزيز، أرجو ألا تدع العناد يستولي عليك، فإني أربأ بك وبنفسي عن ذلك، ولقد حررت من توليتهم بعنادك، فاحضر لأنك الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أتحدث إليه عن تجاربي، وأنا في حاجة إلى الحديث عنها، على أنك تتأجج شوقا إلى معرفة ما حدث». صديقك «هـ. بـ. جيمس».

وما أن قرأت الرسالة حتى قفزت في سيارة صارخا في وجه السائق : «مستشفى سان برنابيه» وحينما وصلت أنبأني البواب الذي أصبح صديقا لي، عن موضع «جيمس» الذي كان قد دعي منذ قليل إلى أحد الأواوين، فصعدت ولمحت من بعد وجهه الحزين يضيء حينما رآني، ثم أقبل نحوي وأخذ بدراعي في مودة قائلا في صوت خافت :

ليسترح بالك، فقد كسرت الكرتين، غير أنني أسفت لغيابك، وسأشرح لك السبب بعد قليل. . إنتظرني هنيهة. ثم مضى خلف حجاب أقاموه حول سرير ليكشف على امرأة مريضة، فمكثت أنتظر، وما أن مضت بعض دقائق حتى أتى وقادني إلى السطح المطل على النهر.

- وإذن يا «جيمس» أأدت التجربة إلى لا شيء ؟

- لا شيء ؟ كلا. . ولكنها أدت إلى نتيجة غريبة جدا غير أنها محزنة.

- محزنة ؟ إنك لتبعث في نفسي الرعب، ماذا حدث ؟

- ليس في الأمر خطورة. . ألم نعتقد كلانا أن سيال الكرتين سيشغل كل المكان ؟ لقد تبينت أن هذا خطأ، فإنني حينما عرضت الكرتين الملتحمتين ببعضهما للأشعة لم يضيء منهما إلا واحدة هذ التي وضعت إلى أعلى.

- إن هذا غريب. . فكيف تعلله ؟

- إني لا أعلل شيئا يا صديقي. . إني لا أعلل قط شيئا، وإنما ألاحظ. . إذا اجتمع سيال الكرتين في الكرة العليا. . حسن. . والآن قل لي. . أتعتقد أن ضوء هذه الكرة ازداد عن المعتاد لمعانا أم نقص ؟

- ازداد طبعا إذ أنه اجتمع. .

- كلا يا عزيزي وهذا هو الحزن. . بل لقد كاد الضوء أن ينعدم. . ماذا تعني تلك الظاهرة من معنى عميق لا ندركه؟ وعلى أية حقيقة عاطفية أو روحية تدل ؟. .

من المحتمل أن يجهل كلانا ذلك إلى الأبد. . ولكنني، أمام هذا النور الكابي الذي يوشك أن يكون رصاصيا، وهذه التيارات التي أصابها الضعف وأصبحت بطيئة، فكرت في ثورة ضميرك، وشعرت بعدالتها شعورا لم أكن أجده فيما مضى. . وقلت لنفسي : أن احتمال كوني السبب في تعذيب كائنين ـ مهما يكن هذا الإحتمال ضعيفا جدا بحيث لا يكاد يبلغ واحدا في المليون ـ يكفي لأن يكون باعثا على إطلاق الحرية لهما. . ويمكنك أن تتخيل الفترة الغريبة المؤلمة التي قضيتها نهبا لهذا التفكير، والتي أخذت أبديء فيها وأعيد جملة صاحبنا «هملت» «الموت نوم فحسب» وقلت لنفسي : «إنه بعد هذه الحياة التي ترهق الإنسان بالتعب، يكون من القسوة ألا ينعم الشخص بالنوم والراحة». . وأخيرا أخذت قدوما كسّرت به الأنبوبة، ثم غيرت وضع الكرة.

– وهل أصبحت فارغة ؟ بالطبع.

– آه، أخيرا فعلت. . إنني سعيد بهذا، وسأكون أكثر سعادة لو وعدتني بأن تقف عند هذا الحد.

وبما أنك وصلت في هذه الأبحاث إلى نقطة مهمة، وبما أن أبحاثك أصبحت واضحة المعالم محدودة، فإني لا أرى لك بعد ذلك إلا أن تسلك سبيلا من اثنين فإما أن تذيع هذه الأبحاث وأن تجربها من جديد بمشهد من العلماء، وإما أن تعدل عنها لئلا تضيع بدون جدوى منصبك وأصدقاءك.

أما فيما يخصني فإني ـ على أي وجه ـ سأفارقك آسافا. . ذلك أن أعمالي تقترب من نهايتها، ولا يمكنني أن أمضي حياتي بإنجلترا. سأغادر إنجلترا بعد خمسة عشر يوما، وأستطيع أن أذكر لك أنني أغادرها مطمئن النفس لو أقسمت. .

– لا تكن عاطفيا يا عزيزي. . فأنا أعلم أنك بعد أن تقضي بفرنسا خمسة عشر يوما ستنساني نسيانا مطلقا. .

ولكنك على حق في رأيك بأنه من العبث الإستمرار في إجراء تجارب متشابهة مادمت لا أريد ـ مهما كان الثمن ـ أن أذيعها. . لم يعد في عزمي إذن إجراء تجارب. . أو إذا أردت التحديد، لم يعد في عزمي غير إجراء تجربة واحدة. . إذا سمحت بها الظروف، فإذا لم أوفق فيها فكل ما قمت به يصبح حلما مفجعا.

– وستطلق لـ «وليم سلاتر» الحرية.

- بل تحرره أنت بنفسك هذا المساء.

في المساء كسرت الكرة رقم «1» غير أنني قبل كسرها احتفظت بها طويلا بين يدي، هل سأضع حدا ـ بكسري هذه الكرة ـ لحياة «وليم سلاتر» الثانية القصيرة ؟ لم يكن هناك من سبيل إلى معرفة الحقيقة، ولذلك كان أسلم طريق هو ترك الأمور تجري في مجراها الطبيعي، فتركت الكرة تقع على جسم صلب وخيل إلي أنه امتزج بصوت انكسار الزجاج صوت يشبه النوس ضعيف بالغ الضعف يلوح كأنه بعيد بالغ البعد، ومع ذلك فقد كان مسموعا.

استطعت أن أؤكد للدكتور «دجبي» ـ «الذي أوصاه سابقا وحذره من تجارب جيمس» ـ حينما قابلته، أن «جيمس» عدل عن الأبحاث التي كانت مصدر فزع عند أولياء الأمر في المستشفى، ولكن «دجبي» لم يكن يجهل ذلك، وما من شك في أن طريقه إلى المعرفة كان «جريحوري»، فأجاب :

- إني سعيد بنبئك هذا، فما كان في استطاعتنا أن ننقذه فترة أطول من ذلك.

لم أشأ أقول له أن «جيمس» استثنى ـ حينما وعد بالعدول ـ تجربة واحدة يجربها إذا أتاحت له الظروف إجراءها، وكنت أكاد أوقن بأن صديقي عندما استثنى تلك التجربة كانت عنده فكرة توفيقه فيما حاول من المزج بين روحين أو ـ على حد تعبيره ـ بين طيفين سيالين خيب ـ في حرارة ـ أمله، ولكن شعوره بصدد ذلك ليس شعور عالم أخفق في تحقيق فرضه. فـ «جيمس» عاطفي، والعاطفة تقوده في ذلك، هي شعور حاد عميق موجع بأثر فرقة الموت الأبدية في بني الإنسان، وكثيرا ما حدثني عن الكلمات التي يتمنى الإنسان من أعماق قلبه أن لو كان قد قالها، والتي لم يعد يمكنه أن يقولها إلا لجثة هامدة، ولذلك كان من الطبيعي أن يجذبه ويصل إلى شغاف قلبه احتمال إمكان الوصول إلى عشرة أكثر دواما وأطول زمنا.

إنه بدلا من أن يرى القوة الحيوية تزداد باجتماع روحين في عالم أطيافه الغريب كما كان يأمل ويرجو رأى أنها على العكس، تكاد تطفئ إحداهما الأخرى، ومع ذلك فإن جذوة أمله لم تخب، ذلك أنه بدون شك فكر في أن الإخفاق أتى من أن الكائنين اللذين قرب بينهما لم يخلقا ليمتزجا، وقدر أنه حينما يمتزج كائنان بينهما انسجاما كاملا فإن نتيجة ذلك تكون حالة أرقى مما لو بقي كل منهما منفردا، لقد قلت أن «جيمس» يخفي تحت مظهره الساخر كائنا عاطفيا يؤمن بالصداقة والحب، فالتجربة الوحيدة التي استثناها إذن هي أنه لو أتاحت له الظروف أن يشهد احتضار كائنين كانا في الحياة الواقعية مثالا للإنسجام والتناسق فإنه يحاول أن يجمع بينهما أيضا بعد الموت. سنقول أن هذا الظرف بعيد وقوعه، ولكنني لا أرى ذلك،

فالواقع أننا نجهل ما في الحياة من آلام ومن جمال ما دمنا لم نختلط بحياة مدنية كبيرة كاختلاط رجل البوليس أو الطبيب، لقد شاهدت أثناء صلتي بالمستشفى طول شهرين كاملين حالات شديدة الغرابة، فلم أعد استبعد شيئا، ولكن إقامتي بلندن انتهت تقريبا، ووفر في نفسي أنني سوف لا أشاهد هذه التجربة الأخيرة للدكتور «جيمس» لو سمحت له الظروف بإجرائها، وفي أثناء الخمسة عشر يوما الأخيرة لم أره غير مرة واحدة، ذلك أنني كنت استنفذ كل وقتي تقريبا في العمل، ثم أنني تقابلت في السفارة بصديق فرنسي كان يقوم فيها بعمل السكرتير، وكثيرا ما أمضينا معا ساعات المساء لم أذهب إلى مستشفى «سان برنابيه» إلا في عشية سفري، فقد اتصلت بالمستشفى تليفونيا لأسأل «جيمس» عما إذا كان يمكن مقابلته، فطلب إليّ ـ عند طريق بواب المستشفى ـ الحضور لمقابلته في حجرته حوالي الساعة التاسعة مساءا، لم يكن «جيمس» في غرفته عند دخولي، فتناولت كتابا وجلست، غير أن الإنتظار طال بي فكشفت لأقتل الوقت، الستار التي تحجب «الأطياف» على أمل أن أرى «جيمس» قد حررها، حتى إذا لم يكن قد فعل طلبت منه الإذن في أن أقوم أنا بنفسي بذلك قبل السفر.

كانت «فقاقيع الصابون» في مكانها العادي، غير أنني دهشت عندما رأيت كرة جديدة تحمل رقم «10» و «11» مجرد عن الإسم، ففهمت توا أن «جيمس» قام بعملية المزج التي صدمتني في شعوري، وأحسست بأنني عليه حانق. . «10» و «11» بدون اسم من كانا هذين المسكنين ؟ واستولى على نفسي قلق مبهم لا يمكنني تحديده في دقة. . لم تأخر «جيمس» ؟ إنه أعطاني موعدا محددا وهذا التأخير الطويل ليس من عادته، أخذت أدير الكرة المجهولة بين يدي، وبينما أنا كذلك إذا بيدين توضعان على كتفي و«جيمس» يقول مرحبا «مسكين أنت يا «يوريك»». . فأدرت وجهي نحوه، ولشد ما كانت دهشتي من التحول الذي شاهدته على قسمات وجهه، إني لم أر في حياتي مطلقا كائنا إنسانيا يتحول هكذا من حالة إلى حالة أخرى في قليل من الأيام، فقسمات وجهه التي هي عادة متغضنة جافة يلوح عليها الآن الهدوء والطلاقة، ولم تعد إبتسامته إبتسامة سخرية بل إبتسامة بشاشة.

– ماذا حدث لك يا «جيمس» ؟

ـ حدث لي ! لا شيء. . ولم هذا السؤال ؟

– يلوح لي أنك منغمس في تيار من السعادة. .

– آه. أيرى هذا ؟. . إنني حقيقة سعيد، وسأريك السبب. . هل لك يا صديقي العزيز أن تضع الكرة التي بين يديك، والتي تتأملها بوجه عبوس فوق المدفأ. . حسن. . ساعدني الآن على إخراج الآلة من ركن الغرفة هذا. . شكرا. . إلى الشمال قليلا. . أطفئ النور الآن.

وما أن أطفأت النور حتى بدت عني صرخة كان الباعث عليها ما رأيت على المدفأة من ضوء لطيف يشع عن تلك الكرة الزجاجية. هذا الضوء لا يمكن تشبيهه إلا بالبدر في ليلة من ليالي الشرق أو من ليالي اليونان أثناء الصيف، حيث السماء صافية والبدر في أوج لألأته، وثنايا هذا التألق يتحرك تياران أشد إضاءة وأكثر لمعانا، ويتحرك بتحركهما مجموعة من النجوم الماسة المتوهجة.

– يا للعجب الساحر !. . إنها لمعجزة أن تصل إلى مثل ذلك يا دكتور. . تركني الدكتور فترة أشاهد هذا المنظر الباهر، ثم أضاء الحجرة وقص عليّ ما يأتي : في ملعب مجاور للمستشفى، يقوم منذ خمسة عشر يوما شخصان بعرض ألعاب بهلوانية يرقصان فيها عن الحبل لم ير «جيمس» هذه الألعاب، غير أن «دجبي» رآها، ووصفها لـ«جيمس» وحدثني عنها فيما بعد، وكان يرى أنها منظر نادر في نوعه لا يكاد الإنسان يصدق ما شاهده فيه من مهارة وحذق بالعين، وكان اللاعبان «ندوفرد هنلي»، أخوين شقيقين وسيمين يتشابهان إلي درجة غي مألوفة، وقبل أن يبدأ في العمل يغطى الملعب بستار من القطيفة السوداء يظهر فوقها ـ أثناء قيامهما المذهل ـ جسمان شاحبان، تضيئهما أنوار كشافة، هما جسما الأخوين «هنلي».

كان نجاح الأخوين كبيرا جدا حتى أن إدارة الملعب طلبت إليهما مدّ التعاقد أسبوعا آخر، فماذا حدث أول ليلة من هذا التعاقد الجديد ؟ لا ندري، والبوليس الآن بسبيل البحث، ومهما يكن السبب فإن أحد الأسلاك الحديدية المتصلة بالحبال انقطع فسقط الأخوان، وكانا على ارتفاع كبير، وأصابتهما رضوض خطيرة. وما لبثا ـ بعد أن نقلا إلى المستشفى ـ أن مات أحدهما وتبعه الآخر بعد عدة دقائق.

وقال لي «جيمس» أُتي بهما إلى المستشفى إذن، ورافقهما أصدقاؤهما الذين حدثوني عن اتحادهما الوثيق، وعن قوة العاطفة التي أَلَّفت بين قلبيهما، وعن عملهما المشترك فلم يمكنني ـ أمام هذه الفرصة النادرة ـ أن أكبت رغبتي في القيام بآخر تجربة أريد إجراءها، وكنت قد حدثتك عنها، إطمئن. . فما كان لـ «جريحوري» من الأمر شيء، إذ أني لم أستعن في عملي هذا إلا بعامل يشتغل في المعمل لم يفهم في الموضوع شيئا. . وعدت إلي حجرتي الساعة الثالثة صباحا، فجمعت هذين الطيفين ببعضهما، وجلست أشاهد المنظر الباهر الذي أعجبت به الآن. . أتنصحني الآن بكسر هذه الكرة ؟. .

– كلا يا عزيزي الدكتور، فإني وإن كنت لا أعلم ما حدث في داخل هذه الكرة غير أني أستبعد ألا يكون كل هذا الجمال دليلا على السعادة الحقة. ورغم رغبتي القوية في المكث فقد اضطررت ـ بسبب التأخير الكثير ـ أن أشرح أنني جئت لأودعه قبل سفري. فقال :

- هذا صحيح. . إذن وداعا. . هل يا ترى ستلاقى ؟ إن الحياة حينما تفرق فإنها تفرق بقسوة. ومهما يكن الأمر، فإني شاكر لك هذه الأشهر التي كنت لي فيها صديقا مخلصا أمينا على السر. . ولهذا الإخلاص المصطفى، ولهذه الأمانة البالغة على ما استودعتك من سر، أرجوك أن تقدم لي خدمة أخرى. . لم يَؤُن أوانها بعد. . وربما لا يحين موعدها قط، غير أنه من المحتمل أن أحتاج إلى عونك يوما ما، أما المكان الذي سأكون فيه فلا علم لي به، ولكني سأرسل إليك برقية، وأرجوك أن تحضر مهما كان عملك حينئذ، وأن تتخذ أسرع طريق لتكون بجانبي. . إنك تعرفني حق المعرفة، وتعلم أنني حينما أطلب إليك أمرا غريبا كهذا فما ذلك إلا لأسباب خطيرة. . وإني أتعهد ألا أدعوك إلا مرة واحدة طول حياتك، ولكني ـ لذلك ـ أطلب منك العهد والميثاق بالوفاء.

فقلت متأثرا بحديثه الخارج من أعماق قلبه :

- لك عهدي وميثاقي، فأجاب :

- كتب الله لك التوفيق في حلك وترحالك.

ورافقني حتى وصلنا إلى الباب، كان المساء جميلا، غير أن القمر وسط الكواكب أقل ازدهارا من روحين كانا يضيئان منذ لحظة فوق المدفأة».

ويحكي الكاتب أنه توصل ببرقية منه، غير أن حضوره كان متأخرا لالتزاماته، وما أن وصل حتى وجد في بيته الجديد خادما كان صحبته أيام الحرب، ويعرفه الكاتب أيضا :

- نهارك سعيد يا «بيجز»، ها أنت ذا من جديد تعمل مع الدكتور ؟

- نهارك سعيد يا سيدي. . إنني وزوجتي هنا مع الدكتور «جيمس» والسيدة حرمه، غير أنني شديد الأسف الآن إذ أخبرك بأن الدكتور مات، ألم تتلق برقيتي الثانية ؟

- كلا. . مات ؟. . «جيمس» ؟. . منذ متى ؟. . لقد وصلني تلغراف منه منذ أربعة أيام. .

- إنه كان قد مات يا سيدي. . تفضل بالدخول، ثم حمل حقيبتي إلى المنزل وقدّم إليّ مقعدا في الحديقة وقص عليّ ما يأتي :

- إنك لتعلم يا سيدي أن زوجة الدكتور «جيمس» كانت مريضة جدا، وقد أجريت لها عملية جراحية قبل موت أبيها بقليل. . ولم تكن في صحة جيدة حينما تزوجت الدكتور، بل كان يرى على وجهها علامات الموت، وما من شك في أن الدكتور كان يرى ذلك ويعلمه. .

لقد قلت دائما أن الدكتور قديس، وأنه لم يتزوج الآنسة «أديث» إلا ليتمكن بسهولة من إحاطتها برعايته وعنايته، وحينما عرض عليّ الدخول في خدمته ومرافقتهما إلى فرنسا قلت لزوجتي : «ليس هذا مكان دائم، ولكن يجب أن نقبل. . » لم نأسف قط على قبولنا يا سيدي، فما كان في العالم خير من الدكتور وزوجته، وقد كانا يحبان بعضهما حبا شديدا. . وما رأيت في حياتي قوما مثلهما سعداء مع قلة المورد، وكانا ـ عندما يكون الجو جميلا في أثناء النهار ـ يذهبان معا للجلوس على شاطئ النهر، أما في المساء فإن الدكتور يقرأ بجانبها بصوت مسموع. . وهكذا أمضت السيدة حرم «جيمس» الشهرين الأولين وهي متمتعة بالصحة النسبية، ثم أخذت منذ منتصف ديسمبر في الشحوب، والتزمت شيئا فشيئا الصمت وما كان الإنسان ليخفى عليه إذ ذاك أنها في نهاية أيامها، وإنه لمن حسن الحظ أن الدكتور استمر حتى آخر ساعاتها يدخل في روعها الأمل في الشفاء.

كان يقول لها أنه سيعالجها بعلاج جديد اخترعه. . وكان يحضر من أجل ذلك. في حجرة من المنزل، أجهزة غريبة، فهذا ناقوس زجاجي كبير الحجم يرفعه الإنسان ويخفضه بالضغط على قطعة مستطيلة من الحديد، وتلك كرات زجاجية، وثم آلة مغطاة بقماش أسود. . وكان يسمي الدكتور هذه الحجرة معمله. . ولم يكن يباح لي ولا لزوجتي الدخول فيها قط. . ومع ذلك فلم أر الدكتور يتنفع قط بهذه الآلات إلا. . عفوا إني قد نسيت أن أقول لك أهم شيء في الموضوع. . منذ خمسة أيام أصاب زوجة الدكتور إغماء فمكثت فاقدة شعورها فترة طويلة، كان الدكتور وزوجتي كلاهما يسهران بجانبها ـ وحوالي الساعة الواحدة صباحا أشار الدكتور على زوجتي بأن تذهب لتنام، وأنه سيدعوها إذا كان بحاجة إليها، ولكنه لم يدعها. فلما استيقظت حوالي الساعة الثامنة صباحا ذهبت إلى حجرة المريضة. . فدهشت، إذ لم تجد السيدة على سريرها ولم تر للدكتور أثرا، وكان على المنضدة الصغيرة خطاب باسمي. . فأتت زوجتي تعدو فزعة هلعة وبيدها الخطاب الذي خطه الدكتور المسكين. . قرأت هذا الخطاب وهاكه فاقرأه بدورك.

أخرج «بيجز» من جيبه خطابين قدم لي واحدا منهما فقرأت : «قم بكل دقة بما أقول لك مهما تراءى أنه غريب مدهش. . إن زوجة «جيمس» ماتت اليوم صباحا ولا رغبة لي في البقاء بعدها، وجثمانها في الحجرة التي كنت أدعوها المعمل، لا تدخلها ولا تمس شيئا منها، أرسل التلغراف الذي تجده في هذا الظرف، إنه موجه إلى الضابط الفرنسي الذي كان معنا في «إيبر»، فإنه يحضر مباشرة ويقوم بكل ما يلزم. لا تشغل نفسك بشيء، إذن. أرسل التلغراف فقط، وانظر، كل شيء سيكون على ما يرام، وداعا».

- وحينئذ يا «بيجز». . .

- إنتظر يا سيدي، كان مع هذا خطاب آخر باسمك، لأجل أن أسلمه لك عند وصولك.

وهنا شعرت أن نغمات صوته ونبرات حديثه تحمل في ثناياها شيئا من التأنيب، كان الخطاب الذي قدمه لي مقفلا ففتحته وقرأت : سأشق عليك يا صديقي، وربما حمّلتك ما لا تكاد تطيق، غير أنك عاهدتني، وما من شك في أنك ستفي بعهدك منذ أمد بعيد. ستفهم حينئذ «بل أني لا أشك في أنك قد فهمت قبل الآن» لما كنت، أثناء قيامك بلندن تتابع في تحمس بالغ هذه الأبحاث التي كنت ترى أنها طائشة، ستجد بالمنزل معملا قريب الشبه جدا من ذلك الذي كنا نستخدمه في «سان برنابيه»، و ستجد تحت الناقوس الزجاجي الذي يتوسط الغرفة جثتي وجثة زوجتي، إنك تذكر الطريقة التي بها تفصل الكرة التي بأعلى الناقوس، فاستعملها بعناية، ثم خذ الكرة والحمها وضعها أمام الآلة السوداء التي تعرفها، وأرجو أن ترى حينئذ شيئا من «أديث» ومني. لست في حاجة بعد ذلك أن أرشدك إلى ما أنتظر منك. . فإذا وجدت طيفينا المختلطين يشبهان طيفي الأخوين اللذين تتذكرهما بدون شك فإن رغبتي أن تحتفظ بالكرة، وأن تعهد بها إذا أمكنك إلى أنجالك وأحفادك. إني بالطبع لا أستطيع أن آمل الإحتفاظ بمثل هذه الكرة مدة طويلة، فهي قابلة للكسر بسهولة، غير أنني لم أسعد في هذه الدنيا بحبي لـ «أديث» المسكينة إلا قليلا جدا، فإذا نلت بفضلك السعادة، بضع سنوات في عالم لا نزال نجهل أسراره، فإنك تكون قد سجلت ـ على ما أعتقد لنفسك عملا خيرا. . »

وما أن أتيت على هذه الجملة حتى قطعت القراءة وقلت في حرارة :

- رحماك يا إلهي ! لقد وصلت متأخرا جدا. . أين الدكتور وزوجته الآن ؟.

- إنهما في المقبرة يا سيدي. . ولقد انتظرت بعد إرسال التلغراف بيومين. . ثم اعترانا، أنا وزوجتي الخوف من العقاب، فبماذا نجيب حينما يطلب إلينا السبب في ترك ميتين من غير دفن. . إننا في قطر أجنبي ولا أعلم من الفرنسية إلا كلمات خطابك، فحضر طبيب وكسر الناقوس.

- كسر الناقوس، لم يبق إذن من أمل يا «بيجز». . ولكن لم كسره طالما كان من السهل رفعه كما حدثني ؟

- لست أدري يا سيدي. . إني لم أفهم ما قال. . ليس ببعيد أنه اعتقد عند دخوله حينما رأى هذين الجسمين تحت الناقوس، أنه بصدد حالة اختناق. . وحينها انتهى من المعاينة والكشف قال أن الدكتور تناول سما. . هذا هو ما اعتقدت أنني فهمته منه، ولا تنس أنني

أخبرك بأني لا أحسن الفرنسية. . ومهما يكن من الأمر، فإنني لا أتبين للآن ذلك الذي كان يديره الدكتور يا سيدي. . لنفرض أنك جئت عقب وصول التلغراف إليك مباشرة. فماذا كنت تصنع ما دام لم يكن على قيد الحياة ؟

قطعت عليه حديثه وطلبت إليه أن يقودني إلى المعمل، فقد كنت أعلل النفس بالأمل وأريد أن أقدر مساعدة الحظ وبقاء الكرة بحالها لم تمس، غير أنني للأسف وجدت الغرفة مملوءة بقطع الزجاج المتناثرة، ولم يبق من الناقوس ولا من الكرة إلا قطع صغيرة وما من شك في أن هؤلاء الذين وجدوا الجثتين لم يعنهم من الأمر إلا إنجاز مهمتهم بسرعة، ولا لوم عليهم في ذلك، وإلا فكيف كان يمكنهم التكهن بما في الكرة التي بأعلى الناقوس ؟

وتوجد أيضا يا سيدي هذه العلبة الصغيرة، وقد ألصق بها الدكتور ورقة وأمرني أن أسلمها لك، وقد أخفيتها بحجرتي عند مجيء رجال الحكومة.

– علبة ؟ وماذا تحوي ؟

– لست أدري يا سيدي.

فتحت العلبة فإذا بها كرة مثل ما كان بمستشفى «سان برنابيه» موضوعة على طبقة من الورق، فشعرت بشيء من الأمل ورفعت الكرة فرأيت عليها بطاقة أعرفها جيدا «10-11 ند وفرد هنلي».

مسكين «جيمس» أيكتب له النجاح في جعل الآخرين يبقون بعد الموت، بينما يخفق بالنسبة لنفسه، مع شدة رغبته فيما أتاحه للآخرين ؟

ذهبت إلى المقبرة أحمل أزهارا أضعها بين يدي بالعلبة التي تركها لي «جيمس»، كانت العناية التي أسديتها إلى هذه العلبة شديدة».

ويختم الأديب الفرنسي «أندريه موروا» قوله :

مكثت مدة طويلة أمنع نفسي عن التفكير في تجارب مستشفى «سان برنابيه» وخاتمة «جيمس» المحزنة، ولكني منذ شهور أشعر بالمرض، وأشعر باقترابي من الموت، ولذلك بدا لي من واجبي إذاعة قصة يضعها العقل في دائرة الخيال، ومع ذلك فهي حقيقة واقعة أتاحت لي المصادفات أن أشهدها، وهذه الإذاعة نفسها هي الطريقة الوحيدة التي أراها أهلا للإحتفاظ في عناية بالغة بالكرة التي تحتوي على طيفي «ند وفرد هنلي». انتهت. تلكم خلاصة قصة «وازن الأرواح» لخصتها من كتاب بكامله.

الباب الرابع

الروح والأثير

-XXI-

تعريف النفس البشرية ودلائلها

يقول ابن سينا «بأنها جوهر قائم بذاته، لا عرض من أعراض الجسم» و «جوهر وصورة في آن واحد، جوهر في حد ذاته، وصورة من حيث صلتها بالجسم»، هذا وما ورد في كتاب الشفاء، أما ما ورد في كتابه الإشارات فيقول : «بأن النفس جوهر روائي قائم بذاته وهو أصل القوى المدركة والمحركة والمحافظة للمزاج، هذا هو الجوهر الذي يتصرف في أجزاء البدن» ويقول مرة أخرى في كتاب الشفاء : «الجسم محتاج إلى النفس تمام الإحتياج في حين أنها لا تحتاج إليه في شيء. ولا يتعين جسم ولا يتحدد إلا إذا اتصلت به نفس خاصة، بينما النفس هي سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به، ولا يمكن أن يوجد جسم بدون النفس لأنها مصدر حياته وحركته، وعلى العكس تعيش النفس بمعزل عن الجسم، ولا أدل على هذا من أنها متى انفصلت عنه تغيّر وأصبح شبحا من الأشباح، في حين أنها بالإنفصال والصعود إلى العالم العلوي تحيا حياة كلها بهجة وسعادة. فالنفس إذن جوهر قائم بذاته».

إن استنتاجنا من هذا التعريف يبين أن اتصال النفس بالجسم هو اتصال عرضي، وباتحادها مع الجسم تقوم النفس بوظيفتين كبيرتين، ذلك أنها تسوس البدن من جهة، ومن جهة أخرى تدرك المعقولات. ففي كتاب النجاة يقول ابن سينا : «فيوجد شبه بينها وبين القوة الحيوانية النزوعية التي يحدث فيها هيئات تخص الإنسان تتهيأ بها لسرعة فعل وانفعال، مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء وما أشبه ذلك، ويوجد شبه بينها وبين القوة الحيوانية المتخلية والمتوهمة ؛ فالنفس تستعمل هذه القوة في استنباط التدابير في الأمور الكائنة والفاسدة واستنباط الصناعات الإنسانية» هذا من جهة أنها تسوس البدن، أما أنها من جهة تدرك المعقولات فيقول ابن سينا في كتاب النجاه : «ومن شأن هذه القوة أن تنطبع بالصور الكلية المجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء. وهذا يعني أنها تدل على تحرر النفس عن الجسد في إدراكها.

ومن الدليل والبرهان ما قاله ابن سينا : «في معرفة النفس الناطقة» إن الإنسان إذا كان منهمكا في أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته حتى أنه يقول : إني فعلت كذا أو فعلت كذا وفي مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه، والمعلوم بالفعل - أي النفس - غير ما هو مفعول عنه - أي البدن في هذه الحالة - فذات الإنسان - أي نفسه - مغايرة للبدن».

وهذا الدليل معتمد على حصر التفكير، أما الدليل القائل بأن النفس موحّدة لمختلف الأحوال النفسية، فقد يذكر ابن سينا في كتاب «الشفاء» وفي «الإشارات والتنبيهات» أن الأحوال النفسية تتنوع وتختلف، فمثلا نسر ونحزن ونحب ونكره وننفي ونثبت ونحلل ونركب، ونحن في كل هذا صادرون عن شخصية واحدة وقوة عظيمة تفوق بين المختلف وتوخذ المؤتلف. لو لم تكن هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطغى بعضها على بعض، وما النفس من آثارها إلى بمثابة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ؛ كلاهما يلم الشعث ويبعث على النظام والترتيب». ومن الدلائل المعتمدة على الذاكرة واستمرار الحياة الوجدانية قول ابن سينا في «رسالة في معرفة النفس الناطقة» تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجودا في جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيرا ما جرى من أحوالك. فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتا مستمرا بل هو أبدا في التحلل والإنتقاص، ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع وزنه، فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك. وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة، بل جميع عمرك. فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة». وعن الإدراك المباشر للنفس يقول ابن سينا في كتابي الشفاء والنجاة «ونقول أن القوة العقلية لو كانت تفعل بالآلة الجسدية حتى يكون فعلها الخاص إنما يتم باستعمال تلك الآلة الجسدانية لكان يجب أن لا تعقل ذاتها، وأن لا تعقل الآلة، ولا أن تعقل أنها عقلت، فإنه ليس بينها وبين ذاتها آلة - الجسم - وليس بينها وبين آلتها ولا بينها وبين أنها عقلت الآلة، لكنها تعقل ذاتها لا بآلة». أما الدليل المعتمد على الفرق بين إدراكات النفس والموثرات الشديدة على الجسم فيقول ابن سينا في كتاب الشفاء «إن المبصر ضوءا عظيما لا يبصر معه ولا عقبيه نورا ضعيفا، والسامع صوتا عظيما لا يسمع معه ولا عقبيه صوتا ضعيفا، ومن ذاق الحلاوة الشديدة لا يحس بعدها بالضعيفة ؛ والأمر في القوة العقلية بالعكس، فإن إدامتها للعقل، وقصورها للأمور الأقوى، يكسبها قوة وسهولة قبول لما بعدها مما هو أضعف منها» بعد هذا القول يأتي ابن سينا بالدليل القائل بأن التعقل غير تابع للجسم حيث يقول في كتاب الشفاء «فإن البدن تأخذ أجزاؤه كلها تضعف قواها بعد منتهى النشوء

والوقوف، وذلك دون الأربعين أو عند الأربعين، وهذه القوة ـ العاقلة ـ إنما تقوي بعد ذلك في أكثر الأمر، ولو كانت من القوى البدنية لكان يجب دائما في كل حال أن تضعف حينئذ».

وأخيرا يأتي ابن سينا بالبرهان والدليل عن الرجل الطائر أو المعلق في الفضاء، وذلك في كتاب الشفاء «يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا، لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوي في هواء أو خلا، هو يا لا يصدمه فيه قوام الهواء، صُدم ما يحوج أن يُمس، وفُرّق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماسّ، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته ؟ فلا يشك في إثباته لذاته موجودة، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه، ولا باطنا من أحشائه، ولا قلبا، ولا دماغا ولا شيئامن الأشياء من الخارج، بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقه، ولو أنه أمكنه في تلك الحالة أن يتخيل يدا أو عضوا آخر، لم يتخيله جزءا من ذاته. ولا شرطا في ذاته، وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يثبت. . . فإذن الذات التي اثبت وجودها خاصة له، على أنها هو بعينه، غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت».

وقد نعرج على قول ابن سينا في برهانه على حدوث النفس، فيبحث هذا الموضوع مخالفا قول «أفلاطون» القائل بأن النفس وجدت قبل البدن، ولإثم ارتكبته هبطت إلى البدن، فيرد على ذلك ابن سينا في كتابيه الشفاء والنجاة حيث يقول : «إن وجدت ـ النفس ـ قبل البدن، فإما أن تكون متكثرة الذوات أو تكون ذاتا واحدة» ثم يقول : «لو حصل بدنان حصل في البدنين نفسان، والنفس جوهر بسيط يدرك الكليات البسيطة» ثم انتهى إلى القول بأن «النفس تحدث كلما يحدث البدن الصالح لاستعمالها إياه، ويكون البدن الحادث مملكتها وآلتها» وبهذا يبطل ابن سينا رأي «أفلاطون» بوجود النفس قبل البدن.

إما عن روحانية النفس وخلودها، فإن ابن سينا يثبت ذلك عن طريق إدراكها للمعقولات واستنتج بأن طبيعتها تخالف البدن وكذا وظيفتها تخالف وظيفته فقال : «إنها لا تموت بموت البدن ولا تقبل الفساد أصلا، أما أنها تموت بموت البدن، فلأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعا من التعلق، وكل متعلق بشيء نوعا من التعلق فإما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ في الوجود، وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود، وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتقدم عليه في الوجود الذي هو قبله بالذات لا بالزمان»، هذا ما ورد له في كتاب النجاة. حيث ينتهي إلى أن لا تعلق للنفس في الوجود بالبدن، بل تغلقها في الوجود بالمبادئ الأخرى التي لا تستحيل ولا تبطل، وهي العقول المفارقة والنفس الفلكية، يقول : «فالنفس صادرة عن العقل الفعال واهب الصور، وهو جوهر عقلي أزلي باق، ويبقى المعلول ببقاء علته».

فابن سينا يرى النفس جوهرا منفصلا عن الجسد وهي جوهر بسيط، والبسيط لا ينحل ولا ينعدم، فالنفس إذن خالدة، مصيرها لا يتبع مصير البدن المركب القابل للإنحلال، أما فيما يتعلق ببعث الأجساد فيقول ابن سينا أنه يستحيل على العقل إثبات هذاالبعث، إذ أن النفس يمكنها أن تنعم بدون الجسد بحكم أن جوهرها روحاني، ولكن الوحي النبوي يتكلم عن البعث، فعلى المؤمن أن يعتقد به، لأن الوحي متمم للعقل.

أما عن نعيم الأنفس البشرية، فقد يقسم ابن سينا الأنفس إلى ثلاثة أقسام :

أولا : نفس كاملة في العلم والعمل، والمقصود بالعلم إدراك الفيوضات.

ثانيا : نفس كاملة في إحداهما، أي عالمة بالحقيقة غير عاملة بمقتضاها، أو ميالة إلى الخير دون أن تدرك حقيقة الفلسفة الفيضية.

ثالثا : نفس ناقصة في العلم والعمل.

ورأي ابن سينا يوافق ما ورد في كتاب الله عز وجل «وكنتم أزواجا ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة» ثم قوله عز وجل «والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم».

فأما النفوس الكاملة في العلم والعمل، فهم السابقون، وهي الدرجة القصوى في جنات النعيم. بينما النفوس الكاملة في العمل، الناقصة في العلم، هم في المرتبة الوسطى من أصحاب الميمنة، بين السابقين وأصحاب المشأمة، وهم يتصلون بنفوس الأفلاك ويتطهرون بالتدريج من دنس عالم العناصر، ويشاهدون النعيم الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فهذا الفريق على مر الزمان يلتحق بدرجة السابقين، أما النفوس الناقصة في العلم والعمل أو الكاملة في العلم لكنها ناقصة في العمل فهي من أصحاب الشمال، وهي المرتبة السفلى، منغمسون في بحر الظلمات الطبيعية.

إن الوسيلة لإدراك السعادة هي الدراسة والبحث والنظر والتأمل.

-XXII-

معرفة النفس الناطقة وأحوالها

أرى من باب تعميم الفائدة أن نعطي الموضوع حقه حتى تعم فائدته مستعرضا في ذلك النص الحرفي من قول ابن سينا الذي جعلته المرجع الأوفى في الفصل الخامس حول تعريف النفس البشرية ودلائلها.

والآن ندعه يوضح رأيه في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن فيقول : «المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد بقوله «أنا»، وقد اختلف أهل العالم في أن المشار إليه بهذا اللفظ هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره. أما الأول فقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن، وكل أحد فإنما يشير إليه بقوله «أنا» فهذا ظن فاسد لها سنبينه، والقائلون بأنه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا : فمنهم من قال أنه غير جسم ولا جسماني بل هو جوهر روحاني ماض على هذا القالب وأحياه واتخذه آلة في اكتساب المعارف والعلوم حتى يستكمل جوهره بها ويصير عارفا بربه عالما بحقائق معلوماته فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرته ويصير ملكا من ملائكته في سعادة لانهاية لها، وهذا هو مذهب الحكماء الإلاهيين والعلماد الربانيين، ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة، فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلاهية» وقد يأتي ببراهين نأخذ برهانا على سبيل المثال «تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجودا جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيرا مما جرى من أحوالك، فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتا مستمرا بل هو أبدا في التحلل والإنتقاص، ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه، فإن البدن حار رطب، والحار إذا اثر في الرطب تحلل جوهر الرطب حتى فني بكليته كما لو يوقد عليه النار دائما فإنه يتحلل إلى أن لا يبقى منه شيء، ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه، فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء

ذاتك في هذه المدة، بل جميع عمرك، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة، فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب، فإن جوهر النفس غائب عن الحواس والأوهام، فمن تحقق عنده هذا البرهان وتصوره في نفسه تصورا حقيقيا فقد أدرك ما غاب عن غيره».

ويقول ابن سينا في بقاد النفس بعد بوار البدن : «اعلم أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه، والبدن منفصل عنه تابع له، فإذن لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده، إذ البدن موجود باق بعد الموت فلأن لا يضر وجود النفس وبقاؤه كان أولى ولأن النفس من مقولة الجوهر، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها. بل بحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه، ومثاله أن من يكون مالكا لشيءمتصرفا فيه فإذا بطل ذلك لم يبطل المالك ببطلانه، ولهذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار ملقى كالميت، فالبدن النائم في حالة شبيهة بحال الموتى كما قال رسول الله عليه السلام : «النوم أخو الموت». ثم أن الإنسان في نومه يرى الأشياء ويسمعها بل يدرك الغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له في اليقظة، فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن، بل هو يضعف بمقارنة البدن ويتقوى بتعطله، فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن، فإذا كان كاملا بالعلم والحكمة والعمل الصالح انجذب إلى الأنوار الإلاهية وأنوار الملائكة والملإ الأعلى انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس وفاضت عليه السكينة وحقت له الطمأنينة فنودي من الملإ الأعلى : «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

وينتقل ابن سينا إلى مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد مفارقة البدن، فيقول : «اعلم أن النفس الإنسانية لا تخلو عن ثلاثة أقسام ؛ لأنها إما أن تكون كاملة في العلم والعمل، وإما أن تكون ناقصة فيهما، وإما أن تكون كاملة في أحدهما ناقصة في الآخر، وهذا القسم الثالث على قسمين ؛ لأنها إما أن تكون كاملة في العلم ناقصة في العمل أو بالعكس، فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأولى ثلاثة كما ورد في القرءان : «وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة» ثم قال : «والسابقون السابقون أولئك المقربون». فنقول : «أما الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون ولهم الدرجة

القصوى في جنات النعيم فيلتحقون من العوالم الثلاثة بعالم العقول ويتنزهون أن يقارنوا دون الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها، فهؤلاء هم السابقون الذين هم في المرتبة العليا، وأصحاب اليمين هم في المرتبة الوسطى يرتفعون ويشاهدون النعيم الذي خلقه الله تعالى في السموات من الحور العين وألوان الأطعمة اللذيذة وألحان الطيور التي تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها كما قال عليه السلام حكاية عن ربه : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». فهذه مرتبة المتوسطين من الناس، ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدوا للفوز بوصول الدرجة العليا فينغمسوا في اللذات الحقيقية واصلين إلى السابقين بعد انقضاء دهور تأتي عليهم، ومرتبة أصحاب الشمال، وهم النازلون في المرتبة السفلى، المنغمسون في بحور الظلمات الطبيعية، المتنكسون في قعر الأجرام العنصرية، المتحسون في دار البوار، وهم الذين دعوا هناك ثبورا «لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا». فهذا شرح أحوال الأرواح البشرية بعد المفارقة عن الأجسام والمهاجرة إلى دار الآخرة، وقد اتفق على صحتها الوحي الإلاهي والآراء الحكيمة كما شرحناه.

ويختم ابن سينا قائلا في ذكر العوالم الثلاثة التي هي عالم العقل وعالم النفس وعالم الجسم وترتيب الوجود من لدن الحق تعالى إلى أقصى مراتب الموجودات على الترتيب النازل منه تعالى، فيقول : إن أول ما خلق الله تعالى جوهر روحاني هو نور محض لا في جسم ولا في مادة، درّاك لذاته ولخالقه تعالى، هو عقل محض، وقد اتفق على صحة هذا جميع الحكماء الإلاهيين والأنبياء عليهم السلام، كما قال صلى عليه وسلم : «أول ما خلق الله تعالى العقل، ثم قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له : فبعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز منك، فيك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب» فنقول هذا العقل له ثلاثة تعقلات، أحدها أنه يعقل خالقه تعالى، والثاني أنه يعقل ذاته واجبة بالأول تعالى، والثالث أنه يعقل كونه ممكنا لذاته.

فيحصل من تعقله خالقه عقل هو أيضا جوهر عقل آخر كحصول السراج من سراج آخر، وحصلت من تعلقه ذاته واجبة بالأول نفس، هي أيضا جوهر روحاني كعقل، إلا أنه في الترتيب دونه. وحصل من تعلقه ذاته ممكنة لذاته جوهر جسماني هو الفلك الأقصى، وهو العرش بلسان الشرع. فتعلقت تلك النفس بذلك الجسم، فتلك النفس هي النفس الكلية الحركة للفلك الأقصى كما تحرك نفسنا جسمنا، وتلك الحركة شوقية بها تتحرك النفس الكلية الفلكية شوقا وعشقا إلى العقل الأول، وهو المخلوق الأول، فصار العقل الأول عقلا للفلك

الأقصى ومطا عاله، ثم حصل من العقل الثاني عقل ونفس وجسم، فالجسم هو الفلك الثاني وهو فلك الثوابت، وهو الكرسي بلسان الشرع وتعلقت النفس الثانية بهذا الفلك، وهكذا حصل من كل عقل ونفس وجسم، إلى أن ينتهي إلى العقل العاشر، ثم حصل منه العالم العنصري، والعناصر أربعة : الماء والنار والهواء والأرض، وحصلت منها المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان والإنسان الذي هو أكمل الحيوانات وهو بنفسه يشبه الملائكة، ويمكن أن يبقى بقاء السرمد إذا تشبه بها في العلم والعمل، ويصير هو أيضا أخس من البهائم والسباع إذا اتصف بأخلاقها داخل الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطا، وأما إذا تنزه عن طرفي الإفراط والتفريط في الأخلاق وتوسط بينهما فلم يكن شبعا ولا حاملا في القوة الشهوانية بل يكون عفيفا، فإن العفة توسط الشهوة، ولا يكون أيضا متهورا ولا جبانا بل يكون شجاعا، كسب القوة الغضبية، فإن الشجاعة تتوسط بين التهور والجبانة، وكذلك له حكمة في المعيشة، وهي حسن التدبير فيما بينه وبين غيره إما بحسب أهل المدينة في المعاملات وفي السياسيات إن كانت له رتبة في السياسة، وهذه الحكمة توسط في تدبير نفسه وغيره دون الجربزة والبلاهة، وهذه الحكمة التي هي العلم بالحقائق فإن تلك الحكمة كلما كانت أشد إفراطا كان أحسن، وهذه الحكمة لا ينبغي أن تكون بالإفراط وإلا لكانت جربزة، ولا بالتفريط وإلا لكانت بلاهة.

وهذه الخصال الثلاث أعني العفة والشجاعة والحكمة هي التي سميت «عدالة. . ، فالعدالة هي مجموع هذه الثلاث، فمن اتصف بها وكان أيضا حكيما بالحكمة النظرية التي هي العلم بحقائق الأشياء، فقد صار كاملا في العلم والعمل، وصار من جملة من قيل في حقهم : «السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم».

فإن قلت، فهل يمكن أن تحد الحكمة النظرية تحديدا لا يمكن أن يكون أقل منه حتى تسعد بها النفس تلك السعادة فيكون من السابقين المذكورين ؟ قلت يمكن ذلك التحديد بالتقرير فنقول : ينبغي أن يكون عالما بوجود واجب الوجود تعالى وصفات جلاله ونعوت كما له وتنزيهه من التشبيه، ويتصوّر عنايته بالمخلوقات وإحاطة عمله بالكائنات وشمول قدرته على جميع المقدرات ثم يعلم أن وجوده يبتدئ من عنده ساريا إلى الجواهر العقلية ثم إلى النفوس الروحانية الفلكية ثم إلى الأجسام العنصرية بسائطها ومركباتها من المعادن، والنبات والحيوان ثم يتصور جوهر النفس الإنسانية وأوصافها وأنها القدر من العلم مجملة ومفصلة هو القدر الذي إذا حصل للإنسان استسعد بالسعادة التي شرحنا حالها، أعني سعادة السابقين الكاملين، وبقدر ما ينتقص علمه وعمله انتقص من درجاته وقربه من الله تعالى، وأما الذين قد انحطت رتبهم

عن درجة هؤلاء الكاملين علما وعملا وهم المتوسطون فيكونون إما كاملين في العمل دون العلم أو بالعكس فهم يكونون محجوبين عن العالم العلوي مدة حتى تنفسخ عنهم تلك الهيئات الظلمانية بتلك الأعمال الردية التي كانوا يعملونها في حياتهم الدنيا، وتتقرر الهيئة النورية قليلا قليلا فيتخلصوا إلى عالم القدس والطهارة ويلتحقوا بهؤلاء السابقين. أما الكاملون في العلم دون العمل من القسمين المتوسطين وهم المتنزهون من أهل الشرائع الذين يعملون الصالحات ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويتبعون الأنبياء فيما أمروا به ونهوا عنه ولكن لا تكون لهم زيادة من حقائق العلوم ولا يعرفون أسرارها والأسرار والتنزيلات الإلاهية وتأويلاتها فهم إذا تخلصوا عن أبدانهم انجذبت نفوسهم إلى نفوس الأفلاك وعرجوا إلى السموات فشاهدوا جميع ما قيل لهم في الدنيا من أوصاف الجنة في غاية الشرف والرتبة ويلبسون فيها من سندس واستبرق وحلوا أساور من فضة متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، ولكن لا يبعد أن يفضي بهم الأمر إلى أن يرتقوا إلى العالم العقلي والصقع الإلاهي فينعموا في اللذات الحقيقية التي لا يمكن أن يشرحها بيان ولا يكشف عنها مقال ولا يوازنها حال» وإذ قد وصلنا إلى هذا المقام وكشفنا هذه الأسرار التي عميت عنها أبصار أكثر الناس وغفلوا عن أنفسهم وأحوالهم على الحقيقة، فلنكتف بهذا القدر من الإستبصار للطالبين المسترشدين، جعلنا الله وإياكم من المهتدين، إنه هو البر الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والطاهرين أجمعين.

-XXIII-

تحديد النفس وثبوتها

يقول ابن سينا في إثبات النفس وتحديدها من حيث هي نفس فيقول : إنا قد نشاهد أجساما تحس وتتحرك بالإرادة، بل نشاهد أجساما تغتذي وتنمو وتولد المثل، وليس ذلك لها لجسميتها، فيبقى أن تكون في ذواتها مبادئ لذلك غير جسميتها، والشيء الذي يصدر عنه هذه الأفعال والجملة كل ما يكون مبدأ لصدور أفاعيل ليست على وتيرة واحدة عادمة للإرادة، فإنا نسميه نفسا. وهذه اللفظة اسم لهذا الشيء، لا من حيث جوهره والمقولة التي يقع فيها من بعد. ولكنا الآن إنما أثبتنا وجود شيء هو مبدأ لما ذكرنا، وأثبتنا وجود شيء من جهة ما له عرض ما، ونحتاج أن نتوصل من هذا العرض الذي له إلى أن نحقق ذاته، لنعرف ماهيته كأنا قد عرفنا أن لشيء يتحرك محركا، ولسنا نعلم من ذلك أن ذات هذا المحرك ما هو ؟

فنقول : إذا كانت الأشياء التي نرى أن النفس موجودة لها أجساما، وإنما يتم وجودها من حيث هي نبات وحيوان بوجود هذا الشيء لها، فهذا الشيء جزء من قوامها، وأجزاء القوام كما علمت في مواضع هي قسمان : جزء يكون به الشيء هو ما هو بالفعل، وجزء يكون به الشيء هو ما هو بالقوة، وهو بمنزلة الموضوع، فإن كانت النفس من القسم الثاني، ولا شك أن البدن من ذلك القسم، فالحيوان والنبات لا يتم حيوانا ولا نباتا بالبدن ولا بالنفس، فيحتاج إلى كمال آخر هو المبدأ بالفعل، لما قلناه، فذلك هو النفس، وهو الذي كلامنا فيه، بل ينبغي أن يكون النفس هو ما به يكون النبات والحيوان بالفعل نباتا وحيوانا، فإن كان جسما أيضا، فالجسم صورته ما قلنا، وإن كان جسما بصورة ما، فلا يكون هو من حيث هو جسم ذلك المبدأ، بل يكون كونه مبدأ من جهة تلك الصورة، ويكون صدور تلك الأحوال عن تلك الصورة بذاتها، وإن كان يتوسط هذا الجسم، فيكون المبدأ الأول تلك الصورة، ويكون أول فعله بواسطة هذا الجسم، ويكون هذا الجسم جزءا من جسم الحيوان، لكنه أول جزء يتعلق به المبدأ، وليس هو جسم إلا من جملة الموضوع.

فبين أن ذات النفس ليست بجسم، بل هي جزء للحيوان والنبات، وهي صورة، أو كالصورة أو كالكمال، فنقول الآن. إن النفس يصح أن يقال لها، بالقياس إلى ما يصدر عنها من الأفعال «قوة»، وكذلك يجوز أن يقال لها، بالقياس إلى ما تقبله من الصور المحسوسة والمعقولة، على معنى آخر، «القوة». ويصح أن يقال لها أيضا، بالقياس إلى المادة التي تحلها، فيجتمع منها جوهر مادي نباتي أو حيواني : صورة. . . ويصح أن يقال لها أيضا، بالقياس إلى استكمال الجنس بها نوعا محصلا في الأنواع العالية أو السافلة، «كمال»، لأن طبيعة الجنس تكون ناقصة غير محدودة ما لم تحصلها طبيعة الفصل البسيط أو الغير البسيط منضافا إليها، فإذا انضاف إليها كمل النوع، فالفصل كمال النوع، بما هو نوع، وليس لكل نوع فصل بسيط، قد علمت هذا، بل إنما هو للأنواع المركبة الذوات من مادة ، صورة، والصورة منها هو الفصل البسيط لما هو كماله، ثم كل صورة كمال، وليس كل كمال صورة، فإن الملك كمال المدينة، والربان كمال السفينة، وليس بصورتين للمدينة والسفينة. فما كان من الكمال مفارق للذات، لم يكن للحقيقة صورة للمادة وفي المادة، فإن الصورة التي هي في المادة هي الصورة المنطبعة فيها، القائمة بها، اللهم إلا أن يصطلح، فيقال لكمال النوع صورة النوع، وبالحقيقة فإنه قد استقر الإصطلاح على أن يكون الشيء بالقياس إلى المادة، "صورة". وبالقياس إلى الجملة غاية و«كمالا»، وبالقياس إلى التحريك «مبدأ فاعليا» و «قوة محركة»، وإذا كان الأمر كذلك، فالصورة تقتضي نسبة إلى شيء بعيد من ذات الجوهر الحاصل منها وإلى شيء لا تنسب الأفاعيل إليه، وذلك الشيء هو المادة، لأنها صورة باعتبار وجودها للمادة، والكمال يقتضي نسبة إلى الشيء التام الذي عنه تصدر الأفاعيل، لأنه كمال بحسب اعتباره للنوع، فتبين من هذا أنا إذا قلنا في تعريف النفس «أنها كمال» كان أدل على معناها، وكان أيضا يتضمن جميع أنواع النفس من جميع وجوهها.

فقد عرفنا الآن معنى الإسم الذي يقع على الشيء الذي يسمى «نفسا» بإضافة له، فبالحري أن نشتغل بإدراك ماهية هذا الشيء الذي صار، بالإعتبار المقبول، «نفسا»، ويجب أن نشير في هذا الموضوع إلى إثبات وجود النفس التي لنا إثباتا على سبيل التنبيه والتذكير، إشارة سديدة الموقع عند من له المغلطات فنقول : يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة، وخلق كاملا، لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوي في هواء أو خلاء هويا لا يصدمه فيه قوام الهواء، صدم ما يحوج أن يحس، وفرق بين أعضائه، فلم تتلاق ولم تتماس، ثم تأمل أنه هل يثبت وجود ذاته، فلا يشك في إثباته لذاته موجودة، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه

ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا عمقا، ولو أنه أمكنه في تلك الحالة أن يتخيل يدا أو عضوا آخر، لم يتخيله جزءا من ذاته ولا شرطا في ذاته، وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يثبت، والمقر به غير الذي لم يثبت، والمقر غير الذي لم يقر به، فإذن الذات التي أثبت وجودها خاصة له، على أنها هو عينه، غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت وجودها خاصة له، على أنها هو بعينه، غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت، فإذن المتنبه له سبيل إلى أن يتنبه على وجود النفس شيئا غير الجسم، بل غير جسم، وإنه عارف به، مستشعر له، وإن كان ذاهلا عنه يحتاج أن يقرع عصاه.

-XXIV-

الجسم والروح

إن المشتغلين بعلم الروح يعتبرون البشر مركبا من الروح التي تفكر وتأمر، بينما الجسد مأمور لأوامر الروح، ومن المسلم أن الإنسان له بدن محسوس يأكل الخشن ويتحمل الأثقال، وفيه روح يمتزج به هو منشأ الآثار العلمية والإختراعات وخوارق العادات وما فوق الطبيعة والتي يعجز البدن عن الإتيان بها، والعلماء يعتقدون بوجود روابط وبرزح بين الجسم والروح، فوجود الرابط من اللطافة والتناسق مع الروح، ووجود الغلطة من نفس وزن الجسم، قد يكون ذلك حدا وسطا بين الطرفين المتباينين حتى يمكن الإختلاط والعمل مع الطرفين المتجانسين.

إن علماء التشريح أثبتوا أن بدن الإنسان وجد في البداية من خلية واحدة انقسمت طوال مدة نمو الجنين إلى خليتين، كل واحدة من الخليتين انقسمت إلى خليتين أخريين، حيث يستمر هذا التقسيم إلى آخر مرحلة النمو الكامل، وقد بين القرءان الكريم ذلك في قوله تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»، إن خلايا الإنسان في مجموعها الذي لا يحده حصر بشكل متداخل لا تنسى الخلية الفرعية أصلها وتعلم مسبقا وظيفتها التي عهدت إليها وتحفظها حتى خارج البدن بمواد كيماوية، وهي في حد ذاتها متفرقة كتفرق خلايا النمل غطت مسافة من الجسم، حتى إذا ما ضغطنا على بدن الجسم وجدنا الأجزاء الدقيقة من الخلايا بحجم من الإبرة، وفي نفس الوقت وجدنا بين مدار خلايا البدن مسافات كبيرة بحيث لا يحدث صدام بينها، وهذا التراكم بين الخلايا الذي تصورناه هو الواقع. لقد أثبت علماء الأنسجة أنه يوجد في البداية داخل الخلية نقاط بمجرد أن تختلط وتتعدد ببعضها تظهر في الخلية بهذه الوسيلة حفر مغطاة من السائل أقيمت فيها مجاري الدم فتجتمع الخلايا حول بعضها داخل بيضة الخلية الأصلية لتأخذ الحياة، وقد يشكل القلب بامتزاج أماكن آبار الخلايا الداخلية واختلاطها، والقلب كان بطبيعة الحال

على شكل أنبوبتين بينهما فاصل دقيق ثم اقتربا من بعضهما بالتدريج وانمحى الحاجز من بينهما وصار كلاهما واحدا وأخذا في تكوين الحفرة الداخلية للقلب، وهكذا يمكن اعتبار أماكن حفر الخلايا بداية بين عالمي الجسم والروح. وقد أثبت الإمام الغزالي أن للقلب بوابتين أحدهما على عالم الملك والثاني على الملكوت. أما من ناحية أخرى فهناك يوجد بين النفس الداخلية إعصار قوى الحياة في الخلية، وهو يأتي بالعنصر الأصلي للحياة «البرتوبلازما» بشكل يكون فيه موافقا ومعدا للظهور مع عنصر النفسانيات وسائر الحوائج المادية. وفي الباطن جاءت كل الموجودات للعالم إلى ساحة الوجود بنفس هذه الطريقة، ولكل واحدة في ذاتها مركز حسي ومركز روحي، وبناء على هذا فإن وراء كل قلب لحمي صنوبري للإنسان قلب روحاني أو المثال أو الملكوتي أو النجمي ـ للإنسان، وهذا القلب الروحاني يرسل للمحيط الروحاني دما روحانيا، وهذا الجسم الروحاني أعطى للنفس الجسمانية مكانا داخلها، وهذه النفس الجسمانية هي القسم الأسفل، وأكثر الأقسام مادية لغلاف الإنسان ؛ وقد قال أصحاب المذهب الروحاني أن أعضاء الجسم وأعصابه عبارة عن أشكال متبلورة للقوى الروحية قد اتخذت الصفات اللطيفة الروحانية دون شكل الحياة في مناطقها العالية وتمثلت فيها ـ أي كل مادة من المواد العنصرية والعضوية صورة نوعية لقوة أو جوهر معنوي روحاني يتجلى في العوالم العلوية من الأنوار العالية. فانطلاقا من هذه الفكرة ينبغي للإنسان أن يغوص داخل ذاته لكي يجد هويته الأصلية في باطنه، أما إدراكات جسمه فهي عبارة عن إدراكات كل الخلايا البدنية باستثناء القلب الذي هو مركز الإدراكات الروحية الباطنية. إن في قلب الإنسان نقطة يتأخر موتها عن سائر أعضاء البدن ـ كما وجد أصحاب الكشف ـ تحتوي على نور بنفسجي، وهذه النقطة هي المركز الكلي للحياة والتي يسميها الهنود «برهما»، وهي أول نقطة في نطفة الإنسان تقبل الحياة وتتحرك، وآخر نقطة تقف عن الحركة بعد الموت الظاهري للبدن، إن تغذية سائر البدن من القلب وتغذية القلب بواسطة ذاته، وقد قيل أن للقلب مخ مستقل خاص به يدق تحت شروط خاصة، وقد يدق حتى بعد انفصاله عن البدن، وإن إحساسات القلب وإدراكاته ـ أي ذلك النور الإلاهي الذي يمكن أن يكون مجال الفائدة في الإنسان ـ والذي صار سلفا متناسقا مع الروح النورانية الخالدة، أي الروح القدس والعقل الفعال، وهو أوصل النفس الناطقة إلى كمالها ورتبتها المطمئنة، وهذا ما يستدل به على قول الله عز وجل : «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية»، وإن مما يساعد القلب الصنوبري ويساعده ويحميه ويوقظ فيه المادة الترابية اللون الموجودة في مركز الإدراكات النفسية والحسية هو التنفس الذي يحمل الأرضية ممهدة من

أجل تشغيل لطائف الطبيعة وفعالية القلب. أما الدم الذي تشبع بالأكسجين والمادة الترابية الباردة التي ربيت هي الأخرى يقسمان على كل البدن ويتولد من نفس ذلك، النوع الترابي ؛ ونتيجة لذلك يوجد التموج الفكري في البدن بالتدريج ويصل إليه. كما أن الخلايا السابقة الذكر جعلت أجهزة متنوعة في آلة البدن، ومنها الجهازان العصبيان ولهما نشاط في كل البدن، أولهما الجهاز المركزي أو المخي أو النخاعي الذي هو وجود الشعور والفهم والإرادة، ويسيطر على العضلات، والثاني الجهاز السبمثاوي التلقائي الفعل بلا شعور وهو حاكم على الأحشاء ؛ وهذا الجهاز الثاني مرتبط بالأول، وبمساعدتهما معا يقوم البدن المعقد المتداخل في هذا الإنسان بأعماله ووظائفه من خير وشر في هذه الدنيا، والأعصاب الحسية للبدن عاملة من البشرة وأعضاء الحس، وبهذه الوسائل والوسائط يكون المخ ذا ارتباط دائم بالعلم الكبير. أما السلاسل العصبية الذي لا حصر لها، والتي تمثل شبكة تحيط بالجسد، فإنها تتخذ مكانا من الخلايا الموجودة في الجهاز العصبي المركزي، ويستمد من العقد السمبثاوية المزدوجة ومن الوحدات الصغيرة المعقدة والموزعة على البدن، والخلية العصبية ألطف خلايا البدن وأعظمها، هذا باستثناء خلية المخ وهي ألطف، وهذا الجزء من الخلايا يأخذ مكانه من قشرة المخ هرمية الشكل، ولا يزال تكوينها وأعمالها المعقدة الغامضة مثار علماء العصر، وقد طرحوا سؤالا على المخترع المعروف «توماس أديسون»، لقد سمعنا أنك تفكر في تحضير الأرواح فهل تعتقد فيها ؟ فأجاب قائلا : «لا أعتقد في أعمال محضري الأرواح، ولكني أعلم أن خلايا بدن الإنسان تتفرق بعد موته وتواصل من أجل نفسها حياة خاصة، وهذا القسم من الخلايا يمكن رؤيته بالمجهر، ولكن هناك مجموعة من الخلايا أرق وألطف تشكل شخصية الإنسان، ومسكنها المخ، وبعد موت البدن لا تتفرق بهذه السرعة التي تتفرق بها خلايا البدن، بل تبقى فترة بحالة تجمعها وتمركزها السابق وتحفظ الشخصية الحقيقية للإنسان ولا ترى حتى بالمجهر، ولذا فأنا أفكر لو أستطيع أن أخترع جهازا أو آلة متناسبين مع لطف خلايا المخ، فمن الممكن الإرتباط بشخصية الإنسان بعد الموت، والحصول على معلومات عن أحواله.

إن المراكز العصبية تشتمل على 12 مليارا من الخلايا، ولكل منها شعب متعددة بالفروع التي تحتوي عليها، وبمساعدة هذه الفروع وجد عدد لا يحصى من أنواع الإرتباط بينها، فإذا أردنا أن نحددها مثلا فقد نلاحظ أنه في كل ملليمتر من دم الإنسان خمسة ملايين كرة دموية، وهي دائما في حركة دائرية في مدارها دون انقطاع داخل شراييننا وأوردتنا ولحمنا ومخنا، وهي مستمرة التجديد بعد شهور فتتبدل كل الأعضاء والأجزاء البدنية وتذهب الخلايا المستعملة

والقديمة وتحل مكانها خلايا جديدة، وحجم الذرات فيها صغيرة جدا إلى حد أن الرياضيين المدققين قالوا بالحساب العلمي الدقيق أنه في مقدار رأس دبوس ما يقرب من ثمانية مليار مليار من جزئيات الذرة. والمثير للدهشة أن هذا البدن الإنساني مع كل التعقيدات والأجزاء المتعددة والمختلفة أن كل مجموعة من الخلايا تقوم بوظيفتها، ثم أن المجموعة الكاملة تنجز الأعمال المختلفة كعامل واحد بتعاون وتناسق تحت سلطة المخ المفروش بالخلايا العصبية، كل جزء منه له ارتباط مستقيم بأنحاء الجسم. وبكل أسف لا زالت معرفة روابط الإرادة والفعالية العصبية والنفسية للمخ مجهولة لحد الآن «فسبحان الذي بيده مكلوت كل شيء وإليه ترجعون».

وما دمنا تحدثنا عن الذرات فلا بأس أن نأخذ معلومات عليها بشيء من التفصيل.

إن جزيئات الذرات هي أشبه بحشرات متجمعة، أحيانا تتوقف وأحيانا تسير بسرعة شديدة كسهم انطلق من القوس، والمسافات بين الجزيئات ليست طويلة، ولكي ندقق أكثر فإن من حولنا حلقات كبيرة وصغيرة ذات ألوان مختلفة متداخلة ببعضها إلى حد أننا نقسمها إلى ثلاثة أقسام من الدوائر تتميز كل واحدة عن الأخرى، وهذه الأقسام الثلاثة يتركب كل منها إلى عدة دوائر، وهي الأساس في بناء الجزيئات الذرية «الأطوم»، ولما كان الماء مركبا من عنصري الأكسجين والهيدروجين، فإن أساس هاتين المادتين يبدو من هذه المجموعة الثلاثية التي على شكل دوائر، والتي تدعى «الأطوم» فإن ما في وسطها هو أطوم الأكسجين، وما في طرفيها أطوم الهيدروجين وهما يتصلان بأطوم الأكسجين الذي يعد بالنسبة لهما مركزيا، وأطوم الأكسجين المركزي نرى لمجموعته ثماني دوائر نورانية شكلت على سطحه، أما أطوم الهيدروجين اللذان يقعان في جانبي أطوم الأكسجين المركزي فلهما وجود لكن ليس من حولهما أكثر من دائرة نورانية ؛ أما الدوائر النورانية التي انخدع لها بصرنا تحت المجهر، فهي في الواقع غير ثابتة، ولكن كل منها كرة نارية صغيرة تدور حول الوجود المركزي للأطوم، ولما كانت ثماني دوائر تبدو للنظر صار معلوما أن ثماني كرات نورانية تتحرك حول الوجود المركزي، وتسمى هذه الكرة الصغيرة «بالإلكترون»، إذن لو طرحنا السؤال، من أي شيء صنع الإلكترون ؟ كان الجواب، إن الكرة الصغيرة السيارة هي مركز كهربائي صغير ليس بين أيدينا حتى الآن معلومات عن تكوينه الداخلي، وذلك لأننا لم نستطع لحد الآن أن نكبر أكثر من عشرين سنتيمترا للكرة بعد كل مرات التكبير، وعلى أقرب احتمال لو أننا قمنا بتكبيره ألف مليون مرة فإننا نصل ثانية إلى تركيب أعجب، ومنها نبقى في الطريق المسدود، وهلم جرا، وقد تبين أن الإلكترون يحتوي على قوة كهربائية سالبة ويدور بسرعة شديدة حول الوجود

المركزي، وأطوم كل جسم فيه عدد معين من الإلكترونات، وكمثال أن الأطوم المركزي الأكسجيني ثماني إلكترونات وما حوله من الأطومين الهيدروجيين ليس فيهما أكثر من إلكترون واحد.

والآن ننظر إلى بنية المركز الوجودي الأصلي للأطوم، عجبا لهذا الإلكترون الدائر الرأس والمعشوق المتلهف والدائم الطواف المليء، بالوجد والإنجذاب الناري داخل هذا المركز الوجودي الصغير المبالغ في صغره إلى حد بعيد قد يصعب إدراكه بالمجهر، ولو أدركناه بتكبيره ألف مرة فقد يبدو لنا جسم قاتم اللون خشن يدعى «بالبروتون» وهذا الوجود المركزي أو البروتون، أصغر ألف مرة من عاشقه الإلكترون الذي يدور حوله بسرعة، وفي نفس الوقت أثقل من الإلكترون بألفي مرة، والبروتون مثل الإلكترون قوة كهربائية إلا أنه موجب بينما الإلكترون سالب، وهذا البروتون هو المادة الأصلية للهيدروجين، وما دام هذا الوجود المركزي قائما فمن المحال أن ينعدم الهيدروجين، والبروتون أيضا بكل هذه السرعات لا ينعدم، إنه قوي إلى حد يفوق التصور، فلو عرض على أربعين مليون درجة حرارية أو على ثلاثمائة وخمسة وسبعين درجة تحت الصفر لخرج حيا سالما.

لقد علمنا أن أطوم الهيدروجين يتكون من وجود مركزي «بروتون» والإلكترون يدور بسرعة مدهشة حول البروتون، وكهرباء البروتون موجبة، وكهرباء الإلكترون سالبة، وما عدا هاتين الكرتين الصغيرتين لا يوجد شيء في أطوم الهيدروجين، وما تبقى فضاء لا يعلم ماهيته حتى الآن. إنه من خلال هذا العرض يتبين أن أطومي الهيدروجين والأكسجين لهما ارتباط شديد فيما بينهما لا ينفصلان، وتجدر الإشارة إلى أن البحث العلمي وقع حول أطوم الهيدروجين، وحتى الآن لم يتوصلوا إلى نتيجة ـ حسب ما أعلم ـ عن أطوم الأكسجين الواقع بين طرفي أطوم الهيدروجين، ولنضع من أطومات الأكسجين واحدة تحت المجهر القوي لنشاهد خلاف ما تصورنا أولا أنه وجود واحد، بل إنه ست عشرة وجودا صغيرا اصطفى كل بجوار الآخر كالجند تفصل بينهم مسافات، والبروتونات الست عشرة مقسمة إلي أربعة أقسام متميزة ومجزأة عن بعضها. أي أن كل قسم يحتوي على أربعة بروتونات، وهذه الأقسام متصلة ببعضها لدرجة أنها لا تريد أن تنفصل عن بعضها، وكل واحدة من الأقسام الأربعة يحتوي على إلكترونين كلاهما يدور حول كل واحدة من الأقسام.

ينبغي أن نعلم أن هذه الذرات وجزئياتها موجودة في الماء والحجارة والخشب واللحم والعظم في الإنسان وغيره، وبعبارة أوضح فإنها في كل الموجودات.

يكفي من عرضنا هذا ما اعتمد على المحسوس والعين المجردة، ولكن حقيقة الإنسان يمكن إدراكها بعين القلب، وهذه وجهة نظر أخرى لها مدرستها. والخلاصة أن ما يشكل وجود الإنسان وبعده ليس جوهره المادي ؛ لا البرتوبلازما ولا الخلايا ولا التراكيب العجيبة ولا الكربون والهيدروجين والأكسجين والأزوت، ولكنها تلك القوة الغير المادية والغير المرئية التي تهب الروح، إنها هي التي جعلت من الذرات التي لا تحصى جماعة، وفرضت النظام المدهش للجسم الحي، وهي التي تديره، ولم ير قط أن المادة والقوة قد انفصلتا عن بعضهما، فوجود كل واحد منهما يحمل في ثناياه وجود الآخر، والبدن أدنى من مرتبة الروح، وهو لا ينفصل عنها، والروح ليست منفصلة عن الكل، فإذا ما تلاشى الجسد بعد الموت فإن هذا التلاشي التدريجي الذي يجري في الحياة ويبدل باستمرار تلك الذرات المستعملة بالذرات الجديدة ويجددها، في نفس الوقت نجد أن الروح الباقية المنظمة هي مركز هذه القوة، وإن ما نراه في الظاهر يخدعنا، والحق هو مالا نراه.

إنه بجانب الذرات ذات الخصائص الكيماوية والفيزيائية الكثيرة هناك قوى غير مادية لها وجود مستقل تدعى «الروح» وقد قرر علماء الفسيولوجيا أنه ليس لقوة الثقل وجود خارجي بلا جسم ثقيل، ولا لحرارة وجود دون جسم حار، ولا لكهرباء وجود دون جسم كهربي موصل، فليس للحساسية والفكر وجود خارجي دون جسم إنسان حي ومتفكر، ولذا فإن الآثار الروحانية التي تظهر من الإنسان هي متولدات الأنسجة العصبية لمخه.

لقد قلنا أن القوة والمادة كلاهما لازم وملزوم للآخر، ولكن لكل منهما وجود مستقل ؛ وفي سياق حديثنا هذا، لا بأس أن نتعرف على مفهوم المادة أولا عند الماديين.

«إن المادة هي ما يمكن لمسه ووزنه» في حين أننا نرى في الإنسان شيئا ليس ملموسا ولا يمكن وزنه وليس مرئيا، ذلكم هو العنصر الروحاني الذي يفكر والذي يميز بين الحق والباطل، وإلى جوار النوم يرى في اليقظة أيضا عن مسافات بعيدة ويسمع ويملي إرادته على الآخرين ويعطي معلومات صحيحة عن مستقبله ومستقبل الآخرين، بل يعطي معلومات صحيحة عن مستقبل الذين لا يعلمون أنفسهم عنها شيئا، والأعجب من ذلك أنه يعطي معلومات عن حوادث سوف تحدث بعد مرور سنوات ـ أي أن خريطة هذه الحوادث لم تطرح في دنيانا بعد حتى تنعكس على مخ الناظر ثم في فكره ثم تجري على لسانه ـ وفي كل هذه الموضوعات فإن حتمية الحدوث النسبي للمواد المحسوسة الملموسة دخل أو مساعدة فيها ولا تستطيع الخلايا التي لا شعور فيها أن تتنبأ ؛ وقد ذكر «فلاماريون» كثيرا من ذلك في رسائله.

إننـا نفهـم أن العـامل الأصلي والأمر الحقيقي في كل أفكـار الإنسـان وأعماله هي روحه وقواه المعنوية، والأعـصاب والأعضء والمخ ليسـوا أكـثر من وسيلـة، نحن آلة اليد وقدرة الحق فاعلة، وإذا كان المـاديون يعتقدون أن تـولد الفكر وفيضه من المخ كيف يكون الجواب عنـدما يصل الإنسـان إلى الضعف في الشيـخوخة ويفقد قوى المخ، وجوارحه تفقد أيضا قـواها أو علـى الأقل تضعف، في حين أن كثيرا من العلماء في شيخوختهم أكثر نضجا وأكثر تجربة، وأفكارهم من أجل تربية الشباب أكثر فائدة من حالتهم فـي الشباب، ثم أن كثيرا من المرضى لديهم أمراض تمتنع في مواجهة خواص الأدواء ولا تقبل تأثيـرها، وتقاومـها وتقبل مقابل ذلك التدابير الروحية والإرادة الإنسانية والتحصن أو الدعاء فتتأثر وتشفى، ثم أن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والإلهامات ونظائر هذه الأشياء من العجائب الروحية والأسرار الباطنية الخالية من الأدوات الظاهرية والتي لا دخل لها في ظهورها، ثم أن التضحية بالـروح من أجـل أرواح الآخرين وتحقـير الشـدائد ورحـمة القلـب أو قسوته والذهاب إلى ميدان الحرب دون إجبار كلها عموما خلاف الرغبة الطبيعية ومنافية للخصائص المادية وبناء الجسد، كل هذه الأشياء أقوى دليل على استقلال الإرادة والشخصية المستقلة للروح ومغايرتها للأعمال المادية والخصائص الكيمـاوية والطبيـعية ولطبيعة المخ ؛ وعلى أي فإن الروح للجسم كمثـل السيارة لها محركها وفيـها ما يلزم من البنزين، ومع هذا لا تكون قـادرة على الحركـة بدون سائق، وعلى سبيل الغرض إن تحركت لسبب ما في غياب السائق فإن عاقبة أمرها خسرا.

إن الإنسـان في الواقع مـا هو إلا ذرة متحركة استقـر على سطح ذرة متحركة هي الأرض، ومدير هذا الجهـاز قوة قاهـرة ومحيطـة، والإنسان ـ ذلك العـالم الصغـير ـ مظـهر فيـها ؛ وبعد تفتيت هذه الذرة في عصرنا هذا، اضطر الماديون إلى الخروج من أفكارهم العابدة للمادة والغير القابلة للتغيير، رأوا بأعينهم تسلط القوة على المادة بعين مستسلمة، واعتقدوا أنه لا يعمل شيء في الكائنات إلا أمواج القوة، واختلافات الصور والألوان نتيجة لتعدد الذرات وطريقة تراكمها، والميزان الإرتعاشي الذي تفوق سرعته التصور العادي يجعل شبكة العين تنخدع، بحيث تدرك وتحس بكل موجود على شكل خاص، فعيوننا ترى الظاهر ولا تدرك الشخصية الواقعية للإنسان، وهي غافلة عن القوة والقدرة العقلية الحاكمة فيه، إن قوة الروح متعاونة مع مادة المخ، ولكن حياتها غير حياة المادة، والإرادة الخلاقة عند الإنسان وأفكاره وقدرته على الحكم بين نقطتين متضادتين وغامضتين من عروق وجلد لا دوام لهما ولا شعور عندهما، ولكنهما برهان قاطع على استقلال الروح وتسلطها على مواد البدن، والخلايا التي تكوّن شخصية الإنسان في اعتقاد البعض مجزأة وكيفية كل واحدة مستقلة.

-XXV-

الإرادة الخلاقة للروح

يمكن القول بأن الإنسان لحد الآن لم يعرف نفسه ولم يدرك حقيقة ذاته ومحور إرادته وقدرته، وبكل أسف فإن العلوم اهتمت بتحليل وتجزيء أكثر الأقسام سطحية من البناء المادي للإنسان، من غير أن تنظر إلى الشوامخ الدقيقة اللطيفة لهذا الموجود العجيب، والبنية الباطنية العظيمة، وقليل ما هم في كل مكان وزمان يسايرون عالم الباطن للإنسان.

إن الدلائل العجيبة للإنسان من خرق العادات غير قابلة للإنكار، والتي هي الآن مجال تصديق علماء الطبيعة، إن الإنسان قادر من غير أن يطلب المدد من البدن أن ينقل إرادته من قريب أو بعيد إلى مخ الغير وأن ينفذ أهدافه بقوة باطنية، أو يرى من مسافة بعيدة دون تدخل العين علاوة على التأثير في نقطتين مختلفتين. إن وسطاء التنويم المغناطيسي حينما ينوّمون يتحدثون عن موضوعات بلغات مختلفة ليست لهم أدنى معرفة بها في اليقظة. إن الروح لها قدرة وإرادة خلاقة، يقال أنه من الممكن تنمية بعض قوى المخ المجهولة بالتمارين بحيث تصير مصدرا لكل هذه الخوارق، ولكنها لن تصير دليلا على وجود نشأة روحية مستقلة، بالفعل قد يمكن تقوية الحواس الخمس عن طريق التمارين، وجعل هذه الحواس شفافة حتى يمكن إدراك ذبذبات العالم الخارجي عن المخ وأمواجه أكثر وضوحا، لكن المخ محتاج إلى وسائل من أجل مثل هذه الإدراكات، مع هذا فإن طريقة عمل الإرادة والفكر غير هذا كله، أي أن الحركات الإرتعاشية التي يوزعها المخ، ينبغي أن يكون لها سبب يدفع المخ إلى إصدار حركات ارتعاشية، وذلك السبب هو الشخصية المستقلة في أعماق المخ الروحاني في الإنسان، إن تأثيرات الروح من مسافة وتجلياتها حين الموت كلها أشبه بتأثير قوى المغناطيس في الحديد، والفرق أن الإرتباط الروحي للإنسان من نوع دقيق يفوقه، وروح الإنسان ووجوده ليسا متولدين من المادة، بل المادة نفسها من مصنوعات الروح، حيث أوجدتها لتنفيذ معنوياتها، قد لا يعقل أن تعتبر المادة الرمادية للمخ المحدود التي تهتري خلاياها بالتوالي وتسير نحو الفناء وتتبدل إلى خلايا جديدة،

قد تكون مولدة لقدرة فوق عادية وقوة محيطة بالبدن كله مؤثرة في عظمة هذا البناء. . . فهذا لا يعقل.

إن الوقائع والأحداث هي في الواقع قبل أن تأتي إلى الدنيا تكون من قبل قد ظهرت في العوالم القبلية بالنسبة لروحانية الروح، فخط سير النفس الإنسانية هو من نفس عالم اللاهوت الذي كنا نسير فيه إلى أن وصل إلى عالم الناسوت الذي هو المرحلة الدنيا الذي نلبس فيه لباس المحسوس، فتلك الحوادث الروحانية سارت هي أيضا في هذا الركب ـ أي في هذا الخط مع الإنسان على الأمواج المغناطيسية حتى وصلت الروحانية إلى المخ المادي فظهرت، ومن ثم يمكن القول أن الكاشف يرى الواقعة بعينيه الملكوتيين وهما رفيقتا سيره حتى يصل الدور إلى الرؤية بالعين والمخ الناسوتيين، وبعد ذلك تصل إلى العالم المادي والعنصري لكي ترى عين البدن نفس الواقعة مرة أخرى.

إن أهل الباطن الذين لا تغفل عيونهم الملكوتية، فإنهم يواجهون مشاهدات من هذا القبيل حتى أنهم اعتادوا عليها وأخبروا بحوادث لم تأت بعد، وجل الناس ليست لهم أحداث ملكوتية، لكنه إذا ما حدث فإنهم ينسونها، وحينما تظهر في عالم الناسوت يصابون بالحيرة والدهشة ؛ إن الإلهامات والإشراقات الروحية والتنبؤات وتوارد الأفكار وخوارق العادات ليست وليدة عمليات فيزيائية للمخ الآدمي، بل الأدهى من هذا قد يمكن بواسطة الإشراق والإلهام إدراك أسرار وحقائق مختفية عن العلوم المتداولة، إن كل واحد من أهل الباطن له نصيب من هذه المواهب الملكوتية بقدر صفائه وشرح صدره ومعرفته، والعجيب أن الفلاسفة أنفقوا وقتا طويلا حول المسائل الباطنية لكنهم لم يوفقوا في الحصول على نتيجة محققة ومسلم بها، على عكس أصحاب القلوب المستيقظي الضمير الذين حصلوا على توفيق كامل بأذهانهم القابلة للإلهام في كشف رموز المشاكل عن طريق الإشراق، لأن هذه الطبقة من العلماء المعنويين والإشراقيين يوجهون لاوعيهم إلى طريق يؤدي إلى كشف سر جديد.

إن الشخصية المجردة، تلك التي أوقفت رؤياها على العشق، ترى هذا التجرد ضروريا مر أجل عروج إلى ينبوع الوجود، وهذا التجرد لا بد له من رياضة وجهاد مع النفس، ويأس من العلاقات الدنيوية وقطع خيوطها وخداعها، ثم يجلس على ركبتي الندم عما فات في ظلمات الليل يبكي على عجزه، ويستغفر بحضور قلب يرجو هبة الرحيم الرحمان، ويتحمل مدة التزكية برغبة وشوق حتى يفهم بالتدريج قيد الشيطان ويصل إلى المقام الواقعي للتجرد، وتأخذ أدعيته صورة السير والإنجذاب حتى تقترن بالإجابة، فتنتهي إلى التوحيد، وتعيش في الواقع مع

الرحيم الرحمان، حينذاك يرى الباطني بعين القلب ما لا يراه الآخرون، ويكون صاحب قوى خلاقة لا يعلمها الماديون، ولا أدل على عظمة العالم الروحاني للإنسان واتساعه من أمثال هؤلاء الرجال الأصفياء.

إن الإنسان ذخيرة فياضة من المواد الكيماوية المختلفة التي تكوّن أنسجة البدن وسوائله، وكذلك مجموعة من الخلايا تثير الدهشة، فعلماء الفسيولوجيا أعطوا لهذا الموضوع حقه ؛ وهو أيضا مجموعة من مساعدي أعضاء القوة العاقلة، حيث أضفى المربون على هذا الموضوع الكثير من آرائهم وطرقهم ؛ علاوة على هذا فبدن الإنسان آلة مستمرة في العمل حتى لا تقف الآلات والأجهزة التي تتولد منها، ومع هذا كله لا زلنا غافلين عن حقائق الوجود، فنحن الآن لا زلنا نجهل الفسيولوجيا الحقيقية للخلايا المخية وكيفية ارتباط الأعمال النفسية مع خلايا المخ، ولا زلنا لا نعلم إلى أي مدى تستطيع الإرادة أن تسيطر على الجسد، وكيف تؤثر حالات الأعضاء على معنويات الإنسان، وإلى أي مدى تكون أهمية الفعاليات الفكرية والأخلاقية والجسمانية والعرفانية في حياتنا.

وعلى أي ـ فإن النفس كما وصفها سيدنا علي كرم الله وجهه حينما سأله أحدهم قائلا «أريد أن تعرفني بنفسي «فقال له : «أي نفس تريد أن أعرفك ؟» فقال : هل النفس إلا واحدة؟ فقال كرم الله وجهه : «بل إنما هي أربعة، أولها النفس النامية، ثم النفس الحية الحيوانية، ثم النفس الناطقة القدسية، ثم النفس الكلية الإلهية ولكل واحدة من هذه النفوس الأربعة خمس قوى وخاصيتان، أما قوى النفس النامية فهي الجذب والقبض، والهضم والرفع والتربية، وخاصيتاها الكثرة والقلة، وتنبعث من الكبد. أما النفس الحسية الحيوانية. فهي البصر والسمع والذوق والشم واللمس، وخصيتاها الشهوة والغضب وتنبعث من القلب. أما قوى النفس الناطقة القدسية فهي الفكر والذكر والعلم والحلم والنباهة وخاصيتاها الحكمة والنزاهة، وليس لهذه النفس مركز في البدن أو مكان تنبعث منه، وهي أشبه الموجودات بالملائكة، أما قوى النفس الكلية الإلاهية فهي البقاء في البقاء، والصبر في البلاء، والعز في الذل، والنعيم في الشقاء، والغنى في الفقر، وخاصيتاها التسليم والرضا، ومبدأ هذه النفس ومصدرها الله تعالى مصداقا لقوله تعالى «ونفخت فيه من روحي» وعودتها إلى الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى : «يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

-XXVI-

مراتب الروح وتعدادها

قد سبق أن أشرنا إلى أن الأرواح أصناف ثلاثة كما هو في قوله عز وجل «وكنتم أزواجا ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم» فالسابقون هم الرسل وخاصة الله من خلقه، وفي الرسل وخاصة الخلق توجد خمسة أرواح هي بالترتيب التالي : الروح القدسية، وروح الإيمان، وروح القوة، وروح الشهوة، ثم الروح العادية وهي تقوم بالعمل في كل شخص. وفي المؤمنين أصحاب الميمنة توجد أولا روح الإيمان ثم روح الشهوة ثم الروح العادية.

والأصناف الثلاثة للخلق رتبت على بنية الإنسان، ولم تخلق فقط من جسم مادي وروح غير مادية، ولكن بين هذين العنصرين المتباينين من طرف داني غليظ وطرف آخر عالي لطيف، عناصر أخرى بين المنزلتين ليست مادة ولا روحا - أي عناصر متجانسة الطرفين - برزخية بين طرفين متباينين، وجدت من مواد سيالة على شكل بخار أو سحاب رقيق، فوجود برزخ بين كل الموجودات غير المتجانسة ضروري وحتمي وإلا فإن شيئين مختلفين لن يصيرا مأنوسين ومتعاونين ومتناسقين مع بعضهما.

وقد قالوا أنه يوجد بعد بدن الإنسان عدة أرواح أخرى قسموها إلى سبع درجات : الجسم الظاهري، القوى الحياتية، الروح الفلكية، الروح الحيوانية، الروح الإنسانية، الروح القدسية، الروح الإلاهية. والإمام الغزالي يرى أن القوة الباطنية عبارة عن الروح الحيوانية، والروح الحياتية التي تحفظ واردات الحس، والروح العقلية الخاصة بالإنسان وتدرك المعاني العالية من حوزة الحسن والخيال، والروح الفكرية التي تستوعب العلوم العقلية، والروح القدسية الخاصة بالأنبياء والأولياء، ولتجزئة القوى الباطنية وتحليلها فإن النفس البشرية لها سبع مراتب ؛ الأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية، وفوقها جميعا النفس القدسية. والعرفاء الإسلاميون يعتبرون القلب أيضا له سبعة أطوار، الأول الصدر «أفمن شرح الله صدره للإسلام»، والثاني مركز لمعان النور العقلي والإيمان «كتب في قلوبهم الإيمان» والثالث الشغّاف وهو موضع نور

المحبة والعشق «قد شغفها حبا» والرابع الفؤاد موضع المشاهدة «ما كذب الفؤاد ما رأى»، والخامس حبة القلب موضع ظهور المحبة «وتحبونه أشد حبا لله»، والسادس السويداء موضع الحكمة ونور العلم الإلاهي، والسابع السر موضع تجلي الأنوار والأسرار الإلاهية.

والمتصوفة يأذنون للسالك بسبع مراتب، في كل مرتبة ذكر هو لسان حال القلب في تلك المرتبة، منها أولا الذكر اللساني، ثانيا ذكر الأنفاس، ثالثا ذكر القلب أو الفكر، رابعا ذكر الروح، خامسا ذكر السر، سادسا الذكر الخفي، سابعا الذكر الأخفى، فكلما كان باطن السالك طاهرا وبعيدا عن نشأة الناسوت وأقرب إلى الملكوت واللاهوت يصل إلى درجة يصبح فيها الذكر والذاكر والمذكور واحدا - أي فناء في الله، بحيث يبقى المذكور فحسب.

نعود إلى النفس الناطقة عند الإنسان، فهي جامعة لكل الأحاسيس والقوى المعنوية والروحية، وهي مربية أمور البدن والنفس النباتية والحيوانية ومدبرتها، والإنسان هو المظهر لهذه القدرات والتجليات، والنفس الإنسانية بمثابة الحاكم الآمر المطلق لهذه الولايات الصغيرة مع كل هذه الحوزات المستقلة والمختلفة والمراكز المتعددة، فالنفس الناطقة أيضا باقية بوحدتها، وكل هذه الكثرة ليست مخلة بوحدتها، مثل ذلك مثل الخلايا العضوية والأطومات تشكل على سبيل المثال جماعات وطوائف وأمم، بدأت أصغرها من قوتين أو جوهرين حتى وصلت إلى الأعداد لا يحدها التصور، كل واحدة من القوى في العوالم الثلاثة - الناسوت والملكوت والجبروت أو مناطق الطبع والنفس والعقل مربية لما دونها من عوالم محركة لها، وأعلى كل منها قوة حتى تصل إلى مشيئة الله المحركة لكل مراحل عوالم الوجود والمربية لها، وقد وضعت يد القدرة المطلقة في قلب كل موجود عشقا محرفا من أجل الإرتقاء إلى مقام أعلى، للحركة الجوهرية والجهاد الدائم للذرات نحو العالم الأعلى تأثير جذب نفس هذا العشق، فهو محرك عجلات الحياة ومحور دورانها وهو قوة الحياة.

إنه قد يتناسب السمو المعنوي والقيمة الوجودية لكل موجود مع درجة حرارة عشقه وتضحيته وامتيازه الإرادي والإختياري، وهي توأم مع آثار المعرفة، والمظهر الأعلى لها هو شخصية الإنسان ؛ فجسمه ممثل الطبيعة الكلية، ونفسه ممثلة للنفس الكلية، وعقله ممثل للعقل الكلي ؛ وهذه القوى الثلاثة لا تزال في حالة انتظار في سائر الموجودات، ويلزم مرور زمان مع جهاد شديد حتى تخرج من حدود الجماد والنبات والحيوانية كلية وتصير ذات صفات وخصائص.

إن روح الإنسان معرض تجلي الذات في عالم الجبروت، ونفسه الناطقة معرض صفات الألوهية العالية في عالم الملكوت، وجسمه ميدان الفعالية والمظهر الحسي للأفعال الإلاهية في عالم الناسوت. والعقل الفعال عند الإنسان، وربما كان الروح الجامع أو مقام جمع الجمع عند

الإنسان، وفي نفس العقل توجد العقول العشرة، وهو جوهر بسيط ومجرد ومقيم في عالم الجبروت، وعبارة عن حقائق بسيطة تُظَهِّر بدرجات متفاوتة على شكل العشق والمعرفة بالنسبة لاختلاف مراتب النفس. والنفس الناطقة أيضا شعاع من نور العقل الفعال في الملكوت أو عالم المثال، وهي الآمرة على المراتب الدنيا التي تفيض المفاهيم والمدركات العقلية والمعنوية والصورة الخيالية على العالم المحسوس، فالنفس الناطقة مالكة لفعالية العقل الفعال بالقوة، بحيث أنها بالرياضة تأتي في وجودنا من القوة إلى الفعل حتى تصير فعالة، ولكن النفوس المقدسة للأنبياء والأولياء وعظام أهل المعنى قادرة فحسب أن تعطي تلك القوى الفعالية، وترد أنواع الفيوضات الروحانية من عالم الجبروت ومقام العقل الفعال إلى عالم الملكوت مقر النفس الناطقة، ومن هنا تتبدل إلى صور المفاهيم والتخيلات وتهبط إلى عالم الطبع والناسوت، وتتبدل من مخ الإنسان أو قلبه إلى الأفكار والصور الذهنية والقوى الباطنة والظاهرة النفسية والجسمية.

والنفس الناطقة تدرك تجليات الأفعال والصفات والذات حين الوحي، ولكل منها مظهر ستقل تدركها دفعة واحدة ومظهرها، ويقال إن العضو الموجود في الجسم والمستقل بالوحي والحامل لهذا العطاء العلوي والذي ينقلها بدوره إلى القوى الحسية والباطنية، هو عبارة عن غدد صنوبرية في المخ والغدد النخاعية، وهي تختلف عند الناس، ولكنها في حالة الوحي مرتبطة ومتعاونة مع بعضها، وتوجد بينها جاذبية مغناطيسية شديدة، وتولد تيارا كهربائيا وتقفز كالبرق من واحدة إلى أخرى، وتستقبل بارقة الأنوار اللاهوتية من العالم الأعلى وتنقلها إلى المراكز المعدة في المخ المستعد، وفي تلك المراكز تتحول إلى قوى عقلية وفعلية، وقد نزلت تلك المعاني اللطيفة في صورة الألفاظ على لسان الرسول عليه السلام إلى العالم المحسوس، وهو يوصلها إلى أذن المستحقين والمستعدين.

والنفوس الناطقة لها أربعة أنواع من الوسائل الموقوف على الحقائق في هذا العالم : أولها أعضاء البدن المادي من أجل السير في عالم الناسوت، وثانيها الحواس الخمس من أجل السير في عالم الملكوت السفلي ـ أطراف الأرض ـ، وثالثها القوى الباطنية العقلانية من أجل السير في الملكوت العلوي وحرم الجبروت، الرابعة القوى الروحية والقوى الإلاهية الخاصة بالنفوس الكاملة القدسية من أجل السير في عالم الجبروت واللاهوت.

والنفوس الناطقة بلطفها، ليس من الممكن أن تمتزج بالجسم الثقيل الترابي والعنصرية، وأن تقوم سيرها وسياحتها في العالم المعنوي، مثال ذلك كمثل ما يلزم في رحلات عالم الناسوت بطريق البحر والجو وسائل مناسبة تكون أخف في الماء والهواء حتى تنتهي الرحلة بسلام، يلزم كذلك في الرحلات المعنوية للنفوس الناطقة ثلاثة أجسام كل منها ألطف من الآخر، وهو غير

الجسم العنصري الذي يمكن له السير في العالم الذاتي، ويقطع مع كل واحد منها عوالم أربعة : أولها الجسم القالبي أو الأثيري، وهو خاص بعالم الناسوت المحسوس. ثانيها الجسم المثالي أو النجمي وهو خاص بعالم المعنى والملكوت. ثالثها الجسم العقلي أو العلي وهو خاص بالمعقولات وعالم الجبروت. رابعها الجسم النوري وهو خاص بعالم اللاهوت أو تجلي الذات.

فأما الجسم القالبي أو الأثيري هو أول مركب للنفس الناطقة وشبيه بقالب البدن قبل انعقاد النطفة على يد الملائكة ـ القوة المصورة ـ، والموجودات العلوية تضع من العناصر الأثيرية النموذج، فيصور الجسم العنصري للبدن طبقا للنموذج ؛ وهذا الجسم القالبي يحيط بأبداننا مثل حجاب وسحاب رقيق أو شبح يشبه الخيال، وقد يراه أحيانا أولئك الأشخاص الذين يتمتعون بالكشف رأي العين، وهذه الهالة لا تبتعد من حول البدن، وربما في مواقف خاصة نادرة تكون لطبقة الجسم القالبي للبدن إدراك قوة الحياة، وصحة البدن مرتبطة بصحة الجسم القالبي وكحاله، ولما كان قد صنع من عنصر الأثير ـ وهو ألطف من الهواء ـ وجزء لطيف من الهيولي ـ المادة الصلبة للحياة ـ، لذا يستعمل الحاضرون في مجالس تحضير الأرواح ـ خاصة أولئك الوسطاء الأكثر استعدادا ـ هذه المادة الأثيرية من أجل تجسيد الزهور أو الفواكه وتحديد أعضاء الروح وقوامها ـ اليد ـ القدم ـ الوجه ـ. والجسم القالبي المكلف يأخذ قوة الحياة «آلرانا» من الشمس وتوصيلها للبدن لا يبقى بعد مفارقة الروح للبدن أكثر من يومين أو ثلاث. وبواسطة هذا الجسم القالبي يمكن إظهار الأشياء ذات الجاذبية المغناطيسية، وما يرى حول القبور بعد دفن الموتى شبيه بالأشباح هو نفس هذا الجسم القالبي، وهذا الجسم الأثيري الذي يسمى أيضا بالهالة الأثيرية يبدو خارج بشرة البدن على مسافة تقرب من ربع أصبع، وفي حالته الطبيعية يمكن أن يرى أحيانا خارج بشرة البدن على مسافة عدة أصابع، وعندما يغسل البدن يصير الجسم القالبي نظيفا أيضا. ورأى أصحاب الكشف من المنومين المغناطيسيين أن لون هذا الجسم القالبي بنفسجي فاتح أو أزرق فاتح، وهو لون باهت قليل الضياء ووضوحه بقدر لطاقة البدن أو كثافته.

إن الجسم القالبي برزخ بين الجسم المثالي والجسم العنصري، ويعلم الجسم المثالي إدراك الروابط الحسية الجسمية، وأثناء ذلك يقسم إدراك الجسم المثالي والمناطق الأعلى منه إلى المخ وسلسلة الأعصاب الموجودة فيه، وانفصال هذا الجسم عن أبدان الأشخاص الأصحاء صعب جدا، ولكنه سهل عند الأشخاص الذين يصيرون رابطة بين العالم العلوي وعالم الروح وهم الوسطاء والمجذوبون، وقد يلاحظ عدم إحساس العضو المعلول في البدن في الجراحة بسبب أن

الجسم القالبي لذلك العضو قد أبعد، والرابطة بين القوة الإدراكية والعضو قطعت نتيجة لعدم الإحساس. وارتباط الجسم القالبي بالبدن دقيق جدا لدرجة أنه إذا أصيب بصدمة فإن أثرها ينعكس في اللحظة على النقطة المصابة من البدن، وهذا الأثر يحدث أيضا في الجسم المثالي، ومع أن الجسم القالبي لا يرى بالعين العادية إلا أنه مادي. ولذا فإن الحرارة والبرودة والطعم تؤثر فيه، ويوزن بميزان حساس، وبنفس هذا الدليل فإن البدن يكون أخف بعد الموت منه في الحياة ـ أي أنه نتيجة للموت يخرج شيء مادي من البدن له وزن ـ هذا تفسير أحوال الجسم القالبي الذي هو أول جسم.

وأما الجسم المثالي أو النجمي أو الملكوتي، فإن النفوس الناطقة عند أكثر البشر تستطيع أن تصطحب في رحيلها عالم المثال أو الملكوت السفلي المتصل بعالم الناسوت، فتعرج مع الجسم المثالي، ولذا فإن أحوال هذا الجسم جديرة بتمحيص أكثر، والنفوس الناطقة عامة أتت إلى الدنيا ومعها الأقسام الأربعة السالفة، ذلك لأنه لا يمكن العيش بدونها في هذه الدنيا، والإختلاف بين الأجسام الأربعة من حيث النورانية واللطافة أو الضعف والقوة، درجة تكامل النفس التي هي بإكمال القوة واللطافة تستحق الرمي والعروج إلى المرتبة العليا، وكما أن الجسم القالبي يحد التغذية والتربية من مواد عالم الناسوت، فإن الجسم المثالي أو النجمي وهو مولود لعالم المثال والملكوت يتغذى أيضا ويربى بالمفهومات المثالية والمعنويات المختلفة، والجسم العقلي أيضا يقوى ويكتمل بعناصر عالم الجبروت أي المعقولات المجردة، وعلى نفس هذا النسق فإن الجسم النوري تكون تربيته في عالم اللاهوت مع الحقائق البسيطة العالية والفيوضات الذاتية الألوهية.

وكما أن سكان عالم الناسوت قد تركوا الأغذية اللطيفة والمفيدة لنموهم وتربيتهم، وأخذوا يربون أنفسهم ـ نتيجة للهوى والهوس والشهوة ـ باللحم ودم الحيوانات ويصيرون أصحاب خاصية بهيمية، فإن أهالي العالم الأعلى ـ أيضا بسبب ترك الفضائل الأخلاقية ـ أخذوا يغذون الروح بالخصال القبيحة والأخلاق الرذيلة من كبر وحقد وحسد وعجب ورذائل، وهي أطعمة غليظة وثقيلة ومؤذية للروح، ونتيجة لهذه التغذية السيئة انحدروا بالنفوس الناطقة من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، وحرموا أنفسهم من الحقائق والأسرار.

والجسم العنصري أثقل من كل الأجسام وأكثر مادية وظلمة منها، والجسم القالبي الأثيري وهو أخف قليلا فوقه، والجسم المثالي وهو ألطف فوق الأثيري، والجسم العقلي فوق المثالي، والجسم النوري الذي هو أكثر نورانية وألطف، وهو من مادة أبعد فوق الجميع ومحيط بجميع العالم ؛ وأصحاب الكشف عن طريق الطبيعة أو أولئك الذين صاروا أصحاب كشف وسمع

حاديرون هالات الأجسام الأربعة ملونة بالنسبة للطافتهم ونورانيتهم، بل إنهم يميزون التغير الفجائي للألوان والأضواء التي تحدث نتيجة لموجات عواطف الأشخاص وأحاسيسهم المستحسنة والمستقبحة. فأصحاب الإحساسات المستحسنة قد حصلوا على جسم مثالي متألق يحملهم مستعدين للصعود إلى الدرجات العلى والأنس مع الموجودات الروحانية النورانية، ويحصلون على كثير من الأسرار والرموز من نفس هذا الطريق، ويصيرون قانعين بجنة المعرفة، وعلى العكس فإن الصفات والأفكار الجهنمية تفضي إلى جهنم.

والعوالم النورانية الثلاثة كثلاث دوائر متداخلة، وبالتعاون فيما بينها تتجه إلى هدف واحد، وهكذا الحال عند السير في العوالم الثلاثة ـ المثالي والعقلي والنوري ـ لها وحدة كاملة، كل واحد مؤثر في الآخر من حيث القوة، وإحدى ألبسة السير في العوالم التي ذكرت قبلا هي نفسها حالة نوم، حيث التحرر الموقت للنفس من البدن من أجل السير في الملكوت أو الجبروت مجال تعامل النفس الناطقة، وكل نفس راغبة من قلبها في العروج والترقي، ولكن ثقل البدن وكدوراته ومخالب الهوس والشهوة وميولها الحيوانية تمنع ارتقاءها.

إن المجهزين للصعود إلى الملكوت هم الأطهار، إما في الرؤى الصادقة، أو في حال المراقبة وبالنسبة لأهل الذكر بين النوم واليقظة حين يكون الإنسان غائبا عن نفسه، وكمال المعراج خاص بالأنبياء، بل ليس بالنسبة لكل نبي كما قال تعالى : «فضلنا بعضهم على بعض». ونفس هذا الجسم المثالي أو النجمي الذي تجلى في مجالس تحضير الأرواح في كل موطن، وصار مجالا لتصديق علماء الطبيعة المشهورين، ولما كان هذا الجسم المثالي هو مركز جميع الإحساسات والصفات البشرية الحسنة والقبيحة فإنه يحشر بعد الموت بنفس هذا الجسم ويذهب إلى ملكوته حتى ينال نتائج أعماله الحسنة أو القبيحة، ومن تم فإن الحشر بالجسم المادي والمثالي والثواب والعقاب سوف يكونان بالأجسام اللطيفة للنفس الناطقة.

والسالكون قد أمروا بتزكية النفس وتصفية الباطن بأنواع الرياضات والجهاد الأكبر ضد وساوس النفس الأمارة، حتى يطهروا ألواح قلوبهم من كل وصمات العلائق النفسانية والشيطانية وكدوراتها، ويصيرون مجهزين للعروج إلى الأفلاك، وجديرين بالحشر والتناسق المغناطيسي مع الأرواح والملائكة، لأن النفس الناطقة بعد موت البدن ينفى لها أن تتوقف فترة مع الجسم المثالي في عالم البرزخ حتى تنحل كل الآثار القبيحة للمهاوس الحيوانية والشهوات النفسانية والرذائل الدنيوية التي تركت منها أثرا في لوح الوجود وصارت حائلا بين الروح وعالم المكان، فتبعد الجسم المثالي ـ الذي هو بمثابة الثوب الثاني لها ـ عنها كما أبعدت الجسم

العنصري، حتى يسمح لها بالعالم العلوي، أي تستطيع أن تعرج إلى عالم الملكوت مع الجسم العقلي وهو ألطف من الجسم المكاني.

وهذا الخروج للجسم المثالي في الملكوت بعد موت الجسم الترابي يعتبر الموت الثاني للنفس الناطقة، ومن تم فإن موت العارف الذي يميل في نفس هذه الحياة الأرضية إلى السير في عالم الملكوت والجبروت ينبغي له أن يقبل الموت الثاني الذي يعد خطوة أقرب إلى المقصد والمقصود برغبة وبسرور، حتى يتحرر من قيده، وفي العروج إلى عالم الجبروت الذي هو من خصائص الأنبياء وكبار الأولياء ينبغي أن يلقوا أيضا الرداء العقلي، وذلك لأن هذا الجسم بالرغم مما له من لطافة فهو كدر ومظلم وخشن ويحجب ما وراءه إلى حد ما بالنسبة لعالم اللاهوت والحقيقة المحضة، وخلع الرداء العقلي والتحرر منه هو الموت الثالث للنفس الناطقة، وهو غسل آخر.

وبناء على هذا فإن هؤلاء السالكين في طريق المعرفة في كلتا الدارين في خلع ولبس دائمين، ويقول أصحاب الكشف أيضا، أن الجسم المثالي لطيف يبدو متحركا ومتموجا ونورانيا كبخار أو سحاب مضيء، ويسمى عند الأوروبيين بالجسم النجمي، وهذا الجسم المثالي مركز الإحساسات والعواطف والصفات الإيجابية والسلبية والأخلاقية التي تنعكس في البدن العنصري، وتنتقل من القوة إلى الفعل، وتبدو في صورة أعمال الإنسان، وفي الواقع فإن ملكات الجسم المثالي بمنزلة نماذج الأعمال البدنية وتزكية النفس وتجليها مرتبطة بنفس هذا الجسم المثالي، بحيث قالوا إن أصل اتصال الجسم المثالي ومركزه وارتباطه بالبدن الترابي هو الكبد، ومركز الجسم القالبي في الطحال، وأصحاب الكشف يرون الجسم المثالي أحيانا حول جسد الإنسان، ويفهمون من لونه ونورانيته وتحولاته المستمرة حالة صفاته وأخلاقه وملكاته وأفكاره القبيحة أو اللطيفة، لأن هذا الجسم مرآة الآدمي، وقابل في كل لحظة لتغير الفكر وبنفس الدرجة لتغير اللون، وليس لهذا الجسم أعضاء، ولكنه مثل سحاب يبدو على البعد. لذا ليست له أية فعالية حتى الآن أو تأثير من البشر، وعلى الأغلب فإن القسم الأعلى من ذلك الجسم من مفرق الرأس حتى أسفل الصدر وبدون القسم السفلي - يظهر لأصحاب الكشف «الوسطاء» شبيها بالفسفور أو النور.

ولننتقل الآن إلى الجسم العقلي أو العلي وهو الجسم الذي يأتي في المرتبة الثالثة، والذي يتجلى في جسم لطيف، تقوم النفس الناطقة بالسير عن طريقه لتصل إلى عالم الجبروت والمعقولات والحقائق الكلية، وهذا الجسم أكثر نورانية وشفافية من الجسم المثالي وألطف منه، وهو دليل درجة التكامل العقلي والفكري عند الإنسان، وقد نسج هذا الجسم من تصورات

النفس الناطقة وأفكارها وشهواتها، ودرجة صفاته ولطافته بالنسبة لصفاء النية والمثل والفضائل الأخلاقية.

وبنفس هذا الجسم العقلي تستطيع النفوس الكاملة بالإرادة الخلاقة والأفكار أن تحتفظ بالصور الذهنية والعقلية الثابتة، ثم تأتي بها إلى الوجود الخارجي المادي، والكشف والإلهام أيضا متعلقان بنفس هذا العالم المعقول والمجرد، والجسم العقلي منه أرواح العارفين والأولياء وأصحاب الفضائل الأخلاقية وسالكي طريق المعرفة في الطبقات العليا والسفلى لهذا العالم بالنسبة للكمال الذي حصلوا عليه، تأتي من أجل هداية النفوس على سطح الأرض، حيث تأخذ بيد أرواح جديدة وتتعهد بمسؤوليات وتكاليف، والمسكن الواقعي لهؤلاء المرشدين والمربين «رجال الغيب» في عالم الجبروت، ومن نفس هذا المكان يفيضون أنوار الفيوضات والأفكار النورانية والمعرفة والمثل الإلاهية ويلهمونها في بواطن طلاب الفضيلة والحقيقة وسالكي طريق المعرفة.

وقد قسموا الجبروت أيضا إلى قسمين : أعلى، ويحتوي على ثلاث مراتب فوق هذا العالم الأعلى يسمى بالجسم الدائم أو الجسم العلي ـ أي مركز العلل ومنبع الحياة للنفس الناطقة ـ، وهو مخزن كل تجارب أدوار النفس الناطقة بالنسبة للحياة المستقلة.

والجسم العقلي مركب النفس الناطقة وثوبها الدائم، لا يستطيع في أي وقت من الأوقات أن يلقيها عن نفسه ولا يريد ذلك، وهذا الجسم بالنسبة للنفوس بمنزلة جلد البدن في الجسم المادي.

وأخيرا في المرتبة الرابعة ذلك الجسم النوري أو الهالة، حيث أن النفس الناطقة تصعد بهذا الجسم النوري إلى عالم اللاهوت، وهي تتشكل في أطراف الأجسام العقلية كهالات من نور تشبه الهلات التي حول القمر، والنفوس الناطقة الإنسانية في كل آن غارقة وسابحة في عالم الملكوت والجبروت واللاهوت، ولكن درجة الإدراك باختلاف تزكية الإنسان ونورانيته والنفوس الناطقة تحمل في داخلها ثياب كل نوع من العوالم العليا حتى تودع اللباس الترابي بالموت عند الصعود، وتلقى ثوب كل واحد من العوالم حين العبور من ذلك العالم، وفي آخر مرحلة تصير وجودا مجردا عن اللون والدنس.

-XXVII-

الـكـون الأثـيـري

نحن نعيش ونتحرك في هذا العالم الفيزيقي المكون من مواد تهتز في حدود معينة سميت بـ«المادة» وما أشد اختلاف هذا العالم بين المظهر والحقيقة، كم نتصور أن العصر يتغير من جيل إلى جيل بين ضروب المعرفة والحضارة، وما التاريخ إلا قصة نمو العقل البشري وكفى، تدرجت الحياة به من طورها الأول مع مر الزمن أن يصبح القوة السائدة فوق معرفته بالوسط المحيط به، واستطاع هذا العقل مع مر الزمن أن يصبح القوة السائدة فوق الأرض، فهو يسير في نمو بطيء مكدود يتذكر أغلاطه وفشله، غير ناس ما وصل إليه من معرفة، وكوقفة أمام عصرنا هذا فإن نمونا من الوجهة العقلية والفيزيقية والأدبية تبين أننا بلغنا درجة أعلى من أي درجة سابقة، وقد يذهب بنا زهو السبق في عصرنا إلى طرح هذا السؤال : هل السيطرة على المادة الفيزيقية هي غرض الإنسانية ؟ وهل هذه نهاية سعي الإنسان ؟ حقا إن العقل وضع مفهومه على قوانينها ووظائفها وجال بين اكتشافات جديدة، لكن يجب أن نتروى قليلا، لقد أخطأ أجدادنا في آرائهم الفلكية مثلا ثم عدلوا عنها، فكيف لا نتروى ونعدل عن آرائنا بخصوص هذه المادة الفيزيقية التي يخيل إلينا أننا عرفناها وفهمناها ؛ إن المادة التي تبدو لنا صلبة ليست في الواقع صلبة، وما نراه أما منا من مقعد أو منضدة أو قلم فما ذلك إلا اهتزازات عدد ما من الإلكترونات تدور بسرعة هائلة حول مركز النواة، حيث تتألف المادة من ذرات وهذه الذرات تتألف بدورها من إلكترونات وبروتونات، فتختلف المواد باختلاف عدد الإلكترونات الكوكبية في أي عنصر من رقمه الذري، وقد توجد عدا هذه الإلكترونات إلكترونات أخرى في النواة إذا ضم عددها إلى عدد الإلكترونات الخارجية نتج العدد الدال على وزنه الذري، فالعين إذا تأثرت بالإهتزازات الأثيرية التي تحدثها الإلكترونات فإننا نشعر بالمادة، وكما هو الشأن بالنسبة لحاسة اللمس فإن الإهتزازات التي تحدثها هذه الإلكترونات وهي التي تسبب لنا الحرارة والبرودة، ولكن عدد البروتونات يجعلنا نحس بالوزن وبهذا الصدد يقول «سير أليفرلودج» في

كتابه «الأثير والحقيقة» ما يأتي : «نستطيع الآن أن نلخص باختصار ما انتهينا إليه، فالجسمان المختلفان في الشحنة الكهربائية وهما السالب والموجب يسميان على الترتيب الإلكترون والبروتون، وكلاهما متناه في الضآلة، ومع ذلك فقد أمكن تقدير حجم كل منهما، فهما أصغر بكثير من الذرات التي هي أصغر الأشياء المعروفة، بل هما أصغر منها بما لا يقاس، وحتى إذا وجد منها في الذرة مائة أو ألف، فهذه المائة أو الألف لا تكون متكدسة البتة في داخل الذرة، بل يوجد عداها فضاء خلاء كبير، والمعروف الآن أن الذرات المختلفة تتألف من إلكترونات مختلفة العدد، وعلى اختلاف العدد ونوع التجمع تتوقف العناصر الكيماوية المختلفة، إن ذرات العناصر الكيماوية جميعها مكونة من الإلكترونات والبروتونات ولا شيء سواها، وعلى مقتضى هذا الرأي يمكن أن نفهم وجود الإلكترون فهما مقبولا، فهل يمكن كذلك فهم وجود البروتون ؟ كلا، لأننا نجد أنفسنا أمام معضلة، فكتلة البروتون أكبر من كتلة الإلكترون، ولا نعلم لماذا هي أكبر، وكل ما نستطيعه هو الحدس والتخمين فقط، بل إننا في الواقع نكاد لا نستطيع الحدس في الوقت الحاضر أيضا، أو على الأقل إن كل حدس نحدسه غير مقنع تماما، فالمسألة إلى الآن من المعضلات البارزة، وهي لا تزال قائمة تتطلب حلا، ومن تلك الآراء الظنية أن الإلكترون مجوف كالفقاعة، وأن له مجالا كهربائيا هو الذي يجعل الفقاعة تتمدد، ولكن الضغط الأثيري هو الذي يحفظ لها اتزانها وحجمها. وعلى مقتضى هذا لا توجد مادة بداخله، ومثل هذا الإلكترون يكون في ذاته عديم الكتلة، وترجع كتلته الظاهرية إلى مجاله الكهربائي وحده دون غيره، أما جوف البروتون فممتليء كله بالأثير لا أجوف خلاء، وكل أثير يزاح من الإلكترون يتكدس في البروتون، ولهذا تنسب ضخامة كتلة البروتون أو بعبارة أخرى وزنه، والبروتون أثقل من الإلكترون ألف مرة ويزيد، وقد دل القياس المباشر على أنه يعدله 1840 مرة، وما نسميه «الوزن الذري» أو وزن الذرة يتوقف بالأكثر على وزن البروتونات التي تشتمل عليها الذرة. وتشتمل ذرة الهيدروجين على بروتون واحد، وتشتمل ذرة الهليوم على أربعة، والليثيوم على سبعة، والأكسجين على ستة عشر، وهكذا حسب جدول الأوزان الذرية الذي هو من زمن وليد التجارب الكيماوية، وأثقل الذرات ذرة الأورانيوم إذ تشتمل على 238 بروتونا والأوزان الذرية أكيدة، وعدد البروتونات في أية ذرة ما أكيد أيضا. أما الذي لم يعرف بعد فهو : لماذا يكون للبروتون هذا الوزن، ولماذا يكون وزن الإلكترون أقل منه بهذا القدر ؟ وأما فيما عدا ذلك من الوجوه فالشحنتان تبدوان متساويتين ومتضادتين فهما من الوجهة الكهربائية متساويتان ومتضادتان، ونحن لا نخطئ حين نقول إن وزن المادة يتوقف على البروتونات التي فيها، أي على الوحدات الموجبة التي تؤلف نواة الذرة أما الخواص

الكيماوية للذرة فتتوقف على الإلكترونات التي تدور حول النواة، فهذه الإلكترونات الكوكبية فعالة ونشيطة ولها نتائج ظاهرة جلية، وهي تميز الذرة بطيفها وتكسبها خواصها الكيماوية، ولكنها لا تؤثر أي تأثير في وزنها، وهذا غريب، ولكن البيّنة على صحته مقبولة حتى الآن» هذا ما قاله «السير اليفرلودج» بالحرف.

أن المادة الفيزيقية في الواقع شبكة مفتوحة من الإلكترونات والبروتونات، والمسافة بين الإلكترونات والبروتونات داخل الذرة الواحدة شاسعة جدا بالنسبة لحجمها، وإذا نحن اعتبرنا للنواة في الذرة عين المركز المسيطر الذي للشمس في المجموعة الشمسية، فإن المسافات النسبية التي تفصل ما بين الإلكترونات بعضها عن بعض وبين السيارات والشمس، وإذا اعتبرنا الذرة في حجم مسجد من مساجد المدينة فإن رأس الدبوس قد يمثل الحجم النسبي لأحد الإلكترونات الداخلة في تركيبها، على هذا تكون البروتونات والإلكترونات متباعدة جدا داخل الذرة، وهي إذ تتحرك بسرعة هائلة يصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور الذي يشغل الجزء الأكبر داخل الذرة، فالمادة إذن متألفة من شحنات كهربائية صغيرة موجبة وسالبة تتحرك، لا حركة عارضة، بل حركة حرة منظمة يصلها ببعضها ذلك الأثير غير المنظور الذي أصبح اليوم يعتقد أنه مادة الكون الأساسية.

إن الأثير الغير المنظور يخيل إلينا أنه يملأ الفضاء كله، وإن كنا لا نستطيع إن ندرك مدا. ما دمنا لا ندرك مدى الفضاء، ولكننا نعلم أن الموجات الأثيرية تتردد خلال الفضاء بسرعة 186,000 ميل في الثانية، وهذه الترددات أو الموجات تعطينا الضوء، وبتوافر ظروف خاصة يمكن أن تتحول هذه الإهتزازات المحدثة للموجات الأثيرية إلى طاقات أخرى مكافئة لها من الحرارة والكهرباء، والأثير لا يرى إلا أنه يمكن استنتاج المادة الأثيرية، لأن الحرارة والضوء والكهرباء تسير خلال الفضاء بسرعة معينة، ومن تم تحتم وجود وسط تتموج فيه، ولهذا فإن الفيزيفيين يقولون بأن الأثير قضية فرضية فضولية، أو مجرد عرض منطقي.

وفي هذا الصدد يقول «أينشتاين» بالحرف : «أعود فأقول إنه تبعا لنظرية النسبية العامة يكون الفضاء قد وهب صفات فيزيقية، وفي هذا المعنى يوجد أثير، وتبعا لهذه النظرية العامة لا يمكن تخيل الفضاء بغير أثير، لأنه في مثل هذا الفضاء لا يتعذر انتشار الضوء فحسب، بل يستحيل وجود معايير للفضاء والزمن، ولا توجد من تم أية فترات فضائية زمنية بالمعنى الفيزيقي. ولكن هذا الأثير لا يصح أن يظن أنه قد وهب الصفة المميزة للأوساط التي يمكن أن توزن باعتباره متألفا من أجزاء يمكن سحبها خلال الزمن». إن الأثير يملأ الفضاء كله، وهو أبرد من الأرض

بخمسمائة درجة، وله تحرك وضغط هائل يبلغ ملايين الأطنان لكل قدم مربعة، أكثف من الماء بملايين المرات وأكثر منه مرونة، وله حركة دوي مستمرة على الرغم من أنه لا يرى أو يسمع أو يشم أو يلمس، فإذا أثيرت حركته حملت عبر الفضاء طاقته التي تؤثر في حواسنا كالضوء والحرارة والكهربائية، وقد اكتشف كيف تتحول هذه التموجات إلى موسيقى، وهذه المادة هي الوسيط بين الأشياء المادية وبين حواسنا، على أن المادة أصبحت تعتبر الآن هي الأثير نفسه، وإنما في حالات اهتزاز محدودة خاصة، والإلكترونات في الذرة جسيمات كهربائية سالبة، والبروتونات دون شك كهربائية في طبيعتها، وكلاهما أثيري، وما المادة إلا أثيرا في حالة خاصة والأثير كله مادة فعلا، والمادة كلها أثير فعلا، أما المادة الفيزيقية التي تدركها حواسنا فهي ذلك الجزء من الأثيرالذي يهتز في دائرة معينة. وقد أصبح العلم الفيزيقي اليوم يتجه بكلياته إلى القول بأن الأساس البنائي للكون هو هذه المادة الأثيرية لتلك المادة الفيزيقية. وهكذا يمكن اعتبار أثير الفضاء حلقة الإتصال الكبرى التي توجد بين عالمي المادة والروح لأنه المادة المشتركة بين العالمين، وكلاهما محصور داخل هذه المادة وجزء منها، بل مكون منها، والعالمان في نفس الوقت جزء من كون واحد، والحياة في كليهما مقيدة به، وفي عالمنا نحس بنوع من الإهتزازات المنخفضة الدرجة بينما في عالم الروح حيث تؤدي الحياة وظائفها أيضا فإن الوعي يتأثر بنوع من اهتزازات أعلى درجة، والأثير لازم لتلك الحياة مثل لزومه لنا، وكل ما يكتنف تلك الحياة مادي حقيقي بالنسبة لها ككل ما يكتنف حياتنا نحن، وتنشط الحياة في الأثير وهي بمعزل عن المادة نشاطها وهي مغلفة بها، والواقع أنه يمكن تصور حياة أتم وأوسع حينما نترك عنا هذا الجسم الفيزيقي.

والموت سهل وبسيط كالذهاب إلى النوم ثم التيقظ، فجسمنا الأثيري ينسل من جسمنا الفيزيقي حاملا معه العقل، ثم نصحو في هذا الوسط الجديد، فنجد أصدقاءنا وذوي قربانا على استعداد لمساعدتنا وإرشادنا في حياتنا الجديدة، فالموت ما هو إلا انفصال هذا الجسم الأثيري أو هذا البناء الأثيري عن الجسم الفيزيقي، ويعود الجسم الفيزيقي إلى الأرض، أما الجسم الأثيري وهو الذي يهيمن عليه العقل فيستمر في تأدية وظائفه في هذا العالم الأثيري الذي لا يمكننا إدراكه بحواسنا ما دمنا نسكن في أجسامنا الفيزيقية علي الرغم من وجوده داخل العالم الفيزيقي وخارجه، فمدى البصر واللمس عندنا من الحصر والتحديد بحيث لا نستطيع إدراك تلك الإهتزازات الألطف والأعلى درجة، وتبقى الشخصية إذن وهي بمعزل عن المادة الفيزيقية، وسنظل نفكر ونحن بمعزل عن الجسم الفيزيقي ما نفكر الآن، لأن كمية العقل

الصغير التي لدى كل منا هي نفسها التي تؤثر في الجسم الأثيري وحده، وعلى هذا فنحن باقون في العالم الأثيري كوحدات مفكرة متفرقة - أي كما نحن الان - وإنما في وسط جديد، وبنفس القدرة التي لنا هنا في بسط الفكر وتوسيعه تنمو عقولنا، والأرجح أن تكون وهي بعيدة عن المادة الفيزيقية أسرع نموا. وقد يتضح لنا الآن مما أسلفنا، أن أجسامنا الأثيرية تشبه أجسامنا الحالية إذا سلمنا بأن الجسم الأثيري يكون جسيمات فيزيقية متماسكة، ولهذا الجسم عدا ذلك وزن كما أن له شكلا، فالوزن درجات تقصر عنه المعرفة لحد الآن. فإذا سيكون لنا وزن وشكل وشخصية، ويكون لنا نفس العقل الذي لنا الآن. وعلى أي فنحن هنا الآن على سطح الأرض مغمورون في ذلك الخضم من الأثير وإن كنا لا نشعر به، وسنظل مغمورين فيه إلى الأبد، وسكان العالم الأثيري يستطيعون العودة إلينا ويروننا، بينما نحن فوق هذه الأرض كالأعمى لا نستطيع أن نبصر ولكنا نستطيع أن نسمع، لأننا نحس بالفيزيقي فقط، والفيزيقي منوط بالمادة الفيزيقية، والأثيري بالمادة الأثيرية، كل برتبته الخاصة.

-XXVIII-

الجسم الأثيري

كلل علماء الروح اتفقوا على أن كل كائن حي بما فيه الإنسان له جسد أثيري، وهذا الجسد الأثيري له كيان مادي إلا أن له اهتزاز فوق اهتزاز الضوء بكثير، وهذا الجسد الأثيري يلازم الجنين في بطن أمه ثم ينمو معه، فهو يشكله ويتشكل به لدى كل كائن حي على اعتبار أن هذا الجسد الأثيري يتخلل الجسم الفيزيقي مثلما يتخلل الماء الجداول، وهو الصلة بين الجسدين ـ الفيزيقي والأثيري ـ حبل ضوئي يدعى الحبل الأثيري، أو كما يسمونه «الحبل الفيضي» وهو يعد كالحبل السري الذي يربط الجنين بالمشيمة، والذي يجب قطعه وقت الولادة وربطه، أما هذا الحبل الفيضي فقد يقطع من تلقاء نفسه حين الوفاة.

والعجيب في هذا الجسد الأثيري أنه لا يقبل الهرم والتلف رغم هرم البدن، حتى ولو قطع جزء من البدن كالرجل أو اليد فإن الجسد الأثيري يبقى على حاله في جودة وصيانة، مع العلم أن هذا الجسد الأثيري هو الذي يحمل حواس الإنسان وشخصيته وعقله بينما الجسد المادي هو غلاف خارجي، ومن هنا يوضح العلم الروحي وظيفة الحواس، وأعضاؤنا المادية ما هي إلا أدوات الإحساس وليست هي الإحساس، فالعين مثلا أداة البصر على المستوى الأرضي وليست هي حاسة البصر، وبعبارة أخرى إن العضو ليس أصل الوظيفة، وإنما الوظيفة أصل العضو، فكل الحواس عبارة عن ملكات في الجسد الأثيري يستمدها من الروح ؛ فمن يفقد إبصاره منذ مولده لعلة في أداة الإبصار الأرضية وهي العين يسترد حاسة البصر بعد انتقاله إلى العالم الآخر، وهكذا الحال بالنسبة لأي خلل كيفما كان، لأن بتر الجسد المادي لا يغير في شيء جسده الأثيري.

يقول «جيمس آرثر فندلاي» صاحب كتاب على حافة العالم الأثيري : «وحينما نخلع عن ذلك الرداء البالي بعد التغير الموتي نفيق في مأوانا الجديد بجسم أثيري وتصبح قوانا الذهنية أنقى، وتصير تحركاتنا أسرع، ولن نفقد بهذا التغيير شيئا ذا قيمة، فسنبقى كما نحن شكلا

وملامح وفكرا وعملا، وأولئك الذين فقدوا أذرعهم وأرجلهم يستردونها، وكذلك يسترد كل نقص جثماني، لأن الذي فقد هو الفيزيقي فقط، فالفيزيقي ليس إلا غطاء، وهو يتحلل ويتلاشى باستمرار لكنه يتجدد بالدم» إلى أن يقول : «إن العقل يحصل في العالم الأثيري بمضي الزمن على سيطرة كاملة على الجسم الأثيري بحيث يمكن بالفكر إزالة جميع العاهات الجسمانية أو إبرائها».

ولننتقل الآن إلى الحديث عن الهالة البشرية، هذه الهالة التي هي عبارة عن إشعاعات ضوئية تصدر من جسم الإنسان وتحيط به من كل جانب، حيث يراها الوسطاء، وهي ذات ألوان متداخلة كقوس قزح تتلون من إنسان لآخر، فقد يغلب عليها الأخضر أو الأزرق أو البني، وهكذا حسب كل إنسان، وهذه الهالة هي السجل الطبيعي للإنسان، يجري عليها قول الله عز وجل «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» فهي تسجل عليه رغباته وعواطفه ونزواته وأفكاره ومدى نضجه العقلي والخلقي والروحي، بل تسجل عليه حالته الصحية أيضا بحيث تتأثر بآلام الجسد وأمراضه من خلال الألوان المنبعثة منها أو بما يصيبها من انقسام أو انبعاج، وقد يبدو هذا التأثر أوضح عند المس الروحي وخاصة عند الإستحواذ الذي يحدث من كائن غير منظور فيسبب متاعب صحية أو نفسية أو عصبية.

وقد أثبت «ولتر كيلز» أن إشعاعات الروح الإنسانية حقيقة وأكد ما استقر عليه الرأي السائد عند الروحيين من أن اللون الوردي للهالة يمثل الحب العذري والأصفر يشير إلى النشاط العقلي الراقي والأزرق القاتم يشير إلى التدين والأخضر الرصاصي يشير إلى الخديعة والأخضر القاتم يدل على الغيرة والزاهي يدل على التسامح والأحمر الزاهي يرمز إلى الغضب والقوة أما الأحمر القاتم فيشير إلى الشهوانية والبني يدل على حب المال والجشع، وهكذا. والإشارات الموجية الصادرة من الهالة هي التي تنقل الأفكار عن طريق التلباثي عند الوسطاء التلبائيين، ولولاها لما توافرت هذه الموهبة عند الإنسان.

والهالة ليست جزءا من الجسد المادي للإنسان وكذا الإشارات الموجية، بل الهالة جزء من الجسد الأثيري، والإشارة الموجية من خصائص هذا الجسد الأثيري الذي يحمل كل حواس هذا الإنسان وصفاته وملكاته والذي يلازمه في رحلة أبدية ويظل خاضعا لناموس التطور، والهالة على الرغم من أنها متصلة بالجسد الأثيري غير أنها بدورها أعلى اهتزازا منه بكثير، إلى حد أن الأرواح يرى بعضها البعض متجسدا هناك مع أن الهالة تظل غير منظورة، وقد يبدو أن هذه الهالة هي التي تصل الإنسان بعالم أرقى على غير وعي منه أثناء وجوده على الأرض، وتجعله

يشعر أن له ذاتا عليا تختلف عن ذاته السفلى، ويستمد منها الإلهام والأفكار الراقية، وبسبب ارتفاع اهتزازها فإن اقتحامها يكون أحيانا هدفا سهلا لبعض الأرواح الغير الراقية، خصوصا إذا ما حدث فيها انقسام بسبب صدمة عاطفية أو انفعال عنيف كالخوف الشديد أو الحزن المفرط أو الغيظ المكتوم مما يسبب لصاحبها مرضا عصبيا أو عضويا ؛ كما أن التأثير فيها هو الوسيلة الطبيعية للروح المرشدة عندما تريد وضع الوسيط في غيبوبة لتحقيق بعض الظواهر الوساطية، هذه الغيبوبة التي هي بمثابة تخذير مؤقت له عن طريق تنويم هو أشبه ما يكون بالتنويم المغناطيسي لكنه يحدث بتأثير من عقل الروح.

الباب الخامس

ظواهر الإتصال الروحي

-XXIX-

الإتصال بالأرواح

يقول المرحوم طنطاوي جوهري «إن الإتصال بالأرواح والأمور الروحانية إحدى الصفات الخاصة بالأمة الإسلامية وخاصة برجال الصوفية، ولكن أغلب الناس يكذبون بلا تعقل مالم يعلموه ويفهموه».

ويقول الإمام الغزالي في كيمياء السعادة «ليس هناك شخص في قلبه خواطر الحق الصحيحة لا يصل بطريق الإلهام، وليس هذا الإلهام بالحواس الظاهرة».

أود أولا أن أذكر أحد أعلام علم الطبيعة الماديين المنكرين لبقاء الروح والإتصال بها، وأخيرا اقتنع بها وأصبح من روادها، إنه السيد «أوليفر لودج» الذي اعترف بعد تجارب علمية، ويكفي ما أجراه من اتصال مع روح ابنه «ريموند» الذي قتل في الحرب وذلك في جلسات متعددة.

ففي جلسة 5 دجنبر 1915م حضرت روح «ريموند» وصرحت بما ملخصه :

جسمي يبدو على صورته التي كان عليها في الدنيا، فلو وضعت فيه دبوسا فقد أحس، لكن لا توجد فيه أمعاء ولاأحشاء، ولم أر أحدا هنا يسيل منه الدم أو له أذن وعين وحاجب على شكل الذي كنا نعرف في الدنيا، وقد نبتت لي عين بدلا من عيني السابقة، كما أعرف هنا شخصا نبتت له يد وكان قد فقدها في الدنيا، وإنه إذا تلاشى جسم أحد في حرب مثلا يلزمه وقت حتى تكتمل الأعضاء، إذ تخرج بعض المواد الأثيرية من تلك الأعضاء التي تلاشت من جراء قنبلة أو مدفع، ينبغي مرور زمان من أجل جمعها، أما الأرواح لا تشاهد تلاشي أجسادها بعد مفارقتها، وإنما تسمع عنها. وهنا سأل الوالد عن مصير الأجساد التي تحرق، فقال الإبن : في الوقت الذي يحرق فيه الجسم تأتي روحه أولا ثم تساعده أرواح خاصة في إعادة جسمه الفلكي، ومن الواجب أن أشير إلى منع إحراق الجسد إذ يشق جمع ذراته، وإذا تحتم ينبغي ألا يكون قد مر عليه أسبوع ثم سأل الوالد، إذا تلاشي الجسم كيف يتولد منه الجسم الروحاني، فقال الإبن، إنه حينما يشاع بأن فلانا قدمات فإن الروح لم تكن قد خرجت بعد،

بل تبقى فترة. وليلة أمس مات شخص وأحضروه ليحرقوه فرجا أحد المكلفين الروحانيين أن يخلص روحه من جسده، فأخرج روحه بواسطة مغناطيس، غير أن خيطا متصلا بالجسد ظل باقيا فكان قطعه مشكلا، وأعتقد أن المادة الأثيرية تدخل من الجسم الأرضي في الجسم الروحاني المعد للميت وتشكله بالجسم الأرضي. وعن سؤال آخر يجيب «ريموند» إنه منذ أن جئت هنا لم أرغب في غذاء، غير أني رأيت بعض الناس يأكلون، ورأيت مراكز معدة لذلك، لكن هذه المواد ليست جامدة، وإنما هي مواد لطيفة مثل الغاز، وقد رأيت الليلة الماضية شابا طلب سيجارة فلم يكد يدخن ثلاثة حتى أقلع عنه، لعله لم يجد لذة في ذلك، وبالنسبة لكل شيء يبدي كل إنسان رغبة ما بنفس الوضع، ومن المواد الأرضية حتى الخشب الجاف يتصاعد جوهره ورائحته فيشكل جسما هو نفس ذلك الجسم الذي تصاعدت منه رائحته، والذي كان قد اهترأ عندكم، والناس الذين كانت لديهم حياة نورانية وروحانية في الدنيا يلبسون هنا ملابس نورانية أسرع من الآخرين، وإني حزين لبعض الرفاق معي لم يجدوا مساكنهم ومأواهم حتى الآن وهم الآن في منزلي، لذا ينبغي أن أذهب سريعا ـ وهنا نشير إلى أن الأشخاص الذين تعودوا شتات الفكر وضربوا الرقم في الشرود الفكري والتشكك وماتوا على ما هم عليه، فإن نشأتهم هناك أيضا بلا مسؤولية ولا أصل، فهم قلقون إلى فترة ما حتى تستقر أفكارهم، وهنا يبدو سر عبادة الله والتوحيد ـ وختم «ريموند» قوله بعد سؤال والدته : إن الوصول إلى الفلك الأعلى خاص لأهل الباطن، فإذا كان الإنسان مؤمنا يقوم في الدنيا بأعمال طيبة ولن يضر أحدا تكون له في كل نشأة حياة الرضا والإطمئنان. . . »

وقد أجابت إحدى الأرواح بأن الإنسان إذا كان يتصل في نومه بإحدى الأرواح فيكتسب منها معرفة الماضي والحاضر والمستقبل، فشبيه بهذا الحال موت الإنسان ولقاؤه بأرواح الأصدقاء والأقرباء، فتستمد الروح الطاهرة من أرواح الطاهرين والروح الغير الطاهرة من أمثالها.

إنه بهذا القدر نكتفي، ما دام الكتاب غنيا بمثل هذه الأحداث والحالات.

-XXX-

تجارب وأحداث

هذه التجارب والأحداث سنقدمها على الرغم من أن هذا العلم قديم قدم الإنسان. تضمنته كتبهم وأشارت إليه، لولا أنه أهمل في ظرف طغت فيه المادة وساد الإعتقاد بها زمنا إلى أن أعيد بحث هذه الصلة من جديد في منتصف القرن الماضي على أوسع نطاق وأرقى مستوى علمي.

وسنبدأ أولا بتجارب «وليام كروكس» هذا العالم الذي يعد من ألمع علماء الكيمياء، والذي اكتشف عناصر جديدة فيها واخترع الراديومتر العامل بقوة الضوء، واكتشف خواص المادة المشعة إلى غير ذلك، وهو رئيس المجمع العلمي البريطاني والحائز على ألقاب الشرف، وهو لم يقتنع إلا بعد تجارب دامت سنين طويلة شاركه فيها عدد من العلماء من بينهم أعضاء المجمع العلمي البريطاني وآخرون من جنسيات مختلفة، وحاول «كروكس» في حياته أن يتخذ الصرامة في كل ما من شأنه أن يكون طريقا للتدليس وخداع الحواس، فنجح في تصوير الجسد الأثيري للإنسان عن طريق استخدام آلة «الهليومتر جرينوتش» كما نجح في تصوير تجسيد الروح، وباشر بحوثه على عدد من الوسطاء، ومنهم الوسيط «دانييل دنجلاس هوم» الذي كان أحيانا يجوب الفضاء مع كرسيه، وتعزف ألحان يسمع دويها في أركان قاعة التحضير، كما نجحت تجارب «كروكس» مع الوسيطة «فلورنس كوك» التي تجسدت في حضورها روح «كاتي كنج» تجسدا تاما، والتي ذكرت أنها كانت تعيش على الأرض تحت اسم «أني أوين مورجان» في جزيرة «جامايكا». وقد ذكرت بلدانا وطرقات وجبال وأنهار ومعالم كثيرة في الجزيرة لم يكن أحد من الحاضرين يعرف عنها شيئا، ثم تحقق «كروكس» من صدق تلك البيانات التي كانت حقا، وقد أخذ لها «كروكس» أكثر من أربعين صورة، كما أخضع الروح المتجسدة هاته مع الوسيطة لكشف طبي دقيق، وهذه الروح المتجسدة لم يرها «كروكس» وحده، وإنما وصفها العالم الروسي «أكزاكوف» والسيدة «دي لافيرسي» والباحث الفرنسي «جابرييل ديلان»، كل هؤلاء رأوها رؤية العين في تواريخ مختلفة ومتباعدة. والتقط «كروكس» بيديه لـ «كاتي كنج» صورا

في ضوء المغنسيوم، وكانت متجسدة تجسدا تاما، ولما ظهرت وساطة «مس كوك» وتجسد «كاتي» بحضورها أقاموا احتياطا لا تشوبه شبهة، حيث اصطحبت «مدام كورنر» وكريمتها الوسطة إلى غرفة، وخلعا لها ملابسها لفحصها ثم ألبساها معطفا فضفاضا رماديا ثم أخذاها إلى قاعة الجلسات وقيدا يديها بعد فحص أركان الغرفة، وربطا الخيط في معدن مثبوت على الأرض، ووضعا فوقها ستار للخباء مربوطا على كرسيها بحيث إذا تحركت أحس الجميع بها، فنامت الوسيطة، وما هي إلا لحظات حتى ظهرت «كاتي كنج» مرتدية فستانا أبيض مفتوح الرقبة قصير الأكمام أثارت إعجاب الحاضرين، وعندما تم تصويرها على أوضاع مختلفة بدأت تمشي بين الحاضرين مداعبة هذا وذاك، وكان هذا تحت ضوء شمعة ومصباح صغير، ولما قرب وقت انتهاء الجلسة قالت «كاتي» أن قواها في طريق الإنتهاء فشوهدت وهي تجلس القرفصاء ثم اختفت، أما الوسيطة فلا زالت مقيدة حتى فكوا عنها الوثاق، وبهذا أثبت «كروكس» أنه لا يمكن مجال أن تكون الوسيطة مزدوجة الشخصية، كما أن الجسد الأثيري لا يمثل المظهر الخارجي للإنسان، بل وكذلك الأعضاء الدقيقة من جسده.

وللزيادة نورد فقرات من محضر الجلسة التي ظهرت «كاتي» متجسدة بحضور «كروكس» وعدد من العلماء كما يلي :

«كان بمقدور الجميع أن يروا الوسيطة في غيبوبتها وقد غطي وجهها بنقاب أحمر لحمايتها من الضوء، وكانت «كاتي» تتحدث واقفة أمام الحاضرين عن قرب رحيلها، وتقبلت باقة من الورد قدمها لها «مستر تاب»، كما قدم إليها «وليام كروكس» بعضا من زهور الزنبق ربط بعضها بالبعض الآخر، فطلبت «كاتي» من «المستر تاب» أن يفك الباقة وينثر الزهور علينا ونحن من حولها، كما كتبت خطاب وداع إلى كل واحد من أصدقائها ووقعت على الخطابات باسم «أنى أوين مورجان» قائلة : إن هذا هو اسمها الذي كانت تعرف به أثناء حياتها الأرضية. ثم حررت خطابا لوسيطتها واختارت لها برعم زهرة كهدية للفراق، ثم أمسكت بمقص وقصت خصلة من شعرها وأعطت إلى الجميع كمية كبيرة منه، ثم أمسكت بذراع «كروكس» وأخذت تتجول معه في أنحاء الغرفة مصافحة أيدي الجميع إلى أن عادت إلى مكانها وقصت قطعا عديدة من فستانها ونقابها وأهدتها للحاضرين، فسألوها عما إذا كانت تستطيع أن تصلح بعدئذ تعليماتها الأخيرة إلى «كروكس» وإلى تجريبها مستقبلا، ثم بدا الإعياء عليها وقالت والحسرة بادية عليها، إنها ترغب في الرحيل، وإن قواها آخذة في الزوال، وكررت للجميع عبارات الوداع بطريقة عاطفية متناهية في الرقة، كما شكرها هؤلاء على ما منحته إياهم من ظواهر

رائعة، وكانت أثناء ذلك تلقي نظرة تفكير وأسى عميقين على الجميع، وتركت الغطاء ينزل وصارت غير منظورة منا. ثم سمعناها توقظ وسيطتها التي توسلت وهي تذرف دموعها أن تمكث برهة أخرى من الوقت، ولكن «كاتي» أجابتها : لا يمكنني يا عزيزتي، فقد انتهت رسالتي وليباركك الإله، وسمعنا صوت قبلة الوداع، ثم تقدمت الوسيطة وصارت بيننا وقد هدها الإجهاد والحزن العميق تماما».

وهكذا ظلت «كاتي» يتكرر ظهورها لمدة ثلاث سنوات أخرى، وكانت تخبر بأن قيامها بإحداث هذه الظواهر الفيزيقية حملها عناء كثيرا، وأنها بعد ذلك سترتقي في عالم الروح إلى حياة ومرتبة أسمى.

ومما يبرهن على حرص «السير وليام كروكس» ملاحظته أثناء التجسد أن طول «كاتي» لم يكن قارا في كل الجلسات، لكنه كان أطول بأربع بوصات ونصف إلى ست بوصات من طول الوسيطة، كما أن رقبتها كانت ملساء بينما الوسيطة كان في رقبتها بثرة كبيرة خشنة الملمس، أما بشرتها فإنها بيضاء على خلاف سمرة الوسيطة شيئا ما، أما أذناها غير مثقوبتين عكس الوسيطة، ولوحظ أن وجهها ضاحكا بينما وجه الوسيطة عبوسا على المعتاد، أما أصابعها فهي أطول من أصابع الوسيطة، وقد لوحظ أن نبضها كان 75 باستمرار بينما كان نبض الوسيطة 90 في الدقيقة، ورئتها أسلم من رئة الوسيطة، كما لوحظ أن شعرها ذهبيا في الوقت الذي يبدو أن شعر الوسيطة أسود فاحما.

وردا على استفسار إحدى الجرائد الأمريكية للسيد «كروكس» عن مدى تحققه من وجود شخصيتين أمامه، قال في رسالة مطولة نكتفي بما يلي :

«ردا على استفساركم أقرر أنني رأيت كلا من الآنسة «كوك» و «كاتي» معا في نفس اللحظة. وكان ذلك بواسطة ضوء مصباح فسفوري، وقد كان ضوءا كافيا لتمكيني من أن أشاهد بوضوح كل ما وصفته، إن العين الإنسانية تستطيع في حالة طبيعية أن تحيط بزاوية واسعة، وهكذا بدا الشكلان في مجال البصر أمامي في وقت واحد، وبسبب أن النور كان ضعيفا والوجهان يبعد أحدهما عن الآخر بضعة أقدام كنت مضطرا إلى تحويل الضوء كما كنت أحول بصري بالتعاقب من أحد الوجهين إلى الآخر، وذلك عندما كنت أرغب في التشبت في وضوح من وجه كل منهما، وقد رأيت ومعي ثمانية أشخاص في الواقعة التي أصفها هنا «كاتي» والآنسة «كوك» معا، وذلك في منزلي. . . » وأضاف كروكس يصف الوسيطة «كوكب»، «لئن تخيل المرء ان مثل هذه الطالبة الساذجة التي لا تزال في عامها الخامس عشر تستطيع أن

تفهم هذا النوع الهائل من الخداع، ثم تتقن القيام به لمدة ثلاثة أعوام تكون خلالها معرضة للفحص العلمي الذي يفرض عليها، خاضعة لكل ما يتخذ معها في حزم ودقة من الإجراءات أثناء هذا الفحص، راضية بأن تفتش في أي وقت قبل أو بعد الجلسة، وتستطيع أن تقوم بهذا الدور في منزلي أنا بنجاح أكثر مما لو قامت به في منزل ذويها. . . أقول لئن تخيل المرء أن «كاتي كنج» ذات السنوات الثلاث الماضية نتيجة للخداع، فإنه يسيء إلى العقل وإلى الشعور الإنساني أكثر مما يسيء إليهما الإعتقاد بصحة هذا الأمر».

وحول التجسد يعطي الباحث الفرنسي «ليون دينز» تعليلا لهذه الظاهرة قائلا :

«إن بقاء الجسد الأثيري على حاله بعد الموت كما كان قبله يفسر ظاهرة ظهور الأطياف وتجسد الأرواح، فالجسد الأثيري، وهو يحيا في الفضاء طليقا يملك كل ما يلزم لتكوين الأعضاء المادية بلا استثناء، ولكنه لا يستعملها، فإذا وجدت الروح نفسها في الظروف المواتية، بمجرد أن تتمكن من استعارة المادة السيالة، وكذلك من استعارة القوة الحيوية، وهما لازمتان لها، فإنها تندمج في الإكتوبلازم وترتدي تدريجيا مظهر المادة الأرضية. فيسري منها التيار الحيوي بتأثير السيال المأخوذ من الوسيط، وتنتظم الجزيئات الفيزيقية طبقا لخريطة الأعضاء، تلك الخريطة التي يحوي الجسد الأثيري جميع خطوطها الرئيسية، ومن تم يتكون الجسد الإنساني من جديد وتؤدي الأعضاء وظائفها».

والآن بعدما أخذنا بعضا من تجارب «كروكس» نأخذ بعضا مما توصل إليه العلامة «شارل ريشيه» الذي ولد سنة 1850م وانتقل إلى عالم الروح سنة 1935م، وهو من كبار علماء الفسيولوجيا وأستاذ بكلية الطب بجامعة باريس وعضو أكاديمية الطب، وحاصل على جائزة نوبل ورئيس جمعية البحث الروحي البريطانية سنة 1905م.

لقد بحث الظواهر الوساطية وقسمها إلى صنفين. الأول، ظواهر موضوعية ذات طبيعة آلة أو فيزيقية أو كيماوية. والثاني، ظواهر شخصية، وهي أكثر شيوعا، تكون عبارة عن ملكات يتعذر عن حواسنا كشفها، وتدعى بالإدراك عن غير طريق الحس، وقد قام بتجارب كثيرة في هذا الباب خاصة على يد الوسيطة الإسبانية التي استدعاها سنة 1894م، وسجل في حضورها تحريك الأجسام الصلبة بدون وسيلة مادية، وعزف آلات، والقيام بأعمال النحث عن بعد. كما سجل بالتصوير انبعاث مادة «بروتوبلازم» من الوسيطة كانت تصل بينها وبين الأجسام المتحركة، وسلم بأن علة هذه التحركات هي من نوع معين من مادة الأكتوبلازم، كما سجل ريشيه صوت الطرقات وارتفاع الوسيطة كمشكلة علمية لا زالت بغير حل، وعالج مشكلة

انبعاث الأكتوبلازم ومشكلة المنازل المسكونة، كما كشف «ريشيه» عن الحاسة السادسة التي توجد في الإنسان والتي عددها يصل إلى سبعة أو ثمانية، ثم بالتالي سلم بأن الإنسان فيه جهاز روحي يصله بتسجيل أحداث ووقائع أو أفكار الآخرين دون أي تنبيه عقلي عن طريق الحواس العادية، وقرر أن هذا الجهاز الروحي يمكن أن يؤثر عليه عن طريق ما يسميه باهتزازات العالم الحقيقي التي تصدر عنه من حولنا اهتزازات ـ أي أمواج ـ تلتقط بعضها حواسنا العادية، وبعضها الآخر حواسنا الروحية، كما لا تلتقط بعضها الآخر، إنما تحدث تأثيرها في العقول وتكشف لها أجزاء من الحقيقة، بحكم أن العقل هو جزء لا يتجزأ من الحقيقة، وهذا الإفتراض يطوي ظاهرة التخاطر أو انتقال الأفكار ويتجاوز. والحاسة السادسة في نظر «ريشيه» يملكها كل إنسان غير أنها خامدة، وهي قابلة للتسمية والتهذيب، مثلما يسلم بالظواهر الفيزيقية الوساطية وبوجود تأثير مباشر للعقل في المادة الصلبة، وكثيرا ما أبدى «ريشيه» تحفظه حول الأرواح، لكنه أخيرا سلم بذلك صراحة بقوله «إني لا أدري مقدما أي سبب يدعوني إلى أن أرفض من جهتي قبول الإعتراف بوجود كائنات عاقلة أخرى غير الإنسان تتدخل فيما بيننا».

وفي مؤتمر علمي تحت رئاسته صرح قائلا : «يمكن دون كبير عناء تصور وجود الذكاء دون أن يكون المخ جهازا له، ولو أن ذلك يبدو لأول وهلة غير معقول». وهذا هو المذهب الروحي في تعليل الذكاء الذي يناقض المذهب المادي الذي يرى أن الذكاء ليس منفصلا عن الجسد، وأن التفكير عبارة عن مجرد إفراز يفرزه المخ كما يفرز الكبد الصفراء، ومما يؤيد رأي «ريشيه» أن حالة قدمت إلى أكاديمية العلوم بباريس بتاريخ 22 دجنبر 1913م، وذلك أن حالة إنسان عاش سنة كاملة عادي المظهر بينما مخه عبارة عن صديد، وقد يوافق رأي «ريشيه» رأي «برجسون» الذي يؤكد بأن وظيفة الدماغ هي تقويم الإطار دون الذاكرة، وبهذا يلخص «برجسون» أن الفكر مستقل عن الدماغ، وهذا الإستقلال لا ينكر التضامن الوثيق بينهما.

ونختم رأي العلامة «ريشيه» بفقرات من مقدمته لكتاب «الظواهر الروحية» للأستاذ «ماكسويل» النائب العام للجمهورية الفرنسية، قائلا : «يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصري أن يعتقد بقوة أن هذا العلم العصري مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا. إن حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورنا الوجود كل الإفلات، فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تعرف إلا عرضا، وإذا لم يوضع الحديد بجانب حجر المغناطيس اتفاقا لكنا جهلنا دائما أن المغناطيس يجذب الحديد، وما كان أحد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة «رنتجن»، وقبل اكتشاف الكاميرا كان لا يدري إنسان تأثير الضوء

على الفضة، ولم تكتشف الأمواج الهرتزية إلا منذ ثلاثين سنة، ومنذ مائتي عام كان لا يعرف عن هذه القوة الكهربائية العظيمة إلا خاصية جذب الكهرمان إذا ما ذلك بالصوف.

وإذا سألنا رجلا بدائيا، بل لو سألنا فلاحا مصريا أو قرويا روسيا عما يعلمه عن قوى الطبيعة لوجدنا أن لا يدري منها عشر ما تسرده الكتب الإبتدائية لهذا العلم في سنة 1903م. ويظهر لي أن علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة في مثل موقف قروي اليوم إزاء أساتذة «الكوليج دي فرانس» إلى أن يقول :

«لماذا لا نصرخ بصوت جهوري بأن كل هذا العلم الذي نفخر به إلى هذا الحد ليس في حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء، أما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا، والطبيعة الصحيحة للنواميس التي تقود المادة الحية أو الخامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا. «إما نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بدرجتها، حتى أن أكثرها سذاجة لا يزال سرا من الأسرار المحجوبة كل الإحتجاب، فما معنى اتحاد الإيدروجين بالأكسجين ؟ ومن الذي استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الإتحاد وهو يفضي إلى إبطال خواص الجسمين المتحدين وإيجاد جسم ثالث مخالف للأولين كل المخالفة ؟»

«إن العلماء لم يتفقوا حتى الآن على طبيعة الذرة المادية التي توصف بأنها غير قابلة للوزن، وهي مع ذلك تصبح قابلة له متى اجتمع عدد كبير منها».

«فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا في آن واحد، متواضعا لأن علومنا ضئيلة، وجريئا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه».

ولنكتف الآن بما أوردناه للعلامة «شارل ريشيه» ولننتقل إلى تجارب العلامة الإيطالي «إرْنِيستُو بوزانو» المولود سنة 1862م والمتوفى سنة 1943م، وهو عالم نفساني واصل بحثه قبل انحيازه للنظرية الروحية، ولما انحاز إليها كتب فيها بعمق حتى انتقل إلى العالم الآخر، حيث وصلت كتبه إلى أربعة وعشرين كتابا حافلة بتجاربه، وقد لخص رأيه في فقرة قائلا : «لو أن أي إنسان بدلا من يضل طريقه في بيداء مناقشات مملة أقبل على البحوث الروحية وواظب عليها لمدى سنين طويلة جامعا قدرا كبيرا من الوقائع كما يخضعها إلى طريق التحقيق العلمي، لانتهى حتما إلى الإقتناع بأن الظواهر فوق العادية تكون مزيجا رائعا من الأدلة الحيوية والروحية، التي تشير كلها إلى ثبوت وجود حياة للنفس الإنسانية بعد الموت ثبوتا علميا كأشد ما يدل عليه اللفظ. هذا هو اقتناعي الثابت، ولست أشك في أن الزمن كفيل بإظهار أني على صواب».

إن التجارب التي ساهم فيها «بوزانو» غنية عن كل تعليق، فقد عقدت بعض جلساته بقلعة لأحد النبلاء بإيطاليا تمت فيها كثير من الظواهر الروحية بحضور وسطاء موهوبين وجماعة من أعلام الفكر، حيث تم الإتصال بأرواح متعددة لبعض المتنقلين من أقارب الموجودين ومع شخصيات تاريخية مثل «فكتور هيجو» و «نابليون» وغيرهم، كما سمعت موسيقى وهي تجوب الغرفة في لحن شجي، وقد جلبت في الجلسة مجلوبات روحية مجهولة المصدر وبعضها من غرف القصر مثل صور وزهور، بجانب هذا تنبأ عن مرض أحد أقارب الأسرة بعد يومين ثم وفاته فتحقق ذلك، أو أحاديث عن طريق الصوت المباشر بلغات لا يعرفها الحاضرون، أو تجسدات لبعض أعضاء الجسم لتلمس الحاضرين.

وقد علق «بوزانو» على هذه الظواهر والأحداث، مفندا تدخل العقل الباطن بقوله :

«لعل مما لاحظه القراء أن الأصوات المباشرة التي سمعناها أثناء تجارب قلعة «ملليزيمو» -بإيطاليا- لم تحدث كلها بطريق البوق لأنه كثيرا ما كان يدوي صوت قوي من أبعد أركان السقف أو من أرض الحجرة وسط الحلقة كما لو كان منبعثا من قبر، فقد كان يتكرر في تجارب «ملليزيمو» نفس النوع من ظواهر الصوت المباشر التي كانت تحدث في جلسات «بْرَادْلِي» في لندن مع الوسيط «ڤَالْيانتين» وكانت لا تقل عن أحسن ما كان يحدث في هذه الجلسات الأخيرة، وهو ما لاحظه أيضا «المركيز سنتريوني» و «مسيو روسي» اللذان حضرا بعض جلسات «ڤاليانتين» في لندن، فقد كان صوت «بِرْتْ إيلّيرْتْ» الروح الإنجليزية المرشدة يدوي في جلسات «ميلليزيمو» بنفس القوة التي كان يدوي بها في لندن، كما أن صوت مرشدنا المحترم «دانجلوا» طبيعيا وواضحا كصوت إنسان حي، وكذلك كانت أصوات الجنرال «نافارا» و «أسابيا بلادينو» و «جيرتيا» ووالدة السيدة «المركيزة» و «رابليه». وقد كان صوت ابنة السيدة «المركيزة» ضعيفا لكنه مفهوما، حين كان صوت والدتي ضعيفا بلا رنين وصعب الفهم.

وهنا ينبغي أن أقرر أن مجرد ملاحظة كيفية تتابع الأصوات المباشرة في جلسة واحدة بحيث كان يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا كليا، وتنوعها بشكل بين من ناحية قدرتها على التعبير بوضوح يكفي لأن يكون ـ إذا أضيف إلى بعض حقائق الجلسة الأخرى ـ برهانا صحيحا على المصدر الخارجي أو الروحي لهذه الأصوات.

وإن تنوع الأصوات ليتفق بشكل واضح مع ما نفترضه من أننا كنا في حضور شخصيات هؤلاء الموتى، لأن هذه الشخصيات توجد بينها يقينا فروق فنية وعقلية مختلفة حسبما تكون قد وصلت إليه من التطور في المناطق الروحية المتعاقبة. كما ينبغي ألا ننسى أنها جميعها تحتاج إلى

مران على استعمال السيال الروحي قبل أن تتمكن من مخاطبتنا بوضوح، ولذا كانت الأرواح المرشدة ـ وهي في حالة من المران المستمر ـ تتصل بنا في كل جلسة بأصوات طبيعية تماما وواضحة كأصوات الأحياء.

وهنا يهمني أن أسجل الخطورة النظرية لهذه الحقائق المركبة وكيف أن النظرية الروحية قادرة على تفسيرها حين تعجز عن ذلك نظرية «تشخيصات العقل الباطن» إذ طبقا لهذه النظرية تكون شخصية الوسيط الذي في حالة يقظة نومية هي التي تجسد خلال الإيحاء الصادر لها أو إيحائها الذاتي لنفسها أفكار الحاضرين ورغباتهم.

فلعل من يظن أنه في حالتنا أيضا كانت هذه الشخصية الباطنة أو التي في حالة حركة التنويم المغناطيسي تقوم بتقليد أو بإتمام أساليب المخاطبة المتعددة هذه لمحض الرغبة في خداع الآخرين. . .

ولكن الذين حضروا جلسة كهذه ولاحظوا كيف أن المخاطبة كانت طبيعية، وكيف أن بعض الشخصيات التي لا وقت صعوبات في التعبير عن نفسها كان يجاهد المرة بعد الأخرى حتى نفهمه ـ نقول، إن أولئك الذين حضروا جلسة كهذه سيحتجون وسيرفضون بشدة، أو يبتسمون في سخرية ـ إذا ما أخذ بعض المتشككين الذين لم يشاهدوا مطلقا ظواهر كهذه في المجادلة في الحقائق. أما إذا غلبنا مهزلة العقل الباطن هنا فإننا سنجد أنفسنا إزاء ظاهرة من ظواهر التنويم الذاتي المتيقظ ؛ أية كانت درجة صحتها من الناحية العلمية، لكن علينا حينئذ أن نفترض أن في عقل الإنسان الباطن قوة عليا عاقلة، بل شخصية واعية وأيضا أخرى شيطانية، بل مؤذية حمقاء.

وإن افتراضا كهذا ليبدو فجا وسخيفا، فضلا عن أن حقائق التنويم المغناطيسي تكذبه، لأن هذه قد أظهرت أن ما يسمى بالنماذج الموضوعية التي يخلقها الإيحاء في نفس المنوّمين تنويما مغناطيسيا إنما هي أشياء جامدة ليس لديها ابتكار خاص وقوة إرادية أو فكرية وتقوم بدورها في التمثيلية مقيدة بإرادة المنوّم، أو بعبارة أخرى إن هذه النماذج لا تحدث إلا بدافع الإيحاء حين لا تحدث مطلقا في حالة هذه الشخصيات متحدثة إليهم بلغات مجهولة من الوسيط ـ بل وأحيانا منهم ـ قارئة أفكارهم، لاعبة بحذق على آلات موسيقية لا يعرف أحد من الحاضرين عنها شيئا، محضرة مجلوبات رائعة، موقعة بأسمائها وبكتابتها المباشرة، وصانعة غير ذلك الكثير.

وإني أعتقد أن في ذلك ما يسمح لي بأن أقرر بأنه رغم البحوث النظرية التي تشير إلى أن شخصية هذه الأرواح لم تثبت بعد ـ وبغير خوف من خطأ ـ أن ما يسمونه «بتشخيصات العقل

الباطن» التي تحدث للمنوّم مغناطيسيا لا تربطها أية صلة بالتشخيصات التي تظهر نفسها في حضور الوسيط عن طريق الصوت المباشر، فإنه في بعض الأحوال تكون التشخيصات التي تتصل بنا قادرة بغير شك على أن تثبت شخصيتها بالكشف عن حوادث حدثت لها خلال حياتها الأرضية مجهولة من الوسيط والحاضرين.

فإذا أضيفت إلى ذلك البينة المستمدة من التعرف على صوتها وعلى أسلوبها الخاص في الحديث بنفس الطريقة، وبنفس الخلال والآراء والسجايا التي عرفت بها خلال حياتها الأرضية، لكان من نافلة القول بعدئذ أن نضيع الوقت في إثبات شخصية الروح لأنصار نظرية «تشخيصات العقل الباطن» التي ليس في جانبها أدنى دليل في حين يمكننا من جانبنا أن نستند إلى مجموعة طيبة من البينات التي تشير إلى حقيقة واحدة رئيسية وهي بقاء شخصية الإنسان.

ويستمر العلامة «بوزانو» في سرد تقريره الطويل والذي نختمه له بخاتمته التي يقول فيها « وأخيرا أعتقد أني كنت قادرا على إثبات أنه في هاتين الجلستين نهضت حقيقتان واضحتان : أولهما أن ظاهرة الصوت المباشر، ولو أنها ليست وحدها الظاهرة الحقيقية، إلا أنها أكثر الظواهر تأثيرا في إقناع أشد المتشككين، والثانية أني خرجت من هذه الجلسات بقرائن قوية جدا على صدق ما تؤكده نفس هذه الأرواح من أنها هي بذاتها أرواح الموتى التي تتصل بالحاضرين عن طريق الصوت المباشر».

لعل في هذا القدر كفاية من تجارب هؤلاء العلماء الثلاثة الذين أوردنا بعضا من كل عن أبحاثهم وباعهم في هذا الميدان بجانب سمعتهم وشهرتهم الواسعة.

-XXXI-

أدبيات الأرواح

أشرنا إلى أن الموت لا يحدث تغييرا في شخصية الإنسان، كما لا يمس ذاكرته إلا من بعض الذكريات التي لم تترك أثرها في العقل الباطن، بل إن الذهن يبدو بعد الإنتقال بفترة تطول أو تقصر أكثر صفاء وأخلاقا واكتمالا. والملاحظ أن المستوى الثقافي والخلقي والفني الذي تنتهي به حياة الإنسان من الأرض هو نفس المستوى الذي يتجلى في الحياة الأثيرية، لذا كان الموت بالنسبة لعلماء الروح ما هو إلا انتقال، أو بعبارة أخرى هو ميلاد جديد هناك، لذلك فإن عواطفه وأخلاقه وعلمه وفنه وكل ما لديه يلازمه، ويجد فرصا متكافئة للتنمية والصقل، من أجل ذلك نجد أدب الروح متقدم لحد كبير في عالم الروح، وما حضارتنا وتقدمنا على هذه البسيطة إلا تفاهة أمام حضارة وأدب تلك المناطق الراقية من عالم الروح، وهناك كتب روحية كثيرة تورد أسماء أرواح راقية تترفع عن إبداء أسمائها التي كانت تسمى بها وتعطي لنفسها أسماء رمزية مثل «سيلفر بيرش ـ الشجرة الفضية» و «هوايت إيجيل ـ النسر الأبيض» و »هوايت هوك ـ الصقر الأبيض» و «مون تريل ـ طريق القمر» وغيرهم، كما أن هناك أرواح كتبت كتبا وهي في عالم الروح تتميز بأسلوبها وآرائها التي كانت عليها في الأرض أمثال «آرثر كونان دويل» و «إدجار والاس» و «وليام ستيد» و «تشارلس ديكنز» الذي أتم روايته الأخيرة التي عنوانها «أسرار أدوين بروض» عن طريق الوسيط الأميريكي «جيمس» في مدينة «بوسطون» خلال سبعة أشهر من الكتابة التلقائية، وبلغت صفحات التكملة وحدها ألفا ومائتي صفحة، تمثل نفس الأسلوب الذي كان في حياته حتى في أغلاطه الإملائية، مع العلم أن الوسيط لا علاقة له بالأدب ولا بالقصص، بل كان يشتغل في صناعة يدوية، وقد كتبت روح «أوسكار وايلد» من هناك كتابات تحت عنوان «رسائل جديدة من أوسكار وايلد» وأملى عدة رسائل، وما أكثر قصائد شوقي من عالم الروح على يد الوسيطة المصرية حرم الدكتور سلامة روفائيل سعد، والتي لا صلة لها بالأدب ولا بالشعر ولا بالمناسبات التي تروى فيها القصيدة، وهذه القصائد

في مجموعها تكاد تؤلف ديوانا، كانت تنشرها مجلة «عالم الروح»، وهذه القصائد يزخر بها كتاب «الإنسان روح لا جسد الجزء الأول والثاني» للعلامة الأستاذ الجامعي الدكتور رؤوف عبيد. ويقال أن شيكسبير» كانت تلهمه روح الشاعر الإغريقي القديم «يور بيديز» حيث أن شيكسبير لم يوت حظا من العلم والثقافة والإطلاع، في الوقت التي كانت أشعاره ورواياته تتضمن تحليلا عميقا في بلاغة شعرية، وقد قام أحدهم بمقارنة شعر «شيكسبير» وملهمه فكان التطابق واضحا، وهكذا سلم علماء كبار بالإلهام الخارجي، ومنهم العلامة السير «أوليفر لودج» عالم الطبيعة حيث يتحدث قائلا : «لنذكر في هذا المقام أننا لسنا أجساما فقط، بل كل منا مركب من عقل ووجدان وروح فضلا عن الجسم، ويتصل الإنسان بهذه الكائنات العليا المدركة ويناجيها بغير حواسه البدنية، ويرتاح إلى الإتصال بها أكثر مما يرتاح إلى اتصاله بهذا العالم المادي الذي قضى عليه أن يعيش فيه إلى حين.

إن كل الرجال العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مناجاة المدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية، وإذا عملنا على تقوية مداركنا وقوانا اطلعنا أكثر من ذلك، ومكننا الإلهام من معرفة أمور لا نقدر أن ندركها بغيره، إن طرق البحث المادية ليست كل طرق البحث، ولم يزل الرجال العظام منذ قديم الزمان يرون رؤى ويطلعون على حقائق وتظهر منهم بداءة يحاولون تدوينها كما ينتفع بها غيرهم، ولا أقول إني سرت أنا على ذلك في بحثي إذ ظهر أني محروم من ذلك. . . ولكني قد وصلت إلى نتائج من طرقي العلمية المألوفة لا تختلف عن ذلك التي وصلوا إليها».

إن العلم الروحي يعتبر بعض الحالات العبقرية ضرب من الإلهام عن طريق أرواح راقية، وكلما قربت شقة الإهتزازات بين الجسد الأثيري للروح والجسد الأثيري للوسيط كان الإلهام بدون غيبوبة، بينما إذا كانت شقة الإهتزازات متباعدة وقع الوسيط في غيبوبة أثناء تلقيه الإلهام، وعن طريق الإلهام تباشر الأرواح الراقية تأثيرها الحميد، فتأخذ بيده وتقتحم الصعاب نحو الصعود، وكم من عباقرة شعروا بهذا الإلهام وأحسوا به، ومنهم «سقراط» أبو الفلاسفة كان يشعر بأن روحا كانت تملي عليه آراءه، وقد صرخ في وجه قضاته قائلا : «يسألونني لماذا أشغل نفسي بالمسائل العامة ؟ إنما يدفعني إلى ذلك صوت من الأبدية كائن في وقد سمعته لأول مرة منذ كنت طفلا صغيرا». والشاعر «تُنِيْسُون» صرح بأنه يتلقى شعره عن طريق الإلهام من عالم خارجي، ولهذا كان يوجه حديثه للروح أحيانا، والشاعر الفرنسي «ألفريد دي موسيه» كان يقول «أنا لا أفعل شيئا، لكني أسمع ما يلقى إلي فأنقله، وكأن إنسانا مجهولا

يناجيني في أذني، و «أديسون» نسب جزءا من كشوفاته إلى الإلهام، ومن العظام من غيروا وجه التاريخ الإنساني فلمسوا الإلهام جليا، فالعبقري ـ أو وسيط الإلهام الواعي ـ ما هو إلا جهاز صغير للإستقبال، فكلما كان الجهاز مرتفعا في اهتزازه كلما كان أقدر على تلقي الإرسال من أمكنة مرتفعة بدورها، وهذه الوساطة عند الروحيين هي من صور الإدراك عن غير طريق الحس. وقد يصعب تعليل أو تحليل هذا التوافق الإهتزازي الذي قد يكون مصدر محبة بين الشخصين حتى على المستوى الأرضي، حيث قد يكون مصدر عشق عذري أو غير عذري، وقد يكون على العكس فيحدث تنافرا وكراهية لدرجة أن أصحابها يتعذر عليهم تعليل سبب هذه الكراهية. وعن طريقة وساطة الإلهام قد يكتب الوسيط أحيانا بلغة لا يفهمها ولا يدريها، أو يتحدث في مواضع علمية وفلسفية عويصة أو ينظم شعرا رفيعا، وفي حالتي وساطة الإلهام الواعي وغير الواعي قد يتداخل عقل الوسيط مع عقل الروح أحيانا وأحيانا لا علاقة للوسيط مطلقا فيما ألهم به من طرف الروح. ووسيط الإلهام يتميز بخصائص معينة منها الوداعة ورغبته للإذعان إلى تلك القوة الغير المنظورة وغزارة إنتاجه فيما يتلقاه رغم بعد صلته به وغيبوبته التي قد تكون تامة أو جزئية وربما قد لا تكون بالمرة، وغيبوبته التامة تعني استقلاله عن وعيه وهيمنة الروح المرشدة أو الملهمة. إن الإلهام لا يقف عند حد الكبار، وإنما قد يكون عند البعض منذ الصغر، فمثلا «موزار» عزف على البيان بإتقان وهو في السادسة من عمره مما أذهل كبار الموسيقيين في عصره، و «بيتهوفن» ظهرت عبقريته وهو في العاشرة، و «رمبرانت» تفتقت موهبته في الرسم قبل أن يتعلم القراءة، و «باسكال» ظهر رياضيا منذ طفولته، ونشر مؤلفه في السادسة عشرة من عمره تحت عنوان «مفصل الأشكال المخروطية» و «فيكتور هيجو» حصل على جائزة الأكاديمية الأدبية بـ «تولوز» وهو في الثالثة عشرة من عمره، و «يونج» تعلم القراءة في الثانية من عمره، وتعلم ست لغات وهو في الثامنة.

لقد علل بعض الروحيين ظاهرة هذه المواهب بنظرية العودة للتجسد، كما عللها البعض بتأثيرات راقية من العالم الخارجي.

-XXXII-

رسائل من العالم الآخر

في سنة 1851م عمت موجة الإتصال بالأرواح في أمريكا ؛ فنيويورك وحدها بلغ عدد وسطائها مائة وسيط تقريبا بعد أن ظهر نادي الأبحاث الإختبارية ونادي المحاضرات التي كانت كلها تكن التقدير للعلوم الحديثة، وقد انضم مجموعة من العلماء الجامعيين والقضاة اللامعين إلى هذه الأندية التي بلغت الخمسين ويزيد، وبصورة منتظمة لمناجاة الأرواح من طرف هواتها الذين بلغوا الملايين في الولايات المتحدة واجتازت هذه الأندية الحدود إلى أوربا، واشتهرت طريقة الطاولة المستديرة، ثم تبع ذلك الوسطاء من أمريكا الذين يقعون في غيبوبة لنقل رسائل من العالم الآخر، وانتقلت الحركة إلى انجلترا عن طريق سيدتين من أمريكا بعد أربع سنوات من بزوغها، وبدأت الحركة أولا عن طريق المنضدة وقت شرب الشاي ليلا، غير أن بعض الشخصيات العلمية المرموقة أخذت الأمر بجد، وبدأت الخلافات تحد، ووجهات النظر تختلف، ومع ذلك كان عدد المؤمنين بمناجاة الأرواح في ازدياد.

وفي إحدى الحفلات التي أقامتها الوسيطة السيدة «مارشال» سنة 1860م حيث طلبت من الحضور وضع محارمهم تحت الطاولة، ثم أخذت قطعة زجاج وطلتها بدهن أبيض وزيت ووضعتها تحت الطاولة، وبعد وقت قصير طلت عليها فوجدتها تحمل عبارة تشير إلى أن المحارم ربطت مع بعضها، وبعد التأكد كان الأمر كذلك، وبعض الوسطاء كانوا يضعون لوحين من الحجر بينهما طبشورة ويشدهما لبعضهما برباط ويمد يده بهما تحت الطاولة، فيسمع الحاضرون صوت احتكاك الطبشورة باللوحين، وعند فصلهما يشاهدون كتابات أو صور، كما كان بعض الوسطاء يقع تحت سيطرة قوى خفية فيبحث موضوعات عن طريق الكلام أو الكتابة إما دينية أو أخلاقية أو الحياة بعد الموت أو مواضع علمية رفيعة المستوى. إنتشرت الكتابة التلقائية لدى عدد من الوسطاء في القرن التاسع عشر، وهذه الطريقة حلت محل المائدة المستديرة، وقد ألف البريطاني «دافيد دويكيد» ـ وهو نجار ـ كتابا وهو في حالة استرسال عنوانه «هافد» أمير الفرس،

يتضمن وصفا طويلا لهذا الأمير، وقد لفت انتباه المؤرخين لما يضمه بين جنباته من حقائق ودقائق تاريخية، وفي سنة 1860م جاء إلى إنجلترا مجموعة من الوسطاء الأمريكيين كانوا ينوعون مواضيع مختلفة خلال حفلاتهم، فكان أحدهم يتمكن من إظهار رسوم وكلمات على جسمه وآخر يتنبأ بالمستقبل، وآخر يحرك أشياء ثقيلة عن بعد بدون مسها. لكن هذه الحفلات الخاصة استغلت وأصبحت للعموم ودخلها الغش.

يبقى أن نقول أن وسيطا لعب دورا هاما بمواهبه الخارقة بعيدا عن كل غش طيلة حياته وهو الإنجليزي «هوم» فأول حفلة نظمها حضرها عدد من الشخصيات المهمة بالموضوع ومنهم الفيزيائي الشهير «دافيد بروستر» الذي أكد أن الطاولة تتحرك ذاتيا وأن الأصوات الغريبة تغمر المكان، كما أن الجرس البعيد عن الحضور قرع من غير لمس، وقام «هوم» بحفلة ثانية، فبعد أن طلب إنزال الستار على النوافذ وإشعال الشموع ووضع الأيدي على الطاولة، لم تمض خمس دقائق حتى سمعت أصوات غريبة ملأت الغرفة مستعدة للجواب، فطلب «هوم» آلة موسيقية من صاحب المنزل، فتناولها ووضعها تحت الطاولة فبدأت تعزف من تلقائها، وبعد قليل ظهر العرق يتصبب من أحد الحاضرين حيث بدأ يشعر بشخص يمسك يده مثلما كان أبوه المتوفى يمسكه بها، وفي نفس الوقت شاهدها صاحب المنزل أن يدا تظهر على صدر ذلك الشخص، وبعد لحظات صرخ أحدهم مدعورا ونهض من مكانه حين شعر بيد ظهرت فوق رأسه تداعب شعره.

ذاع صيت «هوم» وصار يقوم بجلسات بين الوجهاء والأعلام، وانتقل إلى فرنسا ودعي من قبل «نابوليون الثالث» وكم كانت دهشته حينما رآى يدا توقع على ورقة اسم «نابوليون» ولما دققها نابوليون الثالث وقابلها بتوقيع «بونابرت» صرح أمام الكل بأنها مطابقة للأصل، كما دعي «هوم» للقيام بجلسات أمام قيصر روسيا وامبراطور ألمانيا، وقد علق العالم الإنجليزي «وليم كروكس» عالم الفيزياء والكيمياء على «أعمال هوم» يعطي بذلك تفسيرا علميا، فنشر في مجلته العلمية أنه بعدما درس أعمال هذا الوسيط اقتنع بوجود قوى تؤثر بطريقة ما زالت مجهولة على جسم الإنسان يمكن تسميتها بالقوى الروحانية.

وفي القرن التاسع عشر أيضا اكتشفت عملية التجسد، أي أن الروح تتخذ شكلا ماديا لشخص جزءا أو كلا، وأول من اشتهر بوساطة التجسد الوسيطة «فلورانس كوك» التي بدأت وهي في سن السادسة عشرة من العمر، وكان الفضل في شهرتها للعلامة «كروكس» فكانت هذه الوسيطة تتصل بروح «كاتي كنج» التي عاشت زمن الملكة «كاترين» زوجة «شارل الثاني» ملك إنجلترا، وكان اسمها الحقيقي آنذاك «آنى مورجان»، وكانت «كاتي» هذه تتجسد

للحاضرين بصفة كاملة وتتحدث للحاضرين، وذلك بحضور العلامة «كروكس»، ومن اللطيف أنه في جلسة ظهرت «كاتي» في ثوب أبيض حيث طلبت من «كروكس» أن ينتقل معها لمقصورة الوسيطة التي كانت في حالت غيبوبة لمساعدتها على إيقاف انزلاقها عن كرسيها، فتوجه «كروكس» مارا بـ «كاتي» إلى مكان الوسيطة وساعدها على الجلوس، وبهذا تأكد من استقلال كل شخصية عن الأخرى وأخذ صورا عدة.

ومن أشهر الوسطاء أيضا، الإنجليزية السيدة «دِيسبِّيرَانْسْ» التي اكتشفها عالم طبقات الأرض الأستاذ «باركاس» فهذه الموهوبة كانت الأرواح تنقل لها خطيا ما يوحى إليها من الأقوال، وكانت تجيب بسرعة عن أسئلة علمية في التشريح والموسيقى وغيرها، كما كانت تتجسد لها الأرواح.

وهذه وسيطة أخرى تدعى «بيبر» في الثامنة من عمرها، يوما شعرت في الحديقة وهي تلعب في بيتها بـ «بوسطن» بضربة مجهولة أصابت أذنها اليمنى وسمعت في نفس الوقت رنينا يقول «عمتك «ساره» لم تمت وما زالت على قيد الحياة» فأسرعت الصغيرة إلى والدتها وقصت لها ما جرى، وبعد أيام تلقت الوالدة رسالة تخبرها بوفاة العمة «ساره» فجأة، وتبين أن الوفاة حدثت حينما كانت الطفلة في الحديقة وحينما أحست بالصرير في الأذن. وبعد بضعة أسابيع أخذت الطفلة الوسيطة تصرخ ليلا بالدعائها أن البيت يمتلئ نورا وتظهر لها وجوه متعددة بين هذا الضياء بالإضافة إلى تأرجح سريرها في الغرفة، هذه العملية كانت تتكرر عليها، وتزوجت وهي في الثانية والعشرين في «بوسطن»، بدأت تنتابها حالات نفسية مما جعلها تزور الطبيب، فعند زيارتها الثانية ما أن وضع الطبيب يده على رأسها حتى وقعت في غيبوبة ثم قامت وتوجهت نحو طاولة قدمت الورقة لأحد الحاضرين وهو قاض ولم تكن تعرفه، وما أن وقع نظر القاضي على الرسالة حتى ظهر عليه اضطراب، إنها رسالة واردة من ابنه المتوفي حديثا تتضمن الكلام عن أمور شخصية وعائلية لا يمكن معرفتها إلا هو، وبدأ نجم السيدة «بيبر» يتألق، وكانت هي غير راغبة في ذلك، واعترف لها العلامة «وليم جيمس» - أستاذ البسيكولوجي والفلسفة في جامعة «هارفرد» وهو مشهور بصعوبة رضوخه لمثل هذه الحالات - اعترف بأن الوسيطة تملك مواهب خارقة، فتابع الحضور لجلساتها، وكانت الوسيطة تحضر فيها روح تدعى أنها روح طبيب فرنسي إسمه «فينوي» فتجيب هذه الروح على أسئلة الحاضرين، وكم اختبرها كبار العلماء خوفا من التدليس، لكن الوسيطة كانت تكشف عن نواياهم وتدمغ حيلهم، وتجعلهم يستسلمون حينما يستمعون إلى رسائل من عالم الروح تتعلق بكل واحد منهم تشمل بعض أسرارهم العائلية.

وقد تخلت روح الدكتور «فينوي» التي كانت تظهر باستمرار لروح المحامي «جورج بللو» الذي توفي من مدة قصيرة، وكان يعرفه العلامة الدكتور «هودكسون» الذي كان يتابع جلساتها عن كثب بانتداب من جمعية الأبحاث النفسية بلندن، فأراد أن يتحقق من صحة ذلك، فاستدعى لإحدى جلساتها مائة وخمسين شخصا منهم ثلاثين شخصا من أصدقاء روح المحامي، وأثناء الجلسة أخذت روح المحامي تصافح بحرارة كل أصدقائها عن طريق الوسيطة، وكانت حرارة التحية تتفاوت من شخص لآخر، كما كانت الروح تكشف عن أعمال كل واحد وتكشف ظروف حياتهم الخاصة. ومنذ سنة 1862م صارت روح المحامي «بللو» هي الروح الوحيدة المسيطرة على الوسيطة السيدة «بيبر» ورأت جمعية الأبحاث النفسية أن تضع رهن إشارتها راتبا شهريا ليتسنى للجمعية متابعة دراستها لهذه الظاهرة، وقد تتبعها «هودكسون» عن كثب إلى سنة 1897م وما كان منه إلا أن قدم تقريرا أكد فيه قائلا : «لا يمكنني إلا أن أؤكد جازما بأن الأرواح التي تتصل بالوسيطة هي في الواقع أرواح الأشخاص المنسوبين إليها، وأن تلك الأرواح قد تخطت فناء الجسد المسمى «الموت» لتدوم في الحياة الأخرى، وهي تتصل بنا بواسطة جسد السيدة «بيبر» عندما تقع في غيبوبتها، وإني بعد أن حاولت خلال سنوات أن أنسب هذه الإتصالات إلى انتقال الأفكار بين الأحياء، لا أتردد الآن في التأكيد بأن لا مجال للظن بانتقال الأفكار، وأن الإختبارات تثبت أن الإتصالات عن طريق الوسطاء هي بدون شك من أعمال أرواح بعض المتوفين».

والظريف في الأمر أن العلامة «هودكسون» نفسه كان يحب فتاة صغيرة في أستراليا التي نشأ بها، ولظروف عائلية ودينية حالت بينه وبين الزواج بها، فهاجر إلى إنجلترا وبقي عازبا ؛ ثم انتقل إلى «بوسطن» بأمريكا، حيث بدأ اختباراته مع الوسيطة السيدة «بيبر» التي أخبرته في إحدى الجلسات أن روحا جديدة اتصلت بها، وهي روح فتاة كان يريد الزواج بها لما كان في استراليا، وهذه الفتاة هي الآن التحقت بالعالم الآخر لمدة قصيرة، فبحث العالم عن الفتاة فوجد قولها حقا وصدقا.

كما أن الظريف في الأمر، أن جمعية الأبحاث النفسية التي قامت بأعمال جليلة القدر في أبحاثها والتي وصلت عشرين مجلدا تقريبا، أصبحت صالحة أساسا للأبحاث المستقبلية، والتي قاربت ربع قرن أوائل سنة 1907م، وجدت نفسها أمام رسائل تبعث لها عن وسطائها من العالم الآخر من طرف أعضاء من الجمعية نفسها لم تكن وفاتهم بعيدة، وهي تتضمن إقناع الذين ينكرون الإتصال بالأرواح، مؤكدة لهم أن الموت لا يفني شخصية الإنسان التي تبقى قائمة بعد الموت.

-XXXIII-

"ماثيو" وظواهر الشغب المجهول

إن معارف الإنسان أصلا هي ثمرة جهود رجال نبلاء أجهدوا أفكارهم وعقولهم منذ أزمان لمحاولة الحصول على كشف بعض نواميس الطبيعة وفك بعض طلاسمها، وما من كشف جديد إلا وهو مقدمة لما بعده من كشوف، وكل كشف جديد يكون قد لعب دورا في الإقتراب من حقائق الوجود، وفي نفس الوقت سدد ضربة قاضية للخرافة والجهل، فالعلم وحده، هو السبيل لتعبيد الطريق أمام تطور وارتقاء الإنسان.

فعلينا أن نبني معطيات جديدة لمعارفنا التي هي في تطور، والتي هي في الوقت الحاضر تمر بتحولات جذرية نحو معرفة الإنسان لنفسه بنفسه، وبحقيقة وروابطه بنواميس الكون الظاهرة والخفية.

وهذه الأبحاث تجري تحت أوصاف متعددة أكثرها شيوعا هو وصف «ما وراء النفس» ووصف «ما وراء الروح»، وقد وجدت البحوث حجر الأساس لدراسة حقبة موضوع الإنسان من نواميس الكون ودراسة ملكاته وغرائزه وظواهره المألوفة وغير المألوفة وتاريخه السحيق ومصادر متاعبه وأمراضه والسبيل الصحيح لمواجهة مخاوفه.

وفي بحثنا هذا سوف لا ندرس قصية الخلود، ولكننا نتصدر إلى مسألة متعلقة بظواهر تحدث في الوجود، واستخلاص نتائجها الممكنة، والتي قد يكون الخلود أحدها. وقد نجد عددا من الباحثين في «الباراسيكولوجي» يصرون على دراسة جميع الظواهر الغير المألوفة، وسنلاحظ هذا كما ورد على لسان الشاب «ماثيو مانبج» وسنلمس أن البيانات التي سيقدمها هذا الموهوب صريحة واضحة لا تقبل التعليل إلا بدوام الحياة بعد الموت، حيث روى بدقة متناهية أنباء جميع اتصالاته بهم بعدة طرق وخاصة طريقة الكتابة التلقائية والرسم التلقائي.

إذن، ما معنى ظواهر الشغب المجهول عندما تتحرك الأشياء تلقائيا داخل منزل أو أي مكان ؟ وما معنى لتلك الأدوات التي تخترق الجدران فتذهب أو تجيء كما تريد وفي أي وقت تريد ؟ وهي ما يطلق عليها في البحث الروحي بالمجلوبات والمأخوذات الروحية ؟

وليس المهم هو حدوث الظواهر المجهولة، ولكن الأهم هو وجود ذكاء خفي، ووجود قدرات تريد اجتذاب أنظار الغير، متحدية قانون الجاذبية في نقل الأدوات أو رفعها في الهواء أمام ذهول الناس، أو ظهور كتابات على الجدران أو على الورق، أو سماع أصوات. فـ «ماثيو» ظل يختبر هذه الحالات منذ سنه المبكر وهو الحادية عشرة من عمره إلى الثامنة عشرة، فكان أعظم موهوب ابريطاني، وقد قام بالتحقيق معه عدد من أبرز علماء «الباراسيكولوجي» بداخل الجامعات والمعاهد ونشروا عدة تقارير إيجابية، وبمؤسسة «البحث في الآفاق الجديدة» بمدينة «تورنتو» بكندا وحدها، خضع «ماثيو» لمدى عدة شهور لأبحاث واحد وعشرين عالما في فروع شتى فكانت النتائج إيجابية ومتدفقة بعد استعمال طائفة من الأجهزة الحديثة التي لا تقبل التزيف. ثم نفس الشيء أجرى عليه بمؤسسة «علم العقل» بمدينة «سان أنطونيو» بولاية «تكساس» بأمريكا، كما جرت عليه أبحاث في غضون سنة 1975م حينما زار «ماثيو» أمريكا، وأهمها ما تم في جامعة «كاليفورنيا».

إن ظاهرة حدوث الشغب المجهول اندلعت تلقائيا في الفتى «ماثيو» وهو في الحادية عشرة من عمره بين أسرة مثقفة وثرية كانت تسكن منزلا رحبا، وهو منزل أثري قديم مكون من جناحين أحدهما يرجع إلى سنة 1600م والثاني إلى سنة 1731م، وهو يقع بناحية «لِنتُون» بالقرب من ضاحية «كامبريدج» بجوار «لندن» حيث توجد الجامعة العريقة «جامعة كامبريدج»، والأسرة قلقت مما عانته من ظواهر الشغب وما آل إليه «ماثيو» من متاعب ضخمة في البيت والمدرسة وبين الأساتذة والأصدقاء، فبادرت الأسرة لإيجاد السيطرة على توقف الشغب، فلجأت إلى الدكتور «جورج أوين» الأستاذ بالجامعة كباحث علمي في موضوع ظواهر الشغب المجهول التي اندلعت في «انجلترا» وفي «اسكتلندا». وفي النهاية أمكن السيطرة على الشغب لا عن طريق «جورج أوين» أو غيره، بل عن طريق التأثير الذي تلقاه الفتى القلق المتحير من قبل أرواح راقية، يبدو أنها تدخلت لإنقاذه وأسرته، وهذه الأرواح الراقية وجدت نفسها في «ماثيو» طاقة روحية متدفقة أمكنها أن تستخدمها في تحقيق إنجازات ضخمة، منها تلك الرسائل المتنوعة، والتي وردت بلغات مختلفة لا علم للشاب بها أو تلك الرسوم الرائعة والدوحات الفنية التي وردت من فنانين كبار، انتقلوا في عصور شتى إلى دار البقاء على الرغم من أن «ماثيو» لا علاقة له بهؤلاء، ولا يجد ميولا للرسم، كل ما يشعر به فقط، هو أنه قناة لكائنات تبث وجودها عن طريقه.

وهناك اعتبار آخر ينبغي أن تكون قيمته الطبيعية عند محاولة تقيم هذه الظواهر، وقد حققها الباحثون، ومنها نتائج التحقيقات العلمية في شأن الشغب منها «موسوعة العلم الروحي» البريطاني التي تقول أن ظاهرة الشغب قلما تحدث أضرارا جثمانية بالأشخاص إلا بالنسبة للأشياء القابلة للكسر والتحطيم أو إشعال النار في الملابس، وكثيرا ما تتوقف هذه الظواهر في حضور أشخاص، بينما يكون حضور آخرين في ازدياد عنفها، كما يكون ضحية الشغب مضطهد أحيانا حتى في تنقلاته، وليس من الغرابة أن يستهدف المخاطر قد تحذق به، وأحيانا تسمع أصوات تحطيم مختلفة لكنها تظل سليمة، ولهذا الأمر صلة بالمقابل الأثيري لهذه الأشياء ـ أي أن الأدوات لها مقابل أثيري، وهذا المقابل الأثيري يهتز بواسطة الروح المشاغبة ـ.

والموسوعة قد تسرد حالات كثيرة وعديدة من الشغب المجهول خضعت لتحقيقات علمية في عدة أماكن أو ملء أواني أو سكب لبن أو قهوة أو سماع أصوات مجهولة أو اختفاء سلع قد تعود أو لا تعود، ومن أكثرها شيوعا إلقاء أحجار من مصادر غير معروفة على الدور والأماكن نهارا أو ليلا ؛ والطريف أن بعض الباحثين كتبوا أسماءهم على بعض الأحجار، وقد ورد في تقرير رسمي «للمعهد البرازيلي لبحوث علم نفس الطبيعة البيولوجية» كما يلي : «لا شك أن أكبر وأضخم الملفات في أرشيفنا، هي تلك التي تعالج موضوعات الأرواح المشاغبة، فقد درسنا نحو عشرين حالة من أنشطة الأرواح المشاغبة، وكوفئت بحوثنا في أربع مناسبات عندما حدثت الظواهر في وجود هؤلاء المكافئين، وكانوا قادرين على تسجيل بعضها على شرائط مغناطيسية.

وإحدى هذه الحالات حدثت في شهر يونيه سنة 1972 في بيت ضيافة يقع على بعد شوارع من المركز التجاري «لساوباولو» (أكبر مدينة في أمريكا الجنوبية) وعلى مسيرة قليلة من منزل المشرفة على بحوثنا، وقد كانت قادرة على متابعة الأحداث لمدة تزيد عن شهر جمعت خلالها وثائق مسجلة على مدى ست ساعات».

ثم يقول التقرير : «وهناك أربع حالات أخرى للأرواح المشاغبة تستحق أن تذكر باختصار. ففي واحدة ظهرت في بلدة «سوروكايا» استطعنا أن نلاحظ تحرك متاع بيت بروح مشاغبة، وذلك في مطاردة لأسرة تبحث عن مهرب منها بعد أن حطمت الروح منزلهم، وقد سجلنا أولا حركة خارقة لا نخطئها، فقد سقط رف ثقيل متحطما على الأرض وبدت السقطة كما لو كانت تلقائية عندما كان هناك أربعة من باحثينا يراقب كل منهم واحدا من سكان المنزل عند وقوع الحادثة.

وحالة أخرى في «سوزانو» قرب مدينة «ساوباولو»، وكان مع شهودنا رئيس الشرطة المحلية الذي وصف ما رآه بعينيه بأنه حادثة تولد الحرارة أو حريق ذاتي لا يعرف سببه، فقد وصف كيف أن ثمة أشياء رغم بللها بالماء احترقت ملتهبة فجأة. ولدينا عدد كبير من الحوادث من هذا النوع، منها احتراق وسائد كان عليها أناس نائمون، وملابس داخل دواليب مغلقة وقطع أثاث ثقيلة.

والحالة الثالثة وقعت في ضاحية سكنية قريبة من «ساوباولو» وكان في استطاعتنا أن نعيد قصة نشاط روح مشاغبة عاشت ست سنوات اضطرت العائلة أن تنتقل من المنزل لا أقل من ثلاث مرات، ودفعت أحد أفراد الأسرة لمحاولة الإنتحار مرتين. وقد علمتنا هذه الحالة أن الأرواح المشاغبة هي وإن بدت في ظاهرها مضحكة إلا أنها مشكلة إجتماعية خطيرة تسبب فواجع ومآس خطيرة، ولدينا حالة تدل على أن محاولة قتل قد وقعت، فثمة طفل صغير لا يستطيع بعد أن يمشي قد اكتشف في قاع سلة ملابس وقد احترقت السلة، وأنقذت حياة الطفل قبل ثوان من احتراقها».

وهذه فتاة تدعى «اليونورا زوجون» كانت بغتة ضحية هجوم عنيف لشغب مجهول فيما بين 1925م و1927م، وهي ريفية من رومانيا كانت تعيش في قرية «تالبا» وهي من مواليد 1913م. ففي يبراير سنة 1925م توجهت لزيارة جدتها بقرية «بيوهي» قرب «تالبا» وفي اليوم التالي بدأت ظواهر الشغب في المنزل حيث بدأت تتساقط الحجارة على البيت من الخارج وتتحطم النوافذ وتتطاير الأدوات، وبدأت تظهر على الفتاة إصابات وتسلخات على وجهها وأطرافها كما لو كانت تبدو بضرب سياط وهذا ما يؤكد أن بعض حالات الشغب يكون مؤديا.

ونشرت جريدة الأهرام بتاريخ 6 نونبر 1978م، ما نصه : «تحدثت الصحف الليبية اليوم عن ظاهرة محيرة تتمثل في نار مجهولة السبب تلاحق أسرة ليبية في طرابلس تلتهم ملابسها وممتلكاتها حيثما انتقلت. وقال محافظ طرابلس أنه شاهد بعينيه النار تشتعل فجأة في شعر إحدى بنات هذه الأسرة عندما كان يقف بالقرب منها، ولم يكن هناك ما يمكن أن يكون سببا في اشتعالها».

وفي مدينة «ببا» ـ محافظة بني سويف ـ بمصر حدثت ظاهرة نعش يطير عاليا وبطريقة تلقائية وأحيانا يصطدم بعنف بأبواب المنازل فيحطمها، وقد حطم في طريقه صيدلية بما اشتملت عليه مما استدعى حضور مديرية الأمن لمحاولة السيطرة على الموقف حيث عم الذعر والهرج يوما كاملا لأهل المدينة بسبب ما أحدثه وبسبب رفضه الدفن ومقاومته بعنف.

إن ظواهر الشغب المجهول كثيرة وعديدة بتعدد الدول، فقد تحدث في كل نقطة من العالم، وما أكثرها بمغربنا، غير أن عناية الهمم بالبحث غير موجودة، تاركين ذلك للشعوذة

والمشعوذين ممن يمتهنون لعبة التضليل لنيل اللقمة مقابل موت الضمير. وقد تقصى الباحثون مسألة الشغب وأسبابها في العالمين المادي وغير المادي. ففي العالم غير المادي هناك تتصل بعض الأحداث بذكريات الماضي في فترة معينة لبعض الأرواح، فلا تريد التخلي عنها فتكون سببا للشغب في أوقات معينة، كما يمكن أن تعلل بغير هذا القول. وفي العالم المادي هناك رأي يقول بأن وجود مخزن لطاقة غير مادية في بعض المنازل بسبب تداخل بعض الإهتزازات أي الأمواج الأثيرية بين المستويات المختلفة للكون، ورأي آخر يقول، ربما وجود وسيط له من الظواهر الفيزيقية ما يجهله هو بنفسه، وهو في المعتاد يكون صبيا أو صبية في سن المراهقة، أو قد يوجد الشغب في توافر العاملين معا، وقد تبين لبعض الباحثين أن سن المراهقة له صلة بنشاط الغدة الصنوبرية، والتي تكون بدورها لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالوساطة الروحية، هذه الغدة المخروطية الشكل لا يزيد حجمها عن ثلث بوصة ولا يزيد وزنها عن حبة قمح، تتكون من حبات كلسية صغيرة، تقع وسط المخ في أعلى اتجاه العمود الفقري، لا زال الطب لحد الآن لا يعرف عنها شيئا.

وعند فلاسفة الهند أن هذه الغدة تقوم بتنظيم نشاط الغدد والهيمنة عليها، ولها صلة بظواهر الوساطة خاصة ما يتعلق بظواهر الإدراك عن غير طريق الحواس بقدر ما لها من صلة بنشاط الطاقة الجنسية، ولذا تنشط في سن المراهقة بوجه خاص. وقد كان «ديكارت» يقول، إن الغدة الصنوبرية هي الحلقة المتوسطة بين روح الإنسان وجسده.

وقد لاحظ الدكتور «هاري برايس» في مؤلفه «الشغب فوق إنجلترا» إذ يقول : «الوساطة في النساء عموما أقوى منها في الرجال لأسباب قد تكون سيكولوجية، وقد تكون فسيولوجية متصلة بتكوين المرأة، كما لوحظ أن حوادث الشغب هذه تكون أيسر وقوعا كلما كان الوسيط المراهق نائما، إذ يكون في حالة أشبه ما تكون بحالة الغيبوبة التي يقع فيها أغلب وسطاء الظواهر الفيزيقية، وأن غالبية هذه الوساطات وقتية تزول بتمام نضج الوسيط أو الوسيطة».

والظواهر الغريبة تمكنت منها التحقيقات العلمية أيضا في كثير من الحالات أنها شخصية روح أو أرواح تحاول أن تثبت وجودها في المكان، وقد وصلت النظرية إلى أنها أرواح مشاغبة غير سعيدة ومتألمة من ذكريات أرضية قاسية تعرضت إليها قبل انتقالها إما جسمية أو نفسية، فهي لا زالت تلازمها رغم فراق جسدها، أو هي لا زالت تجهل أنها انتقلت بسبب حدوث شيء مفاجئ كجريمة قتل أو حادثة فجائية، فهي لا زالت تعتقد بإقامتها في المكان. وربما أرواح هائمة لا زالت تهيم لتخلفها عن المستوى الروحي، فهي تنتهز فرصة توافر الطاقة الوساطية كما

تسلي نفسها حينما تشاهد الناس في ذعر واضطراب. وإما أرواح مرتبطة بعواطف وثيقة لبعض الأشخاص الموجودين في المكان فتنتهز فرصة توافر الطاقة الوساطية لإشعار الموجودين بحضورها ورغبتها في صلتهم. إن شخصية الإنسان تبقى على ما هي عليه بعد انتقالها إلى العالم الآخر، وإن كان حقا أنها تتطور، فإن هذا التطور يتفاوت.

ونعود إلى «ماثيو» الذي نجح في الإتصالات ببعض هذه الأرواح المشاغبة عن طريق الكتابة التلقائية، حتى تدخلت الأرواح الراقية فأنقذته وأنقذت الأسرة من الإنزعاج، ثم استخدمت هذه الأرواح الراقية طاقته الوساطية لتحقيق أنبل الأغراض وأسماها، وهي إثبات الحياة بعد الموت، وذلك باتصال أرواح كانت من أبرز الشخصيات فوق الأرض من فنانين ومؤرخين وغيرهم حتى برهنوا للناس صحة الخلود. و«ماثيو» تخلص تدريجيا من الظواهر المزعجة إلى استخدام أسلوب الكتابة والرسم التلقائي بطريقة واعية، وبهذه الطريقة حصل على نتائج مفرطة في خطورتها ودلالتها، وهي تلك الرسائل التي تلقاها بتوقيع أصحابها من العالم الآخر وبلغات مختلفة، أو تلك الرسوم الرائعة واللوحات الجميلة المنسوبة إلى كبار الفنانين في النحت والرسم. واقتنع «ماثيو» بأنه يملك وساطة ضخمة استغلتها الكائنات المشاغبة أمدا طويلا بطريقة سيئة لم تنفع معها تلاوة أوراد أو عزائم لولا تدخل طائفة من الأرواح الراقية، وثبت أن الكائنات الراقية تخشاها الجاهلة الماجنة وإن كانت تتحداها في البداية.

ولتعميم الفائدة، علينا أن نترك «ماثيو ماننج» يتحدث لنا بنفسه ويروي لنا القصة التي ننقلها من كتابه «الإتصال بين عالمين» تعريب وتقديم الدكتور رؤوف عبيد طبعة 1981م، حيث يقول بدءا من صفحة 97 : «لقد كنت دائما أتوق للعودة إلى المدرسة بعد الإجازات، وليس معنى ذلك أنني لم أكن سعيدا بالمنزل، ولكنني كنت أنعم برفقة أصدقاء المدرسة، بينما لم أكن أعرف أصدقاء كثيرين عن طريق المنزل.

وكانت إجازة عيد الفصح قد انتهت في يوم أحد، فأعددت نفسي لرحلة العودة إلى المدرسة، وأبي مزمعا مرافقتي، لأني طلب ميعادا لمقابلة الناظر، وكان تفكيري في نتائج هذه المقابلة يقلقني جدا، كما كان أبي قلقا لفترة من الوقت، وكذلك أسرتي التي وصلت إلى نقطة انهيار، ذلك أننا كنا في خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة هدفا لأكثر الأحداث إقلاقا وإخافة في المنزل، وليس وصفها بأنها أحداث روحية كفيل بشرح حالة اليأس التي عاناها خلالها أبي وشقيقي الأصغر وشقيقتي، ولا ريب أنني كنت أعيش أنا في قلب هذه الأحداث نفسها.

وتصور أبي أنه من المناسب إخطار ناظر المدرسة بحدوث هذه الظواهر غير المألوفة، لأنه بحسب تقديره الخاص الذي ثبتت صحته فيما بعد، من الممكن أن تحدث ظواهر مماثلة لها بعد

عودتي إلى المدرسة. وقياسا على ما حدث من انزعاج للأشخاص الذين كانوا قريبين مني في المنزل، قدّر أنه إذا حدثت أحداث مماثلة لها في المدرسة، فإن الإنزعاج سيكون ذا آثار أخطر بكثير مما كان له من آثار في المنزل.

وغادرنا ناحية «كامبريدج» بسيارة في يوم الأحد مساء أبي وأنا، ولا أدري ما إذا كنت أشعر بالأسى لنفسي أم له، وقبيل مغادرة التخوم الخارجية للناحية كنا نتحدث في بعض الوقائع التي حدثت ونحاول العثور على تفسير قد يرضي الناظر، ويعدّني لمواجهة محنة المقابلة التي كان أبي يتعجلها، وكنت أخشاها.

وفي يوم السبت 18 فبراير سنة 1967م، وكان ضوء النهار يميل إلى اللون الرمادي، شاهدت أسرتي للمرة الأولى ظاهرة بدأت بغتة لغير سبب ظاهر، وبدت كما لو كانت قد توقفت بغتة يوم عيد الفصح من ذلك العام.

وكنا نسكن في ذلك الوقت في منزل مستقل مشيد حديثا نشغله منذ سبع سنين، ونظرا لحداثة بنائه فقد كان له طراز مفتوح، يحتوي على عدة نوافذ ترتفع من الأرض إلى السقف، وكانت حياتنا فيه منظمة و«روتينية» لكن فجأة لم يعد الأمر كذلك، فبين يوم وليلة تدهور أسلوب حياتنا، وكان أبي متعود أن يبدأ يومه بأن يفتح باب المدفأة التي كانت تترك مشتعلة طيلة الليل إلى غرفة الجلوس حوالي السابعة والنصف.

وهذا ما فعله في يوم السبت، عندما اكتشف أن إبريقا فضيا كان في المعتاد موضوعا على رف خشبي مرتفع عن الأرض بمقدار 4,5قدم، قد ألقي على جنبه على الأرض، دون أن يلحقه أي تلف، وكان يجب أن يلحقه هذا التلف خصوصا وقد كان يوجد تحت الرف دولاب، وكان يلزم أن يرتطم به الوعاء قبل سقوطه، لو أنه سقط من تلقاء نفسه.

وفي أثناء تناول طعام الإفطار تناقشنا جميعا في هذه الواقعة، ولم يتقبل أي واحد منا مسؤولية سقوط الإبريق، أو معرفة أي شيء عن ظروف سقوطه، وبطبيعة الحال فكرنا جميعا أن لصا قد دخل إلى المنزل في أثناء الليل، لكن سرعان ما تبددت الفكرة عندما تبين أنه لا يوجد أي شيء فاقد في المنزل، ولأنه لم يكن من اليسير لأي لص أن يقتحم المنزل بغير المخاطرة بإيقاظ أحدنا، فنسينا الواقعة.

وفي صبيحة يوم الأربعاء التالي وجد أبي نفس الإبريق وقد ألقي من جديد على جنبه بنفس الطريقة على الأرض في ظروف مشابهة، ومن جديد أثير النقاش، وكل

واحد نفى التهمة عن نفسه، وكان كل واحد منا يتهم الآخر هازلا، رغم أننا كنا نعلم أن والدنا كان أولنا نزولا إلى الطابق الأرضي، ودخولا إلى الغرفة لأنه كان في الواقع يقوم بإيقاظنا كل يوم.

وأصبحنا قلقين ومتحيرين حول تحرك الإبريق بطريقة لا تفسير لها، ولم يكن لها أي سبب، لأن الرف كان ثابتا تماما، ومن خشب ثقيل وصقيل، وأفقيا تماما، ولم يكن بالمنزل أي حيوان، ولم يكن بجوار الرف أي موقد أو منفذ للهواء.

وعندئذ فكر أبوي في تلك الليلة أن ينثرا حول قاعدة الإبريق حلقة من «بودرة التلك» بغير أن يخبرا أحدا منا، وبحيث أنه لو فرض أن تزحلق الإناء تلقائيا وأفقيا إلى حافة الرف وسقط على الأرض لترك حتما أثرا ملموسا في «بودرة التلك».

وفي اليوم التالي عثرنا على الوعاء ملقى على الأرض، وكانت حلقة «التلك» سليمة لم تمس، ومعنى ذلك أنه لا بد أن أحدا قد رفع الإبريق رأسيا ثم أفقيا حتى يتجنب إحداث أي أثر في حلقة «بودرة التلك» بل أكثر من ذلك يبدو أن وضع حلقة من «بودرة التلك» حول الإناء قد شجع الشخص الذي كان يحركه على التمادي في غيه. وكانت أمي تتأمل إلى المنضدة التي كانت معدة منذ الليلة السابقة لتناول طعام الإفطار عليها، فلاحظت أن وعاء كبيرا مملوءا بالزهور والماء قد وضع على القاعدة الوبرية التي نضع عليها عادة الإبريق الفضي للشاي. وهذا الوعاء تحرك تلقائيا من النهاية المقابلة للغرفة، أي من مسافة حوالي عشرين قدما بدون أن تسقط منه نقط ماء، كما اكتشفت أنا عندئذ أن وعاء فخاريا قديما قد أصبح موضوعا بعناية فوق حافة المدفأة بعد أن انتقل لمسافة خمسة أقدام من مكانه الأصلي على رف قريب، عند ذلك فقط اشتبهنا لأول مرة في إحداث شغب مشبوهة المصدر بدأت تجري في المنزل، فاختلطت مشاعرنا ولم نعرف هل نضحك أم نبكي، ولم تكن لدينا أية فكرة عما كان من المحتمل أن يحدث فيما بعد، أو عن نوع رد الفعل الذي يلزم أن نتخذه، لأنها كانت كلها خارج حقل اختبارنا، وجلي أن أحدا منا لم يصادف من قبل أحداثا مماثلة، ورغم أنها كانت في مظهرها تسلينا بوصفها ظواهر «عفريتية» إلا أننا كنا نخشاها لأننا لم نكن معتادين عليها، ولا مدركين لها حدودا ولا هدفا، ولم يكن بمقدورنا أن نفهم لماذا كانت الظواهر تندلع بغتة، حين لم يكن لها أي مصدر يمكن الإستدلال عليه.

وكان الإحساس ضروريا بأنه لا بد من اتخاذ موقف مضاد منها، ومن تم كانت مشكلة أبي في أن يعثر عما يمكن اتخاذه، وعمن يكون بمقدوره أن يساعدنا، فبحث عن رجال الطب

والشرطة، وكانت وجهة الشرطة رغم تعاطفها معنا عاجزة عن أن تقدم لنا أية مساعدة، ونصحتنا بالرجوع إلى «جمعية البحث الروحي بجامعة "كامبريدج"»، وأخذنا بالنصيحة، فاتصل والدي بسكرتير هذه الجمعية الدكتور «جورج أوين»، الخبير في ظواهر الشغب المجهول المصدر، وكان في ذلك الوقت أستاذا لعلم الوراثة بجامعة «كامبريدج»، وقرر لنا الدكتور «أوين» أن اندلاع ظواهر كهذه يكون غالبا مصحوبا بوجود بعض صبية في المنزل، وأنها تستمر في المعتاد من أسبوعين إلى ثمانية، وإذا ما توقفت لا تعاود الحدوث ثانية، ولم يكن بمقدوره أن يقترح أية وسائل للوقاية منها، لكنه أكد لنا أن فائدتها للعلم تتجاوز مقدار المتاعب التي تسببها. ولم يقدم الدكتور «أوين» علاجا للمشكلة، لذا حرر أبي خطابا إلى خبير جامعي آخر، في إحدى جامعات الأرياف، شارحا له في إيجاز هذه الأحداث ومختتما خطابه بأن هذه الأحداث أخذت في التزايد فيما يبدو.

ومما ورد في هذا الخطاب : «لدينا ثلاثة أولاد : هم «ماثيو» البالغ من العمر أحد عشر عاما وستة شهور، «روزاليند» البالغة من العمر ثمانية أعوام وسبعة شهور، و «أندرو» البالغ من العمر سبعة أعوام، ورغم أن لوجودهم صلة غير مباشرة بمسؤولية هذه الأحداث، إلا أنني واثق منطقيا أن التحريك المادي لهذه الأشياء ليس من صنعهم.

وأنا دارس مهتم بالتحف، وتضم غرفتنا عددا منها وأغلبها قابل للكسر عند الإرتطام، ولذا كان مما أسعدني بوجه خاص أن ألاحظ أن الأشياء الرئيسية القابلة للكسر لم تنتقل من مكانها ! بينما توجد سلة تحتوي على أوزان زجاجية منقوشة انتقلت مرتين من مكانها، مع أنها تزن رطلين وثلاثة أرباع الرطل.

والإنطباع العام الذي تثيره هذه التحركات هو نشاط ضار «عفريتي» مع إحساس حذر بمراعاة النظام، ولذا فإن أسرتي تأخذ الأمور بغير مغالاة ولا مبالغة فيها. ولكن من الممكن مع ذلك أن أقرر أن نتائج هذه الظواهر مقلقة بوجه خاص من الناحية النفسية، ولذا فإنه يسعدني أن أرى خاتمة لهذه الأحداث» ولم نتلق أي رد على هذا الخطاب.

واستمرت الأحداث المماثلة، بل ازدادت عنفا إذ بدت الظواهر أقوى مما كانت، وأصبحت «روتينا» يوميا، وكانت تحدث دائما فيما بين الساعة السابعة والسابعة والنصف صباحا، أي لمدة نصف ساعة كانت فيها الأسرة في حالة من نصف اليقظة، لأننا نكون «بالكاد» قد استيقظنا.

وكان بمقدورنا أن نستمع إلى طرقات قادمة من أعلى الدرج، وأصوات أخرى ملازمة لتزيد تحرك السلع، لكننا لم نشاهد أية سلعة في أثناء طيرانها، وكانت السلع التي تتحرك عبارة عن

تحف للزينة خفيفة الوزن وكراس وأدوات مائدة، وطقاطيق للتبغ وسلاسل وأطباق ومنضدة صغيرة للقهوة، ودستة من سلع أخرى، لكن لم تتحطم إحداها أو تصيب بسوء.

وكان هناك وعاء معدني للماء قد أخذ يتحرك تلقائيا بانتظام، حتى لقد تصورنا أنه يقوم بمظاهرة تحدّ واحتجاج ضد والدنا، لأن هذا الوعاء كان خاصا به، وكان وحده يشرب منه، كما كان يوجد لدينا وعاء للزهور يحضر كثيرا من تلقاء نفسه ويضع ذاته على مائدة الإفطار في مواجهة والدتي.

وفي مناسبة وحيدة دخل أبي إلى غرفة المعيشة مبكرا قبل أن يحدث أي اضطراب، واضعا فيها «راديو ترانزستور» وهو يذيع قطعة موسيقية، ويبدو أن هذا الإجراء كان له أثر مفيد من ناحية أن الظواهر لم تحدث في ذلك اليوم بنفس القوة التي سبق أن ألفناها فيها.

وبقدر تزايد الظواهر الفيزيقية بقدر ما أخذت تظهر طرقات وأصوات ارتطام أشياء، وكانت الأصوات تتراوح بين طرقات حمقاء وبين صوت يبدو كما لو كان منبعثا من حجر يلقيه أحدهم على النافذة، وكانت الأصوات مستمرة نهارا وليلا جميع أنحاء المنزل.

وفي مناسبات عديدة كنا نختم جميع الأبواب والمنافذ المؤدية إلى غرفة المعيشة بأربطة من القطن يلزم أن تنقطع لو حاول أي إنسان أن يدخل إلى الغرفة، كما كان الدرج كذلك يوضع له حاجز من الأشرطة لمنع الصعود عليه أو النزول، فظهر لنا أنه لا يمكن إسناد أي شيء إلى نشاط مضلل من إنسان، لأن جميع الأشرطة كانت سليمة، لكن محتويات الغرفة أصبحت في غير أمكنتها من جديد.

وكان الدكتور «أوين» وأبي يراقبان الغرفة من الخارج أكثر من مرة، وتبين لهما أنه خلال المراقبة لم يشاهدا شيئا من الظواهر، أما بعد مغادرة مكانيهما فإن السلع كانت تبدأ في التحرك كما لو كانت متنبهة تماما طيلة الوقت الذي كانت تخضع فيه للمراقبة. وحتى يتمكن الدكتور «أوين» من التحقق ـ إلى أقصى ما في وسعه ـ من أن هذه التحركات ليست خداعا فقد وصل ذات صباح بلا إخطار سابق كما يراقب الغرفة بنفسه، بل لقد تكبد مشقة ترك سيارته في مكان بعيد، ثم تكملة المسافة سيرا على الأقدام، حتى يتخذ موقفا لا يراه فيه أحد، وكان ذلك حوالي الساعة السادسة والنصف صباحا، فلم يشاهد أية سلعة تتحرك من مكانها طالما كان واقفا للمراقبة، كما لم يدخل الغرفة بعد أي إنسان، لكنه بمجرد ما أوقف المراقبة لكي يدور متجها إلى الباب الأمامي للمنزل ابتدأت السلع الصغيرة تتحرك.

وفي 6 من شهر مارس اقترح «أوين» أن نبعد نحن الثلاثة الصغار عن المنزل لمدة أسبوع، بحيث يذهب كل واحد منا للإقامة عند صديق للأسرة مختلف عن الآخر، ولم يجد والدي

صعوبة في العثور على صديق يتقبل ضيافة «روزالیند» و «أندرو» لهذه المدة، لكنهما وجدا صعوبة في العثور على من يتقبل ضيافتي أنا تحت سقفهم. وهكذا ظهر لي أن الناس كانوا ينظرون إليّ بوصفي مركزا لهذه الطاقة، خصوصا نظرا لسني، ولو أن أحدا لم ينبهني إلى ذلك.

وخلال هذا الأسبوع الذي قضينا بعيدا عن المنزل توقفت تحركات السلع من حول والديّ ومن حولي، ومن حول شقيقي، لكن الأصوات المجهولة ظلت مسموعة في المنزل من والديّ خلال جميع ساعات النهار، وقد بدا هذا الإختبار مثبتا أن هذه الطاقة كائنة في واحد منا نحن الأولاد الثلاثة.

وعندما عدنا إلى المنزل قامت الكائنات المشاغبة بإرسال تحية إلينا في أول صباح لنا، في صورة عملية شغب طازجة نفذتها بقوة متجددة، كما لو كانت تريد تعويض الوقت الضائع. ففي يوم 13 مارس تحركت سبع سلع مختلفة من أماكنها فيما بين الساعة السابعة والسابعة والنصف صباحا. ورغم أن ذلك العدد لا يبدو غريبا إلا أن السلع التي تحركت حديثا كانت أكبر حجما في المعتاد من السلع التي كانت تتحرك فيما مضى، إلى حد أن كرسيا ضخما تحرك نحو ستة أقدام، وكرسيا آخر للمائدة قلب رأسا على عقب، ونقل شمعتان ووضعهما داخل إناء زهور، كما تحركت سلع أخرى صغيرة. وفي اليوم التالي بلغت الظواهر الفيزيقية ذروتها عندما تحركت إحدى عشرة سلعة في خمس عشرة دقيقة، ومن يوم لآخر ظهر ما يمكن وصفه بأنه ذبول في التحركات عندما كانت السلع الصغيرة تتحرك لمسافات صغيرة، وكنا نشاهد ظواهر الشغب هذه لمدة ثلاثة شهور تقريبا، ومع ذلك فلم نلحظ حدوث ظواهر أخرى من نوع تلك الظواهر التي تصاحب عادة الحالات المماثلة مثل اشتعال النار، وشم روائح معينة، أما ما عدا ذلك من ظواهر الشغب المجهول المصدر فقد كان ظاهرا لا يمكن أن نخطئ فيه، وكان الدكتور «أوين» قد حذر أبي من احتمال حدوث هذه الظواهر الأخرى.

والحادثة الأخيرة كانت لها أهمية خاصة ولا تشبه أية ظاهرة أخرى سبق أن اختبرناها، فقد كانت شقيقتي تجلس على مقعد منخفض ترسم في كراسة وضعتها على ركبتها، وعندما أرادت محو خطأ وقع منها بحثت عن «الأستيكة» التي كانت بجوارها فلم تجدها، وظهر لها أنها فقدت، وعندما دخلت عليها في غرفة المعيشة وجدتها بمفردها، وعندئذ وقفت ميتا في مكاني عندما وجدت «الأستيكة» حوالي خمسة أقدام من الأرض، وظلت معلقة في الهواء، وببطء هبطت إلى الأرض حتى لامستها بجوارها، ورغم أنها كانت هي بعينها «أبستيكتها» الضائعة، إلا أننا خفنا من الواقعة وذهبنا إلى خارج المنزل.

وثمة حادثة حدثت في منزل آخر يقع على بعد حوالي عشرين ميلا من منزلنا أكدت لنا أن مستودع الطاقة التي تقوم بذلك ليس كائنا في منزلنا، بل في فرد من الأسرة، وهذه الحادثة هي أن أمي ذهبت لزيارة والديها هناك في هذا المنزل في يوم أحد، ولما نزعت معطفها وضعته ممتدا على فراش في الدور الأعلى، وعندما أردنا الإنصراف وصعدت أمي لتأخذه وجدته ممتدا بنفس الطريقة التي كان عليها تماما، ولكن على الأرض لا على الفراش، ورغم أن جدينا لم يكونا على استعداد لأن يتقبلا تفسيرنا، إلا أننا قدرنا أنها من المحتمل أن تكون إحدى ظواهر الشغب المجهول المصدر. وأهم الأمور في هذه الظواهر لأكثر من سبب هو أننا كنا نسمع في مناسبات عديدة أصوات «طرقعة» كانت تبدو كما لو كانت تتردد بين النوافذ أو أجهزة التدفئة وأحيانا في الزجاج أو الصيني، ورغم أن هذه الأصوات كانت تشبه صوت ارتطام حبات خرز صغيرة بهذه الأشياء إلا أنها كانت تبدو كما لو كانت منبعثة من خفافيش، وخطر ببالنا أن الكائنات المشاغبة ربما تستخدم أسلوبا مماثلا لأسلوب الخفافيش في نقل السلع خلال الهواء وبين الأركان، فهل بمقدور هذه الكائنات أن تستخدم نفس المبدأ الذي تستخدمه الخفافيش ـ أي مبدأ رجع صدى الصوت لكي تقيس المسافات وتتفادى الإصطدام بالحواجز ـ ؟

وعندي في غرفتي جمجمة راهب عثرت عليها في جرف من الأرض كان يقع تحت دير من أديرة العصر الوسيط، فلما تصورت أن لها صلة بهذه الأحداث قمت بحرقها تحت أقرب شجرة، لكن ذلك لم يحدث أي فارق في كثافة هذه الأحداث. . . »

وفي صفحة 121 يروي قائلا : «كان لدى والديّ في يوم الأحد الموافق عيد الفصح بعض الأصدقاء في المساء، وكنت أنا خارج المنزل، وبعد أن عدت بوقت قصير انصرف الأصدقاء في حوالي الساعة العاشرة مساء، ولما خرجا لتوديعهم مروا جميعا بغرفة المائدة، وذهلت أمي عندما لاحظت أن وعاء هو عبارة عن «تانك» من الزنك كان مقلوبا رأسا على عقب وموضوعا على المائدة، ولم يخبر والدي أحدا من الأصدقاء أو أنا عن هذه الواقعة.

وذهبت إلى فراشي في ذلك الوقت ورقدت عليه غير شاعر بالهدوء، ولا أذكر ما إذا كان الطقس حارا بوجه خاص عند ذلك، وبغتة سمعت صوت صرير آتيا من اتجاه الدولاب، واستمر لمدة حوالي ثلاثين ثانية، ولما استمعت إليه لبرهة ما أطفأت النور، وأصابني ذعر عندما شاهدت الدولاب يبارح مكانه الملاصق للحائط متجها نحوي ثم توقف بعد أن تحرك حوالي ثمانية عشر بوصة من مكانه.

وبمجرد أن أطفأت النور بدأ فراشي يهتز بعنف للوراء وللأمام، ومنعني الذعر من الحركة، وظللت راقدا في توقع ما قد يحدث فيما بعد. وتوقف اهتزاز الفراش لكني شعرت أن نهاية الفراش من تحت رأسي ترتفع عن موضعها بما قدرته حوالي قدم واحدة بالمقارنة بالنهاية الأخرى عند القدمين، ثم ارتفع الجانب الذي تحت رأسي من جديد بما يعادل بوصتين أو ثلاثة، ثم تحرك الفراش كله نحو منتصف الغرفة، وأخيرا استقر عند ملامسة الجدار.

ولم يكن بمقدوري أن أتقبل اهتزاز الفراش بي، فغادرته على قدر ما استطعت من السرعة، منتويا أن أخبر أبويّ بأنه قد نالني ما يكفيني من الغرفة، وأنني لن أمكث بها بعد الآن ما لم يتخذ اللازم بمنع إزعاجي.

لكنني تبينت أن المزعجات قد انتابتهما هما أيضا، إذ بعد أن وجدا «تانك» الزنك مقلوبا على رأسه فوق مائدة الطعام اكتشفا عند العودة إلى غرفة الجلوس أن أحد الكراسي قد سحب من الزاوية التي كان فيها ووضع في وسط الغرفة، وعندما ذهبنا لفحص غرفة نومي وجدنا كرسيا كبيرا ذا مسندين قد وضع عبر الباب بحيث يمنعنا من الدخول إليها. وهكذا شعرنا مرة أخرى في خلال خمس سنوات أننا أصبحنا ضحية مشكلة من الشعوذة المخيفة. وأمضيت تلك الليلة في الطابق العلوي في غرفة أبويّ نائما على مرتبة صغيرة على الأرض، ورغم أننا كنا جميعنا متخوفين من وقوع ما هو أسوأ، إلا أن شيئا لم يحدث حتى الصباح الباكر، وأول غرفة دخلناها في الصباح كانت غرفة المائدة، فوجدناها في حالة تجعلها كما لو كانت قد أصابتها قنبلة، فالكراسي مقلوبة أو غير موجودة بها، والمنضدة لا تقف على قدميها، وسلع الزينة منثورة حول الغرفة وعلى الأرض، وغرفة الجلوس في حالة مماثلة، وكذلك الشأن في جميع غرف الطابق الأسفل من المنزل : فالمناضد والمقاعد مقلوب بعضها فوق البعض الآخر، وبراويز الصور منزوعة من أمكنتها، مع اختفاء أشياء عديدة منها إبريق شاي وأدوات للمائدة.

وبعد أن فحصنا «ميدان المعركة» أخذنا في إعادة كل شيء إلى موضعه كما كان من قبل، بادئين بغرفة الجلوس، ثم انتقلنا إلى غرفة المائدة حيث صححنا أوضاع الأثاث المتناثر، ووجدنا فيها سلعة منقولة من غرفة الجلوس، وعند إعادتها إلى موضعها هناك فوجئنا بأن وجدنا أن هذه الغرفة الأخيرة قد عادت كما كانت إلى حالة من الفوضى الكاملة كما كانت، وذلك بعد دقائق من إعادة ترتيبها، وبعد أن أعدنا ترتيب المطبخ وغرفة المائدة، قمنا بترتيب غرفة الجلوس مرة ثانية، وقد استغرق ذلك منا بضع دقائق خلالها كان الشغب قد بدأ من جديد يهاجم غرفة المائدة.

وقد استمر هذا التتابع في تقليب الغرفة بعد الأخرى رأسا على عقب طيلة يوم الإثنين من عطلة عيد الفصح، ورغم أننا طبعا كنا منزعجين إلا أنه كان بمقدورنا أن نرى جانبا مسليا فيها، وهو العجز عن تفهمها، والعجز عن معرفة الحادث الذي سيحدث فيما بعد. وكانت السلع تنتقل دائما من مكانها، لكن لم يمكن أبدا في تلك المرحلة أن نباغتها وهي في حالة تحرك.

ولم يكن من الغريب أن نجد غلاية الشاي داخل عمق الثلاجة، وجميع المقاعد فوق المنضدة، وقبعة معلقة على مسمار في الجدار بدلا من الصورة التي كانت موجودة هناك، ومكنسة موضوعة باتزان على ظهر المقعد. وفي اليوم التالي لاندلاع هذا الشغب الضخم، كان شقيقي وشقيقتي بسبيل الدخول إلى المطبخ في الصباح الباكر عندما قابلا عند الباب عربة للشاي تتهادى نحوهما، وهي على ارتفاع حوالي بوصة من الأرض، فغيّر اتجاههما ولاذا بالفرار، ثم وجدنا العربة محشورة في باب المطبخ حيث كانا يقفان. وفيما بعد شاهدا زجاجة بها سائل للتنظيف وهي تحلق من جانب في الحمام إلى آخر بدون وجود أي إنسان بجوارهما.

واستمر تتابع الأحداث على هذا النحو نفسه لمدة بضعة أيام، وسرعان ما أصبح واضحا أن الظواهر كانت تشتد بوجه خاص في لحظات معينة من النهار، خصوصا في منتصف النهار وفي المساء، والأحداث التي جرت كانت غريبة بل ومسلية أيضا، وفي نفس الوقت كان يتعذر غالبا تقليدها بمعرفة أحد من الأسرة.

فمن الظواهر المثيرة تلك التي كانت تتضمن أعمالا باهرة من حفظ توازن بعض السلع، ففي أكثر من مناسبة وجدنا مكنسة وقد حفظت توازنها وهي على درابزين الدرج، وبمجرد لمسها فقدت توازنها. وفي غرفة الجلوس كانت توجد ثلاث مناضد ثقيلة محوطة بإطارات معدنية، فوضعت كل واحدة منها فوق الأخرى بمهارة، وكان وزنها طبعا ثقيلا، وكانت المخادع تعاني من الشغب أكثر من معاناة سائر قطع الأثاث، وكانت تلحقها الفوضى الكاملة أحيانا، بل ربما قلب المراتب عن ظهرها، وكان فراش شقيقتي ضحية خاصة لهذا الشغب، إلى حد أننا وجدناه ذات مرة وقد ارتفع بقدمين واستند على نافذة من نوافذ الدور الأول. واختفت سلع عديدة كما نعثر عليها مخبأة أو كانت تعود إلى مكان آخر، وغالبا إلى مكان ظاهر جدا، ولم تكن هذه بالضرورة سلعا صغيرة، بل لقد كان من بينها صور وملاءات للمخادع وأدوات مطبخ وبعض أدوات للزينة كنا نعثر عليها عادة خلف الدوالب، أو تحت المخادع. . . »

هذه فقرات من كتاب هذا الشاب الذي أصدره وهو ابن الثامنة عشرة من عمره، حيث أصدره سنة 1974م، وقد انتابته حالات الشغب المجهول منذ تاريخ 18 فبراير سنة 1967 وهو في سن الحادية عشرة من عمره.

الباب السادس

عودة تجسد الإنسان من جديد

-XXXIV-

مشكلة التجسد

هل يعيش الإنسان في جسده مرة واحدة، أم من الجائز أن يعيش عدة مرات ؟

سؤال خطير، نقدر جسامته، من أجل ذلك نبدي تحفظنا فيه، لكننا سنعرض وجهة نظر بعضهم، رغم تنوع الإجابة عليه، وكان بودنا أن نترك الموضوع جانبا لأهله لولا فرضية موضوع الكتاب من جهة، وعناية علم الروح ومن ورائه الباراسيكولوجي عن مدى احتمال عودة الروح للتجسد في صورة آدميته على صورتها السابقة وعلى ما لحقها من تطور طبقا لناموس التطور، والموضوع انتقل من إطار النقاش النظري إلى إطار التحقيقات لدى علماء الروح، شأن ذلك باقي الظواهر الأخرى، ومن جملة الأساليب التي اتخذت أسلوب إرجاع الذاكرة إلى الوراء في غيبوبة التنويم المغناطيسي، وأول من كان سباقا لإكتشاف هذا الأسلوب البحاثة الفرنسي «أوجين ألبير دي روشا» ثم تبعه عدد عديد من الجادين في البحث، ثم ظهر أسلوب آخر هو تحقيق ظواهر «رؤى من قبل» و «سمع من قبل» مما أثار انتباه الجامعات والهيئات التي تعتني بدراسة الإنسان، بجانب هذا يضاف أيضا أسلوب الإتصالات الروحية خاصة منها الظواهر الوساطية العقلية والفيزيقية معا حيث جاءت نتائج إيجابية، وفي تظافر هذه الأساليب يتجمع عدد من الأحداث والوقائع التي يجب أن تخضع للتحليل العلمي لإستخلاص نتائجها، وينبغي بداهة أن يجري ذلك بمعزل عن صحة أو إنكار التجسد حتى يمكن الوصول إلى نتائج حميدة، وهذه التحقيقات تساعد في إثبات الطبيعة الروحية الحقة للإنسان وللعقل والذاكرة، ثم بالتالي لإنفصال ذلك عن نشاط المخ، وهو جهاز مؤقت كسائر أعضاء الجسم المادي، وحتى يمكن القول بازدواج الإنسان في الجسد المادي إلى روح ومادة، ثم بصحة دوام الروح من غير حاجتها، للجسم المادي، وبالطبع هذه هي نظرية الروحية وتشعبها في مسالك الفلسفة والإعتقاد والنفس والأخلاق والبيولوجيا والفيزياء.

قبل الدخول إلى صلب الموضوع يجب أن نصحح مفهوم العودة للتجسد، فقد أطلق عليه القدامى «تناسخ الأرواح» إن مصدر الخطأ هنا هو التناسخ - أو الإلغاء - فلا محل لهذه الكلمة، إنما الأولى أن نقول «تناسخ الأجساد» لأن الروح تبقى دوما، بل تواصل نشاطها في النمو وتحقيق الذات، إنما الذي هو محل النسخ، هو الجسد الترابي الذي تنفصل عنه الروح وقت الوفاة وتعيش في الجسد الأثيري، وذلك إلى أن يأذن الله - حسب رأي أصحاب العودة للتجسد - بأن تحل الروح في جسد ترابي جديد. والمعتقدات الشائعة عن احتمال تقمص روح الإنسان لجسد حيوان، هذا لا يقبل مطلقا وبأي حال من الأحوال، ولن يجد مناقشة بين البحوث العلمية في الروح.

إن أفضل تعبير نجده لموضوعنا هو «العودة للتجسد» وإن كنا لا نرى حرجا إذا استعملنا كلمة «تناسخ كلما وقفنا عند رأي بعض المفكرين القدامى، كما يجب أن نزيح تعبيره «تقمص الأرواح» لأن هذا التعبير هو أيضا خاطئ، بحيث مفهومه يشير إلى حالة الهيمنة أو الإستحواذ الروحي، وهذا لا يعني «العودة للتجسد»، وأما تقمص أرواح الحيوانات والنبات - وهي عقيدة لا زالت - فإنها لا تقوم على دليل.

إن موضوع العودة للتجسد تزايد الإهتمام به، ويكفي أنه متى قيل بثبوت ذلك ثبوتا علميا، وهو ما قاله العديد من المطلعين اطلاعا كافيا على ما جرى من تحقيقات وأبحاث معملية منذ مطلع هذا القرن، فإن ذلك يلقي أضواء كاشفة على أمور خطيرة ومتعددة، من ذلك تفسير النواحي الغامضة في سلوك الإنسان وملكاته وألغازه التي كان علم النفس يقف قديما إزاءها في حيرة واندهاش وعجز إزاء إصراره على حداثة الذاكرة الإنسانية، ثم أنها توضح بعض معالم الحدود بين الشعور واللاشعور، بجانب ذلك إثبات وجود نواميس غيبية تحكم الكون بصرامة لا تقل عن صرامة نواميس المادة، هذه النواميس التي أكددتها الفلسفات العريقة رغم أن مدارس الشك والإلحاد أنكرتها، وبالتالي فإن تثبيت وضعية قانون «العلة والمعلول» يعمل في نطاق الروح باضطراد منطقي صارم، ويعمل في نطاق المادة أيضا، ناهيك على أن الله عز وجل هو حاكم الكون وحكيمه وصانعه على أسس أخلاقية وعادلة، وعلى هذا الكون تلقى أضواء ساطعة على ماهية تلك الأسس الخلقية مما يساعد على تحديد الطريق الصحيح لمسيرة الإنسان في رحاب الأزل الذي لا يعرف الحدود ولا يعرف البداية والنهاية. ثم توافر قدر ما من حرية الإختيار لدى الإنسان وإقامة أسس وطيدة لمسؤوليته الأخلاقية بجانب الروابط الإجتماعية والوراثية التي لا يزال أمرها مجهولا، زيادة على صلة الإنسان بنفسه الذي ثبت أنها أعرق من

جسده بكثير، ناهيك عن دوام حياته بعد الموت وبالتالي صحة مبدأ الخلود. ثم إعطاء مفاهيم لحقيقة الصلة بين العقل والمادة، ونظرية التطور وتحديد مصدره الروحي لا على المصدر المادي الخاطئ الذي نادى به «داروين».

على أي، فإن حالات عدة ستنير هذا الموضوع وتغير جدوره مثل مفاهيم اللاشعور والإدراك خارج الحواس ودور الجهاز العصبي وكيفية قيام وظائفه وتفسير العصبية والنفسية والأحلام التي لا زال لحد الآن موضوعها قاصرا، بجانب هذا تفسير بعض جوانب السلوك الغامضة على علوم النفس والإجتماع والإجرام والتربية.

إنه بحق، يجب أن نتساءل عن هذه المعضلة العظمى، التي لا زالت إلى يومنا هذا مثار جدل، فهل من رأي حاسم ونهائي ؟

في القديم اتجهت الفلسفة إلى التمييز بين الروح والجسد، وإلى الإقرار بكيان الروح قبل الجسد، غير أن هذا الرأي تراجع بسبب سيطرة الفلسفة المادية، ولكن في منتصف القرن الماضي بدأ الرأي القديم يسترجع أنفاسه، وبدأت حقائق العلوم العصرية تعزز جانبها، وبوجه خاص علوم البيولوجيا والنفس والفيزياء، كلها تشير في جلاء أن الربط بين حياة الروح وحياة الجسد وسط خاطئ شأنه شأن الربط بين العقل والمخ، قد نعرف أن العلوم المادية توصلت إلى تعليل جسد الإنسان بتلقيح البويضة وانقسام الخلايا، لكن روحه لا تزال بلا تعليل، وبالتالي مصدر الحياة التي تحل بالجنين بعد فترة طويلة أو قصيرة من بدأ الحمل.

لا شك أن اعتقاد «العودة للتجسد» اعتقاد جديد على أذهاننا، وكل اعتقاد جديد على أذهاننا يحتاج إلى وقت كاف لهضمه بعد دراسة أسانيده حتى يصبح جزءا من وجداننا، وهو اعتقاد لقي مقاومة من الشرق والغرب ولا يزال يلقاها، ربما كان هذا السبب يرجع لعدم فهمنا للنصوص الواردة، وربما هذا الموضوع لا زال يلقى مقاومة مثل ما لقيته التحقيقات الروحية منذ بدايتها الجديدة. والحق أن لا نتعجل الحكم، فالموضوع أجل شأنا من أن نصدر حكما بناء على نصوص لم نستوعبها، ولربما إن نظرنا إليها ثانية وبتبصر غيرت رأينا، فدراسة متأنية قد توجز لنا عناصر الترابط المنطقي وتيسر لنا مجالا أجدى وأنفع.

-XXXV-

التجسد عند الفراعنة والإغريق

إن التجسد عقيدة أخذت انتشارها منذ العصور القديمة، وقد كانت ولا زالت تسود مشاعر عدد من الناس في الهند والصين واليابان، وفي كل بلاد تعرف شيئا عن البوذية أو الهندوسية أو البرهمية أو المانوية أو الكونفشيوسية أو الزرادشتية، وكل هذه العقائد موغلة في القدم، وهذه العقيدة أخذت صورا عديدة وتسربت لها الخرافات العديدة والمبالغات.

وهذا الإعتقاد وجد طريقه إلى قدماء المصريين، وقد يشير «بيكون شيودو» نقلا عن كتاب لمؤلف يدعى «فونتان» إلى نص مرجعه إلى عام 3000 قبل الميلاد يقول : «قبل الولادة عاش هذا الطفل وليس الموت نهايته. الحياة تجيء وتروح كالشمس عندما يبدأ نهارها من جديد».

كما أن ورقة من البردي يرجع تاريخها إلى سنة 1320 قبل الميلاد وجد عليها هذا النص «الإنسان يعود ثانية إلى الحياة عدة مرات لكنه لا يذكر حيواته السابقة، إلا في الحلم أحيانا، أو كفكرة مرتبطة بحادثة مألوفة عنده. وفي النهاية يستكشف له كل حيواته المختلفة».

وانتقلت العقيدة المصرية إلى الإغريق عن طريق «فيريكيدس» وتلميذه «فيثاغورس» الذي كان معاصرا لبوذا معلم الهند ومؤسس الديانة البوذية. ووجد هذا الإعتقاد قبولا والإغريق في أوج ازدهارها، فمثلا «فيثاغورس» 582 - 507 قبل الميلاد عاش في مصر عشرين سنة وربما من هنا أخذ معه عقيدة العودة للتجسد حتى أنه يقول أنه تجسد خمس مرات على الأرض وأنه كان يدعى سابقا «أوفورباس» وقد سار على دربه كل أتباعه، ثم اعتنقها أيضا سقراط أبو الفلاسفة 468 - 399 قبل الميلاد وقال فيها : «إذا كانت كل الأشياء التي من طبيعتها الحياة، أو تلك التي لها بعض صفات الحياة ينبغي أن تموت، وبعد أن تموت تظل باقية في صورة الموت ولا تعود إلى الحياة مرة أخرى، فإن كل شيء سوف ينتهي إلى فناء، ولن يتبقى شيء على قيد الحياة ـ فما هي النتيجة الأخرى التي يمكن أن تكون ؟. . . وجاء دور «أفلاطون» 427 - 347 قبل الميلاد الذي وجد ضالته في هذا الإعتقاد الذي كان يتلاءم مع فلسفته القائلة بأن النفوس التي تحل

الأبدان وجدت قبل وجود الأبدان في عالم سماه «عالم المثل أو عالم الحقيقة» وأن هذه النفوس كانت تدرك هناك المعاني الكلية التي لا صلة لها بالمادة، ثم حلت في أبدانها كما تدرك الجزئيات المحسوسة في عالم المادة عن طريق القوى الحسية التي يملكها البدن، وهكذا ظل أفلاطون يقول : «إن الصورة معقول، والعاقل هو النفس، أي أن النفس من جنس الصورة، والصورة بسيطة، فالنفس إذن بسيطة، والنفس مشاركة في الحياة، فهي إذن تحيا، والنفس تتذكر المثل، فهي إذن قد حيت حياة تأمل في حياة سابقة، ثم أنها بعد الموت ستحيا هذه الحياة نفسها، لأن الحياة بعد الموت من جنس الحياة قبل الوجود»، كما ظل أفلاطون ينادي قائلا : «إن الروح أعرق من الجسد، وأن الأرواح تعود للولادة من جديد بلا توقف في هذه الحياة، وروح الفيلسوف الحق تترفع عن المتع والرغبات بقدر الإمكان، وبالتالي تبعد عن الآلام والمخاوف، لأنها كنتيجة لتكوينها للآراء، بنفس طريقة تكوينها للأجساد، يتعذر عليها الدخول إلى الجحيم ما دامت أصبحت في حالة نقية، أما عندما تغادر الجسد ملوثة بشهواته فإنها سرعان ما تسقط من جديد إلى جسد آخر، وهكذا يمتنع عليها الوصول إلى كل ما هو مقدس ونقي ومتناسق. . . » ومن أجل هذا علق أفلاطون أهمية خاصة على تذكر الماضي بقوله : «فما العلم في الواقع إلا تذكر النفس حالتها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري، وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة يحمل حياتها الراهنة أشبه الأشياء بالولادة، والنفس تبرز ما كان فيها كامنا وفي جوهرها باطنا»، ورأيه في تغير الحياة يجري بين ضدين وفي اتجاهين، فبالنسبة إلى النفس والموت والحياة نرى أن الأحياء يولدون من الأموات، ومعنى هذا أن النفوس التي تدخل في أجسام جديدة فتأخذ الحياة كانت موجودة بعد الموت في مكان ما، ومن هذا المكان أتت فأخذت أجساما جديدة، ويأتي أيضا في طليعة هذا الإعتقاد «أفلوطين» 270 - 205 قبل الميلاد الذي يعد بدوره من أعظم فلاسفة الإغريق والذي سار على درب أفلاطون، لقد كتب عن هبوط النفس قوله : «إن النفس رغم مصدرها القدسي نزلت من المناطق العليا واندمجت في مقابلها الجثماني المظلم، وبما أنه من قدرها أن تصبح روحا علوية فإنها تهبط مختارة حتى تتقوى وتتخلى عن مطالبها الدنيا، وتهبط النفوس حاملة معها اختباراتها مما أدركته، ومما تألمت منه، وهكذا تتعلم كيف تكتسب القدرة التامة على إدراك كمال الحالة السامية».

وهكذا انتشر مبدأ العودة للتجسد من عند الإغريق إلى الرومان، ونذكر منهم «شيشيرون» سنة 43 قبل الميلاد الذي داع صيته في الخطابة والتشريع، ثم الفيلسوف «سينيكا» سنة 2 قبل

الميلاد - 66م، ثم بعد الرومان انتشر لدى الشعوب الأوربية وقبائلها. وقد يقول الدكتور «بابيس جيرار إنكوس» في مؤلفه «العودة للتجسد» : «إنه يمكن القول بأن هذه الفكرة التي كانت بمثابة المشعل المضيء في جميع الحضارات لم تختف أبدا في أي اعتقاد، ويبدو أنها تستند الآن إلى عدة مصادر أساسية : وهي مصر الفرعونية التي تأثر بتعاليمها «فيثاغورس»، ثم أتباع الأفلاطونية الجديدة، والتقاليد الشرقية متمثلة في البوذية، والكشوف الحديثة في الروحية».

-XXXVI-

الكنيسة والعودة للتجسد

تتحدث الأسفار في أصحاحها عن وجود الروح قبل الجسد، ملمحة إلى العودة للتجسد، وكمثال على ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا ـ إصحاح 3 عدد 1 - 8 ـ ما نصه : «كان إنسان من القديسين إسمه نيقود يموس رئيس اليهود، هذا جاء إلى يسوع ليلا، وقال له : يا معلم تعلم أنك قد أتيت من الله معلما، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه، أجاب يسوع وقال له : الحق الحق أقول لك، إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. قال له نيقود يموس : كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد ؟ أجاب يسوع : الحق الحق أقول لك، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل في ملكوت الله، المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح، لا تتعجب إني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق، الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من ولد من الروح».

ويقول أيضا إنجيل يوحنا عدد 49 - 59 ما نصه : «أجاب يسوع : أنا ليس بي شيطان، لكني أكرم وأنتم تهينونني، أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين، الحق الحق أقول لكم، إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد، فقال له اليهود : الآن علمنا أن بك شيطانا، قد مات إبراهيم والأنبياء، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد، ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات، والأنبياء ماتوا، من تجعل نفسك ؟ أجاب يسوع : إن كنت أمجد نفسي فليس مجدي شيئا، أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم أنه إلاهكم، ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه وإن قلت أني لست أعرفه أكون مثلكم كاذبا، لكني أعرفه وأحفظ قوله، أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرآى وفرح، فقال له اليهود : ليس لك خمسون سنة بعد أفرأيت إبراهيم ؟ فقال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم، قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن، فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا في وسطهم ومضى».

إن نصوص الأسفار دفعت بعدد من أبرز آباء الكنيسة أن يقتنعوا بوجود سبقي للروح وبفكرة العودة للتجسد، ومن أبرز أوائل هؤلاء «سان كليمان السكندري» ـ 150 - 220م ـ حيث تقبل عقيدة العودة للتجسد ونسب إلى القديس بولس أنه نادى بها في رسالته إلى أهل رومية، وهذا القديس كان من أبرز دعاة المسيحية في القرن الثالث الميلادي، وقد كتب كتابا عنوانه «توبيخ الملحدين» يقول في إحدى فقراته : «لقد كنا موجودين قبل تأسيس هذا العالم بزمن طويل، لقد كنا موجودين في عين الله، لأن من قدرنا أن نعيش في الله، نحن الخلائق العاقلة للكلمة الإلاهية، لذا لقد وجدنا منذ البدء، لأن في البدء كانت كلمة. . . فالله لا يظهر لنا عطفه علينا لأول مرة عندما نكون في سياحتنا على الأرض، بل لقد عطف علينا منذ البداية الأولى».

وجاء بعده تلميذه «سانت أوريجين» ـ 185 - 254 ـ ودافع عن فكرة التجسد حيث كان رأيه مثار جدل طال أمده، ويقول في إحدى كتبه الذي عنوانه «إزاء السماء» ما يلي : «أليس مما يكون أكثر التئاما مع العقل أن نقول كما قال «فيثاغورس» و «أفلاطون» و «أحبود قليس» إن كل نفس لم تدخل إلى الجسد لأسباب غامضة، بل بحسب ما تستحقه طبقا لأعمالها السابقة ؟ أليس من المنطق أن تكون النفوس التي استخدمت أجسادها في تحقيق أعظم قدر من الخير الممكن للآخرين قد أصبحت ذات حق في الحصول علي أجساد مزودة بصفات أسمى من أجساد الآخرين ؟

إن النفس وهي غير مادية وغير منظورة بطبيعتها، توجد في مكان غير مادي وبغير أن يكون لها جسد مناسب لطبيعة ذلك المكان، وبالتالي فإنها في وقت ما ترتدي جسدا كانت تملك مثله من قبل، لكنه لم يعد بعد ملائما لها في حالتها المتغيرة، وبالتالي فإنها تستبدل له بجسد ثان».

إن آراءه أحدثت صراعا بين أتباعه ومنكريه عن مسألة التجسد، وكانت الوسيلة لحسم النزاع هو وضع حل وسط للمشكلة على المجمع المسكوني الذي عقد بالقسطنطينية سنة 451م لكن الولاء لتعاليم «سانت أوريجين» كانت أكثر من تعاليم معارضيه، وقد كان الإمبراطور «جُسْتِنْيَان» في الشرق ـ 483 - 565م ـ يعمل على تعضيد رأي «سانت أوريجين» كما أعلن بطريق القسطنطينية تأييده لهذا القرار، لكن ما لبث أن حدث تحول في القرار، ذلك أن «جستنيان» وقع تحت تأثير عشيقته «تيودورا» التي أصبحت هي الإمبراطورة ـ 508 - 547م ـ، وكانت ذات تأثير قوي وتكره عقيدة العودة للتجسد، فحاولت أن تمحوها من العالم الغربي، واعتبرها المؤرخون مسؤولة عن قتل اثنين من البابوات لحد أنها أصبحت تختار البابا بنفسها، بل كانت تأخذ بقوة زمام سلطانه الديني. وفي هذا الشأن يقول المؤرخ «جُونْتِرْ رُوزْنْبِرْجْ» :

«فصممت تصميما مطلقا على أن تمحو كل إشارة إلى العودة للتجسد في تعاليم الكنيسة، وسيطرت على الإمبراطور «جستنيان» الذي أصبح لا حول له في مقاومة مخططاتها» ثم هيء للمجمع المسكوني مرة ثانية بالقسطنطينية بعد تاريخه الأول بعشر سنوات، وهو المجمع الخامس في تسلسله، فحضرته مجموعة من الأساقفة كانت ترغب في السيطرة على المسيحية، وكان البابا «فرجيليوس» عاجزا خصوصا وأن سلفين من أسلافه ماتا مقتولين بأمر «تيودورا»، فلما وافق المجمع ـ رغم قلة أساقفته ـ تمكن من الفتك بتعاليم «سانت أوريجين» فأبطلوا فكرة العودة للتجسد من اللاهوت المسيحي، بل هاجموا أيضا كل آباء الكنيسة الأوائل الذين كانوا على خط «سانت أوريجين».

وهكذا يؤكد هذا المؤرخ أن ظلاما كثيفا لا زال يخيم على هذا المجمع، الذي لم يبذل مجهودا لكشف حقيقة الدوافع التي كانت وراءه. هكذا سقطت عقيدة العودة للتجسد ووصفت بنعوت وألغيت كل مناقشة بشأنها في العصور الوسطى الذي كان عصر اضطهاد لمن يعارض الفقه الديني المستقر، ولا شك أن الحصار الديني، أو بالأدق، أن الحصار بإسم الدين كان قد بلغ ذروته في أوربا في تلك العصور، وعندما يقوم الإنفعال الديني بفرض حصاره على العقل، فإنه يكون من المحال على العقل أن يبحث في روية طبيعة الإنسان أو حقيقة قدره ومصيره أو حقيقة النواميس الطبيعية التي تهيمن على سير الحياة.

ومع هذا، فإننا نجد مواقف خاصة لبعض آباء الكنيسة رغم المقاومة الضارية لمبدأ اعتناق العودة للتجسد، فمثلا الأسقف «سينوسيوس» ـ 370 - 413م ـ باليونان، كان فيلسوفا وخطيبا وشاعرا، و «سان جيروم» ـ 331 - 420م ـ من أبرز آباء الكنيسة الغربية، ترجم الأناجيل إلى اللاتينية وله مؤلفات عدة في الدين والتاريخ الديني، و «سانت أوغسطين» ـ 354 - 430م ـ وهو أبرز فلاسفة الكنيسة اللاتينية قاطبة، إليه تنسب صياغة العقيدة المسيحية في صيغة فقه، وله مؤلفات عدة. والراهب الفيلسوف «سان بُونَافِنْتُوْرَا» ـ 1221 - 1274م ـ . و «سان فْرَانْسْوَا الأسِيسِي» ـ 1382 - 1426م ـ وغيرهم.

وبوجه عام، فإن فكرة انتشار عقيدة العودة للتجسد انتشرت انتشارا محدودا في الغرب، وذلك نتيجة المقاومة التي لقيتها من طرف رجال الدين في العصور الوسطى، فهناك طوائف تبنت هذه العقيدة كـ «طائفة الغُنُوطْسِيَة» وهي جماعة دينية فلسفية ظهرت في القرن الأول والثاني للميلاد. و «طائفة الألْبِيجِيِّنْ» في فرنسا. وطوائف أخرى لا زالت تترقب عودة المسيح بالتجسد لا بالروح.

-XXXVII-

الإسلام والعودة للتجسد

في الوقت الذي أعرض فيه هذه الآيات الكريمة، لا أدعي أني أخذت التخصص في شرح القرءان، وإنما أعرضها حسب ظاهر معناها اللفظي مبينا ـ كما أسلفت ـ أني أقف موقف الحياد في مسألة التجسد بحكم أني لا زلت حصر ما في هذا الباب، ولولا أن موضوع الكتاب فرض هذا الموضوع لكان الأجدى أن أترك فكرة التجسد لغيري، ولكن من باب المعرفة أن نفتح الصدر ثم نعير بالمعايير، من هذا الرأي ننطلق، فنستعرض الآيات أولا، ثم رأي بعض الأعلام من المسلمين.

يقول الله عز وجل : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون» وقوله تعالى «قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده، فأنى توفكون» وقوله تعالى «منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى» وقوله عز وجل «وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم، إن الإنسان لكفور» وقوله تعالى «يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون» وقوله سبحانه وتعالى «قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل» وقوله تعالى «وستردون إلى عالم الغيب والشهادة» وقوله عز وجل «نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ـ أي بعاجزين ـ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون».

إن عددا من شراح هذه النصوص القرءانية يؤيد نظرية رجعة الروح تحت أوصاف شتى، ومن ضمنها هذا الوصف الخاطئ الذي هو «تناسخ الأرواح»، فقد أشرنا سابقا أن الروح لا تقبل دخول روح فيها، وهذا شيء غير ممكن مطلقا، وقد يمكن إذا سلمنا جدلا دخول روح في جسد، ومن هنا يمكن أن نقول «العودة للتجسد»، وهذا الخطأ الفادح يذهب بنا إلى الخطأ الذي أشرنا إليه سابقا في مسألة «تحضير أو استحضار الأرواح» وهذا أيضا من أفدح الأخطاء التي نستعملها، فالأرواح لا تحضر أو تستحضر طوع إرادتنا في أي وقت شئنا، وإنما الصحيح أن

نقول «الإتصال بالأرواح» بدل التحضير أو الإستحضار، لأن الروح تسير في ناموس مقيدة به لا يمكن الإتصال بها إلا في حدود قانون وناموس معين يهدف إلى هدف معين.

و«النسخ» أي الإلغاء لا محل له في نواميس الطبيعة التي لا تعرف إلا الدوام مع التطور طبقا لمدى الإتساق الصحيح مع هذه النواميس البيولوجية والروحية، وقد ذهب بعض شراح القرءان إلى إنكار احتمال رجعة الروح مقتنعين بأن الحياة التالية للموت هي الخلود رأسا في النعيم أو الجحيم، فلا محل إذن لعودتها إلى الأرض، وفاتهم أن تلك الحياة هي برزخية على النحو الذي فهمه الكثيرون أيضا من الشراح، ومن هذه الحياة البرزخية يفتح الباب لإحتمال رجعة الروح من جديد لتحقيق تطورها عند الذين يعتقدون بعودة الروح للتجسد.

وقد نجد عددا من أبرز فلاسفة الإسلام لم يتفهموا الحديث عن وجود حياة سبقية للروح قبل أن تولد على الأرض، ومنهم يعقوب بن إسحاق بن محمد بن قيس الكندي، ولد أواخر القرن الثاني الهجري، وقد يقول : «إن نفس الإنسان جوهر بسيط غير فان، هبط من عالم العقل إلى عالم الحس، ولكنه مزود بذكريات من حياته السابقة، وهو لا يقر له قرار في هذا العالم، لأن له حاجات شتى تحول دونها الحوائل الكثيرة فيكون ذلك مثار شعور أليم، ولا ديمومة إلا في عالم العقل، فإذا أردنا أن تقرأ عيننا بتحقيق ما نصبوا إليه، وألا يسلب مناما هو حبيب إلى نفوسنا، وجب علينا أن نقبل على نعيم العقل الدائم، وعلى تقوى الله، وأن نعكف على طلب العلم وعلى صالح الأعمال».

فالكندي يتحدث عن هبوط الإنسان من عالم العقل إلى عالم الحس، وقد زود بذكريات من حياته السابقة وهذه هي نظرية العودة للميلاد قبل أن تتسلل لها الأساطير وتدخل إليها فكرة «تناسخ الأرواح» الخاطئة في مفهومها.

ويقول شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ـ 593 - 632هـ ـ من التناسخ قائلا : «وطريق خلاص النفوس وتطهرها من آثار الجسد يتعلق بهذه المراتب تعلقا أساسيا، إذ أن هؤلاء الكاملين الذين مارسوا الحكمتين العملية والعلمية يصلون إلى عالم الأنوار المجردة، أما هؤلاء المتوسطين في مرتبة الكمال فإنهم يرتقون إلى عالم المثل المعلقة. ولا يجب أن نخلط بين هذه المثل والمثل الأفلاطونية.

والمعلقة قسمان : ظلمة للأشقياء ومستنيرة للسعداء، وفي المثل المعلقة تبقى نفوس الذين حق عليهم العذاب والذين كتب عليهم نسخ أبدانهم، هذا إن صحت قضية التناسخ». قد نجد السهروردي صحيح نسخ الأبدان في قوله لا نسخ الأرواح. هذا قول شيخ شيوخ بغداد، وإن

من أيد مسألة التناسخ عبد الكريم بن أبي العوجاء المتوفى سنة 772م والذي يدور في فلكه المسلمون من القرامطة في العراق والشام واليمن، وقد يعتبر أحمد بن خابط المتوفى سنة 846م زعيم هؤلاء التناسخيين، وكان يقول : «إن الله تعالى خلق الخلق في أبدان صحيحة وعقول سليمة في دار نعيم ليست هي الدنيا، وخلق فيها معرفته والعلم به وأسبغ عليهم في هذه الدار نعمه، فمن أطاعه في كل ما أمر به من التكليف أقره، ومن عصاه أخرجه منها إلى النار، وهي دار العذاب الدائم، أما من أطاعه في بعض ما أمر به وعصاه في البعض الآخر فإنه يخرجه إلى الدنيا ويلبسه فيها بعض هذه الأجسام التي هي قوالب كثيفة للروح ويبتليه بالشدة والألم لبعض عصيانه، أو الراحة والمتعة لبعض طاعته عن طريق التجسد في صور مختلفة من صور الناس والحيوانات على اختلاف أنواعها، وبالقدر الذي كانت عليه معصيته في دار النعيم الأولى، فمن كانت معاصيه أقل وطاعاته أكثر كانت صورته في الدنيا أحسن، ومن كانت طاعته أقل ومعاصيه أكثر صار قلبه في الدنيا أقبح، ولا تزال الروح في هذه الدنيا تتنقل في قوالب وصور مختلفة ما دامت الطاعة مشوبة بالذنوب». وقد نجد بعض فرق الشيعة تؤمن برجوع علي بن أبي طالب، وتعرض المفسر ابن الخطيب إلى تفسير الآية الكريمة «نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون» حيث يقول فيها «يؤخذ من هذه الآية أن الإنسان قد يخلق بعد موته في خلق أدنأ من خلقته وأحط من طبيعته تأديبا له وتعذيبا، كما أنه يجوز أن يخلق في خلق أعلا من خلقه وأشرف من جنسه تعظيما له وتكريما» وهذا القول عارضه الكثيرون خوفا من القول بـ «تناسخ الأرواح». ويقول الدكتور نوفل عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية و «مقرر لجنة التعريف بالإسلام» : «وتفيد آيات القرءان الكريم وجود خلق أكثر من مرة للإنسان مما يؤكد ويساند هذا الرأي، وذلك في مثل النص الشريف «وهو خلقكم أول مرة»، فذكر القرءان الكريم للخلق أول مرة إنما يفيد وجود أكثر من خلق، وهذا الخلق الآخر المقصود غير قيام الناس يوم القيامة، إذ أن القرءان الكريم لم يطلق على قيام القيامة الخلق، وإنما أطلق عليه البعث.

وفي نفس المعنى وتوضيحا له نجد أن هناك آيات كريمة قد أوردت إعادة الخلق، مما يؤكد وجود أكثر من خلق، وذلك بمثل النص الشريف «قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده، فأنى توفكون»، وهذا النص الكرسم «الله يبرأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون» خلق في البداية، ثم إعادة الخلق، ثم الرجوع إلى الله، ورجوع لفظ لا يحتاج إلى تفسير أو بيان، فالرجوع معناه العودة، حيث كان الإنسان مرة، فكأن الإنسان كان عند الله سابقا، ثم خلق في الحياة، ثم

سيرجع إلى ما كان عنده، وسيكون ذلك بعد الحياة ثم الموت، وذلك كما تنص الآية الشريفة «هو يحيى ويميت وإليه ترجعون»، كما توجد آيات شريفة كثيرة قررت عودة الإنسان إلى عالم الغيب مما يؤكد وجود الإنسان في هذا العالم الغيبي، ثم غادره، وعليه فسيعود إليه مرة ثانية. ورد الإنسان إلى جهة، إنما يفيد وجود السابق فيها، وفي ذلك تقول آيات القرءان الكريم «وستردون إلى عالم الغيب والشهادة»، فلا شك إذن في أن الإنسان كان في عالم الغيب قبل عالم الشهادة، أي كان في حياة سابقة لحياته الأرضية، ولذلك نجد أن القرءان الكريم قد قرر أن للإنسان حياتين وموتتين بالنص الكريم : «قالوا ربنا أمتنا إثنتين وأحيينا إثنتين» ويكون المعنى الواضح القريب للآية الشريفة، وجود حياتين للإنسان وموتتين كما يفيد النص، وليست مرتين بالعدد، وبذلك فالآية أوردت وجود نوعين للحياة ونوعين للممات ولم تقصد مجرد العدد، لذلك قالت «إثنتين» لتختلف عن «مرتين» التي تشير إلى العدد».

ويتحدث الأديب «جادو» رئيس تحرير مجلة «الشاطئ» ـ 1948 - 1956م ـ في كتابه «العودة للتجسد في المفهوم العلمي الحديث» 1974م، يقول في إحدى فقراته : «هناك فرق وطوائف وجماعات أخرى كثيرة كانت تؤمن بمذهب العودة للتجسد منها فرق المحمدية، والعلبانية، والمغيرية، والقدرية، ولقد ذكر ذلك جماعة من مصنفي كتبهم، ومن حذاق مبرزيهم من فرق المحمدية والعلبانية وغيرهم، منهم إسحاق بن محمد النخعي المعروف بالأحمر في كتابه المعروف بكتاب «الصراط»، ولعل أول من نادى بهذه العقيدة بين المسلمين، كما جاء في مراجع كثيرة أحمد بن خابط، وكان ذلك قبل عام 847 - 859م، فكان يقول بمبدأ الكرور، أي «تناسخ الأرواح» التي ابتدعتها النفس الكلية في صور تزداد حسنا أو قبحا بمقدار الفضائل التي اكتسبتها في تجسدها الأول، وهذه النظرية تقتضي وجود خمس مراحل : دار عذاب وهي النار، ودار ابتلاء وامتحان وهي دار الدنيا، ودارين للجزاء النسبي، ثم أخيرا دار النعيم التي خلق الخلق فيها. ولقد جاء بعد ذلك كثيرون ممن كانوا يؤيدون العودة للتجسد نذكر منهم ابن باقوس وجعفر القاضي وأبو مسلم الخرساني ومحمد بن زكرياء الرازي الطبيب والحسن بن منصور المعروف بالحلاج ومحيى الدين بن عربي والسهروردي وأصحاب أبي يعقوب المزايلي وأبي جعفر محمد بن علي الشلفاني المعروف بابن أبي الفرائز وغيرهم ممن يستندون إلى قوله تعالى «يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك» وقوله تعالى «جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرأكم فيه».

ويقول في فقرة أخرى «تظهر الروح لكي تؤدي ـ وفقا لعرف معين ـ عملية التطور التي هي أصلا سبب الوجود، ولهذا التطور حاسة غائية فذة هي التطور الأخلاقي، ونظرا إلى أنه ليس في الإمكان إدراك هذا التطور خلال حياة واحدة مفردة بمقتضى قانون طبيعي، فمن الضروري أن تؤديها على مراحل وأطوار على قدر ما هنالك من ضرورة، حتى تضيء الحقيقة الإلاهية بكل فخامتها وأبهتها، وبكل إشراقاتها السرمدية».

ثم يقول : «وهكذا يتم توزيع العدل الإلاهي بالتساوي على كل المخلوقات وعلى جميع الكائنات، وثمة تعبيران جميلان يترجمان قلب القانون ولبه، وهما : المحبة والحكمة، الأول يهدي إلى الصلاح والتقوى والكمال والطيبة. والثاني يقود إلى التعلم والمعرفة والخبرة والتجربة. بمعنى آخر هي الهدف الموضوعي للوجود، والسبب الفعلي للحياة كبوتقة فيها اختبار قاس للنفوس في التطور، وصورة المطلق أو الحقيقة المطلقة تتطلب العمل والتنسك والفهم، والفهم الروحي إنما هو بالإنتصار، وبالأشياء المكتسبة، وبالتحصيل، ويتم هذا عن طريق مرات عديدة من رجعة الروح للبحث عن قدرها، فإذا وصلت إلى هذا الوقت، فإن الحاجة أو الرغبة الملحة لعودة التجسد ستختفي من سبيل الروح المتطورة».

ويقول أيضا : «وفي العصر العباسي حين التقت الثقافتان الهندية والعربية اعتنق بعض الفرق الإسلامية هذه العقيدة مثل البيانية والخباحية والخطابية والراوندية والقدرية والنظامية، ويرى البيروني أن بعض المتصوفين المسلمين ذهب إلى هذه العقيدة في بعض معتقداتهم.

وفي كتاب «الزهر» أو كتاب «النور» نقرأ «أن الأرواح كلها خاضعة لتجربة الرجعة، إذ أن الروح يجب أن تدخل مرة أخرى في الجوهر المطلق الذي منه انبثقت، ولكن لكي تتم هذه الغاية وتكمل يجب عليها أن تنمي جميع الكمالات وتحسنها، أي أن الجرثومة أو النطفة التي زرعت فيها ينبغي أن تبلغ أعلى درجات الكمال. وإذا هي لم تحقق هذه الحالة في خلال حياة واحدة وجب عليها أن تبدأ من جديد في حياة ثانية وثالثة وهكذا، إلى أن تنال الحالة أو الدرجة التي تناسبها للوصول أو التوصل إلى رحاب الله».

هذه عجالة خاطفة أستعرضها، مستنجدا بقول الإمام الغزالي «فقلت في نفسي إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو ذلك الذي تنكشف فيه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة».

-XXXVIII-

التجسد بين الفلسفة والفكر

لقد وجد الإعتقاد بالعودة إلى التجسد صدى من طرف عدد من الفلاسفة والمفكرين سواء من العصر الوسيط أو العصر الحديث أمثال «روجر باكون» 1214-1291م، و«رينيه ديكارت» 1596-1650م، و«توماس براون» 1605-1682م، و«إدوارد يونج» 1681-1765م، و«عامنوئيل سويدنبرج» 1688-1773م، و«فرانسو فولتر» 1694-1778م، و«بنجامين فرانكلين»-1706 1790م، و«عمانوئيل كنط» 1724 - 1804م، و«أونوريه بلزاك» 1799 - 1850م، و«آرثر شوبنهور» 1788-1860م، و«فيكتور هيجو» 1802-1885م، و«فردريك نيتشه» 1844-1900م و«كامي فلاماريون» 1842-1925م، و«جبران خليل جبران» 1883-1931م، و«ميخائيل نعيمة» و«إليا أبو ماضي» وغيرهم كثير.

إن هؤلاء الأعلام والمفكرون لم يكن لهم إطلاع خاص ودقيق بالفلسفة الهندية باستثناء «آرثر شوبنهور» الذي كان على إطلاع دقيق حيث أعجب بها، والواقع أن الفلسفة الهندية تبتسم بكثير من عناصر الغموض والتعقيد والإفتراضات، إلا أنها وصلت في الروح إلى العديد من الحقائق الكونية الصادقة، والعديد من النواميس الأخلاقية والظواهر الروحية، ودور العقل وتأثيره في المادة.

ولست أدري هل هؤلاء الأعلام والمفكرون بنوا إقتناعهم بالعودة للتجسد على نتائج التحقيقات في الظواهر الروحية، مع العلم أنها لم يعلن عنها في عهد العديد منهم، وبالتالي لم تكن بالنسبة لأغلبهم من ضمن عناصر التكوين ؛ وهذا بالطبع ما يفرق بين هؤلاء الأعلام والمفكرين والشعراء عن طائفة الباحثين حاليا، الذين بدأوا أولا منكرين للعودة للتجسد وللظواهر الروحية، ثم تحولوا تدريجيا إلى الإقتناع بها. لعل الإحساس بالعودة انزلق عند بعض هؤلاء إلى اللاشعور فدفعهم دفعا إلى الحديث عنها وإلى الإعتقاد بصحتها، وقد قيل أن من تحدث صراحة عن رجوع الذاكرة إليه بسبب وجوده في مكان معين، حيث تحركت ذكرياته القديمة.

والجدير بالذكر أن الباحثة «إيفا مارتن» جمعت ما يقرب من خمسمائة إسم من أبرز أعلام الفكر والفن والشعر في الشرق والغرب أعلنوا خلال عصور مختلفة أنهم يؤمنون بالعودة للتجسد وكتبوا فيه نثرا أو شعرا، وذلك في كتابها «حلقة العودة».

ويقول العالم «لوتو سلاوسكي» : «إننا إذا أمكننا أن نجمع ما قاله أحكم الرجال في جميع الأصقاع والعصور لكي نحدد موقفهم من هذا الموضوع، يمكننا بسهولة أن نؤكد أن أغلبية ساحقة منهم لا تؤمن فحسب بأن لها وجودا سابقا وعودة للتجسد، بل لقد قاموا بخطوة متقدمة على ذلك، وهي توسيع إعتقادهم الشخصي إلى دائرة نظرية عامة تصدق على جميع الأشخاص، حتى منهم أولئك الغافلين عن ماضيهم، غير الواثقين من مستقبلهم».

إن عقيدة العودة للتجسد في حد ذاتها وثيقة اتصال بدوام وجود الإنسان بعد الموت، بحيث لا يتصور صحتها ما لم تصح أولا عقيدة دوام الإنسان بعد الموت، كما أن العكس جائز بأن تصح عقيدة دوام الإنسان بعد الموت دون التسليم بمبدأ العودة للتجسد من جديد على الأرض، مع الإعتقاد أن الحياة على مستوى من مستويات ما وراء المادة قد تغني على ميلاد الجديد على الأرض.

يقول «جبران خليل جبران» في كتابه «النبي» : «لا تنسوا أنني سوف أرجع إليكم، فترة قصيرة ثم يجمع اشتياقي وحنيني التراب والفقاقيع لأجل جسد آخر، فترة قصيرة، لحظة من الراحة فوق الهواء، ثم تحملني امرأة أخرى».

ويقول «جبران» في أسلوب شاعري يحمل صورة الرمزية مجسدا عقيدته في قوله : «إن مياه البحر تتبخر وتتصاعد ثم تتجمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والأودية حتى إذا ما لاقت نسمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها الأول.

حياة الغيوم فراق ولقاء، كذا النفس تنفصل عن الروح العام، وتسير في عالم المادة، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح، وتلتقي بنسمات الموت فترجع إلى حيث كانت إلى بحر المجد والجمال، إلى الله».

-XXXIX-

عودة التجسد من خلال إرجاع الذاكرة عن طريق التنويم المغناطيسي

لقد ظهر أسلوب جديد في مسألة بحث عودة التجسد من جديد على طريقة عملية أكثر منها نظرية، وهذه الطريقة جعلت رقعة البحث تتسع مع إخضاعها للتحليل المنطقي، ولعل هذه الطريقة ستجعل موضوع العودة للتجسد تزدهر، خصوصا عند الفرنسيين حيث لم يصبح للإفتراض العلمي أي مبرر بعد أن أصبحت الحقيقة تؤيدها مشاهدات يقينية وتعززها حقائق العلم المتنوعة عن الحياة والمادة والتطور والعقل والشعور واللاشعور إلى غير ذلك.

ومن الأعلام الذين أفنوا حياتهم في دراسة الظواهر غير المألوفة وفي تحليلها وتوافق نظرياتهم نظرة التجسد نذكر منهم : «آلان كاردك» 1804-1869م من أبرز الأسماء في الحركة الروحية اللاتينية. و«ليون دنير» 1847-1927م، وهو بحاثة روحي. و«جوستاف جيلي» 1865-1924م أول مدير للمعهد الدولي لما وراء الروح بباريس. و«ألبير دي روشا» و«سير آرثر كونان» و«سير أولفر لودج» و«تشارلي بروض» و«شودز موند» و«آرثر فورد» وغيرهم كثير. وسنختار من بين هذه الطرق العملية طريقة اختبارات «دي روشا» في إرجاع الذاكرة، التي نرى من تعميم فائدتها أن ننقلها بالحرف عن المرجع المعتمد للعلامة الذي لا ينكر فضله في خدمة الروحية، والذي أغنى المكتبة العربية بمراجعه الهامة في هذا الباب، أستاذنا الدكتور رؤوف عبيد. فقد يسرد في كتابه «في العودة للتجسد» طبعة 1976م ابتداء من صفحة 89 اختبارات «دي روشا» قائلا : «من أغرب الإختبارات التي يعتمد الكثيرون أنها ذات وثيق صلة بموضوع احتمال «العودة للتجسد» تلك التي تستخدم التنويم المغناطيسي في محاولة إرجاع ذاكرة الشخص المنوَّم للوراء، لعله يتذكر شيئا من أحداث حيواته الماضية، وقد أمكن أحيانا عن طريق بعض الحالات النادرة للتنويم المغناطيسي إرجاع ذاكرة الشخص المنوَّم إلى ما قبل الولادة في حياته الحالية، فروى بعضهم ذكريات معينة عن حيوات سابقة له مؤيدة بوقائع محددة،

وبأسماء أشخاص، ومدن، وطرقات، ومعالم جغرافية ثبتت صحة البعض منها بطرق التحقيق المادي المألوفة.

ولا ريب أنه يرجع الفضل في افتتاح هذا الأسلوب الجديد في استكشاف أغوار الذاكرة الإنسانية للبحاثة الروحي المعروف «الكونت ألبير دي روشا» الذي كان مديرا للمدرسة الفنية العسكرية بباريس، وكان رائدا من أعظم رواد البحث الروحي في العالم، وتعد مراجعه فيه من أحسن المراجع وأعمقها لغاية الآن.

ولم ينازع أي إنسان في صحة هذه التجارب وفي الثقة التامة في صاحبها، وأن كل الجدال كله يدور حول تعليل النتائج التي وصل إليها، وهل تشير فعلا إلى صحة «العودة للتجسد» أم فحسب إلى أن وعي الشخص المنوَّم كان على صلة بعقول أخرى عديدة متحررة من أجسادها المادية، يستمد منها قدرا ما من المعلومات الصحيحة، وقد رجح التعليل الأول لإعتبارات كثيرة مررنا ببعضها آنفا، وسنمر بباقيها فيما بعد.

وهذه التجارب أجراها الكونت «دي روشا» في الفترة من سنة 1893م إلى سنة 1910م، ودفعته نتائجها إلى أن يكتب قائلا : «من المؤكد أنه عن طريق السبل المغناطيسية يمكن لدى أشخاص يملكون حساسية كافية، إحداث سلسلة من أوجه السبات، وحالات اليقظة النومية الحركية التي تتتابع بانتظام، كما تتتابع الليالي والأيام، وخلالها تبدو الروح وقد تخلصت شيئا فشيئا من أربطة الجسد واندفعت إلى مناطق في المكان وفي الزمان، لا يمكنها أن ترتادها بوجه عام في حالة اليقظة العادية، ومن المؤكد أنه عن طريق عمليات مغناطيسية معينة يمكن للإنسان أن يقود تدريجيا غالبية الوسطاء إلى عصور سابقة لحياتهم الراهنة بكل ما في هذه العصور من خصائص ذهنية وفسيولوجية مميزة، وذلك إلى لحظة ميلادهم، وليست هي محض ذكريات توقظ، بل هي حالات متتابعة من الشخصية تستدعى، وهذه الإستدعاءات تحدث دائما بنفس النظام، وخلال تتابعات من السبات، ومن حالات اليقظة النومية الحركية.

ومن المؤكد أنه بمتابعة هذه العمليات المغناطيسية إلى ما بعد الولادة، وبدون حاجة من اللجوء إلى الإيحاءات، يمكن للإنسان أن يمر بالمنوَّم إلى تجسدات سابقة، وإلى فترات تفصل بين هذه التجسدات. والموكب هو نفسه يتم عن طريق تتابعات السباق، وحالات اليقظة النومية الحركية.

وهذه الحالات من «كشف الماضي» عندما أمكن تحقيقها لا تعبر عن الحقيقة دائما، ولكن من الصعب أن نفهم كيف أن نفس التجارب الفيزيقية التي تحدد ابتداء تراجع شخصيات حقيقية للوراء إلى لحظة الميلاد يمكن بغتة أن تسمح بحدوث هلوسات زائفة تماما.

ومن المؤكد أنه بمتابعة «التمريرات الموقظة» إلى ما بعد العمر الحالي للشخص المنوِّم يمكن للإنسان أن يحدث ظواهر مماثلة لتلك التي أحدثها في الماضي، بمعنى حدوث نفس الأوجه المتقابلة من السبات ومن حالات اليقظة النومية الحركية، وفيها يلعب الشخص أدوارا تقابل أدوار حياته اللاحقة، إما في حياته الراهنة، وإما في حيواته السابقة.

ولم يمكن بعد مراقبة حقائق التوقعات المستقبلة التي يمكن أن يعزى بعضها في الراجح إلى مخططات الشخص فحسب، ومع ذلك فقد ثبت في ظروف عديدة بما يكفي، وإن كانت لم تحدد بعد، إنه يمكن للإنسان أن يرى أشياء في المستقبل». وهذه النتائج الخطيرة تمثل ثمرة بحوث جرت على تسعة عشر شخصا، وأمكن تكرارها مع «لويز» و«مايو» لمدى عدة سنوات متتابعة، ويضيق المقام عن إيراد جميع هذه الحالات، لكن تكفي هنا الحالة رقم 7 التي جرت أحداثها في سنة 1905م والتي هي أهمها إطلاقا وأكثرها استرعاء للإنتباه، وقد تكشفت عن أحد عشر تجسدا متتابعا، وهي حالة السيدة «روجيه»، وقد سردها «دي روشا» على النحو الآتي :ـ بعد أن نختزل بعض الوقائع ونكتفي بتلخيص البعض الآخر لضيق المقام ـ.

حالة السيدة "روجيه" في تجسدها الراهن.

رغم أن «دي روشا» كان منوما بارعا إلا أنه كان مع ذلك يستعين بمنوم قدير يدعى «بوفييه» من «ليون» في نفس الوقت كان رئيسا لتحرير مجلة تدعى «السلاح العالمي» وكان ابن «بوفييه» يقوم بتدوين مضابط الجلسات، وكانت هذه الجلسات تبدأ بمحاولة إرجاع ذاكرة الشخص المنوَّم بتمريرات طويلة مصحوبة بالإيحاء على النحو الآتي :

س – لكولونيل «دي روشا» للسيدة المنوَّمة «روجيه» وكانت في التاسعة والثلاثين من عمرها : أنت الآن في الخامسة والثلاثين، فماذا تعملين ؟

ج – أعمل في صناعة الحرير، ولا أحبها.

س – أنت الآن في الثلاثين فقط، فماذا تعملين ؟

ج - في صناعة الحرير.

س- أنت الآن في العشرين، فماذا تعملين ؟

ج - أنا مع والديّ، وأعرف رجلا، أعتقد أنني سأتزوجه، لكنني لست متمسكة به كثيرا، إنها أمي هي المتمسكة به ولست أنا.

س - وماذا يدعى ؟

ج - «أندريه».

س - هل يعجبك ؟

ج - إلى حد ما.

س - ماذا يعمل ؟

ج - عامل بالأجرة عند ساعاتي.

س - هل تعرفين السيد «بوفييه» المنوِّم من «ليون» ؟

ج - كلا.

س - ومع ذلك فهو معروف جيدا في «ليون» بوصفه منوّما قديرا.

ج - لا أعرفه.

س - ـ من السيد «بوفييه» ـ ماذا كنت تعلمين عندما كنت في الثانية عشرة من عمرك ؟

ج - أطهو الحساء.

س - أين تقطنين ؟

ج - شارع «بلفدير»، 4 حديقة «بيسار دون» مع أبي وأمي.

س - هل أنت سعيدة ؟

ج - إنهم يؤنبونني كثيرا.

س - هل تذهبين إلى المدرسة ؟ وأين هي ؟

ج - مدرسة الآنسات حيث توجد الآنسة «روز» والآنسة «أجات».

ثم يقوم «بوفييه» بإرجاع ذاكرة المنوّمة إلى مرحلة الحمل ثم إلى ما قبلها :

س - مذا تعملين في الفضاء ؟

ج – لسياحة.

س – ما شكلك ؟

ج – فتاة شابة.

س – هل ترين أشياء من حولك ؟

ج – لي رفيقات، وأراهن ضاحكات.

س – هل لديهن تكوين جثماني ؟

ج – تبدو أحيانا لهن أشكال أطول مني، وأسعد مني.

س – هل لك مدة طويلة وأنت على هذه الحال ؟

ج – نعم وقت طويل بما يكفي.

س – وماذا أنت ؟

ج – أنا آنسة.

س– هل عشت على الأرض ؟

ج – نعم، وقد قالوا لي أنني غادرت جسدي.

س – وكم كان عمرك «وقت مغادرته» ؟

ج – تسعة عشر عاما وبضعة شهور.

س – استردي جثمانك لأنك تبلغين التاسعة عشرة فقط من عمرك.

وعندئذ تتدمر المنوّمة، ويبدو عليها الألم مع صعوبة التنفس.

س– أنت تعلمين أنك مريضة، فهل ذلك منذ مدة طويلة ؟

ج – منذ ثلاث سنوات.

عن التجسد الأول "السابق مباشرة على تجسدها الراهن"

س– ما إسمك ؟

ج – «مادلين».

س– ماذا تعملين في السادسة عشر من عمرك ؟

ج - لست سعيدة، يبدو لي أنني لن أعيش طويلا.

س- إسمك «مادلين» وما هو إسمك الثاني ؟

ج - «مادلين بولييه».

س- في أي عام نحن ؟ «أي في أي عام أنت تشعرين الآن ؟»

ج - سنة 1824م.

ش- ماذا تفعل أسرتك ؟

ج - تتجول.

س- هل تتجول للترفيه أم للتجارة ؟

ج - للترفيه.

س- وأنت ماذا تعملين ؟

ج - أتجول أحيانا مع أسرتي، وأحيانا أخرى أمكث مع والديّ الطيبين.

س- وأين يقطن والداك الطيبان ؟

ج - في «مونبلييه».

س- في أي شارع ؟

ج - «سانت إيلير».

س- هل يوجد رقم على المنزل، أم ثمة أشجار أمامه؟. . . أعطنا أية علامة حتى نتعرف عليه ؟

ج - أشجار أمامه.

س- ماذا تعملين ؟

ج - أتعلم الطرز والغناء.

س- هل تذكرين أيام شبابك ؟

ج - لا أذكرها جيدا.

وفي هذه اللحظة بدا عليها مظهر البحث عن شيء، وقالت، إنها تريد أن تعمل.

س- في سن العاشرة ماذا كنت تعملين ؟

ج - ألعب مع رفاقي.

س- ما إسم والديك ؟

ج - «بولييه» وهما متقدمان في السن، وجدتي بيضاء تماما، وهم مرضى.

س- ماذا يعمل والداك ؟

ج - يجولان في المدن الكبرى.

س- هل يعملان في التجارة ؟

ج - يعملان في التجارة قليلا، وتجوالهم بالأكثر للترفيه.

س- في سن السادسة ماذا تعملين ؟

ج - ألهو، وبدا عليها أنها تلقي شيئا، وتطلب أن يلقى لها «البالون» كما بدا عليها ضيق الصدر والغضب عند التأخير، وفي سن الثالثة أخذت تطلب الحلوى بإلحاح، وفي سن الواحدة أخذت تحطم كل شيء يعطي لها وبدا عليها سوء الطبع. وفي سن الستة أشهر أخذت في البكاء وفي اتخاذ مظهر العناد، وفي رحم الأم أخذت وضع الجنين.

عن التجسد الثاني "للوراء"

س- ماذا تفعلين كروح ؟

ج - أنا أتنزه طيلة الوقت، وأرى أقاربي وأصدقائي الذين لا يرونني «لأنهم لا زالوا في عالم المادة»، كما أتمنى أن أرى خطيبي «لويس» الذي سبقني إلى عالم الروح لكنني لا أجده.

س- هل ترين جثمانك ؟

ج - إنني أرى جثماني كآنسة في مقبرة في «بريانسون».

س- هل شاهدت نفسك في لحظة الإحتضار ؟

ج - لقد رأيت نفسي بنفس الشكل.

س- أنت تغادرين جثمانك «عندئذ أخذت المنوّمة في السعال بكثرة، ومرت بحالة الموت، ومال الجسم للوراء، وأصبح باردا».

س- أنت تعيشين من الناحية المادية، فما هو عمرك ؟

ج - 25 عاما.

س- في أي عام أنت ؟

ج - 1760.

س- ما إسمك ؟

ج - «مرجريت ديشين»

س- في أي سنة ولدت ؟

ج - في سنة 1735م.

س- ما إسم أبيك ؟

ج - «لويس ديشين».

س- ماذا يعمل ؟

ج - صاحب تجارة بقالة بشارع الثكنة.

ثم أخذت في السعال، وشكت من صدرها وقلبها.

س- ماذا يؤلمك ؟

ج - أنا مريضة تماما، ويقولون أن داء الصدر قد يقضي عليّ، وأنا في عذاب.

س- أنت إذن تتعذبين، فيما هي العلة ؟

ج - كنت أحب جنديا شابا لكنه توفي.

س- ما إسمه ؟

ج - «لويس جيل مارتان»، آه أيا لويسي العزيز.

س- أين كان جنديا ؟

ج - في «بريانسون».

س- هل كان من «بريانسون» ؟

ج - كلا، بل كان من «مرسيليا».

س- أنت الآن لا تتجاوزين العشرين من عمرك، فماذا تعملين ؟

ج - أفكر في «لويس مارتان».

س- وفي الثامنة عشرة ماذا تعملين ؟

ج - أساعد والديّ في تجارة البقالة.

س- وفي الخامسة عشرة ماذا تعملين ؟

ج - تركت مدرسة «راهبات الترينيتيه» التي أحبها كثيرا.

س- وأين تقع هذه المدرسة ؟

ج - بشارع «جارجوي» ويقول «دي روشا» أنه اتضح فعلا أنه توجد في «بريانسون» مدرسة للبنات الصغيرات تديرها راهبات «الترينيتيه» تقع بشارع «جارجوي».

س- وفي سن الثامنة ماذا تعملين؟

ج - أذهب إلى راهبات شارع «جارجوي».

س- وفي سن الثانية ؟

ج - لا أريد أن أذهب إلى شقيقتي. . .

س- وفي سن الواحدة ماذا تعملين ؟

ج - أجلس على ركبتي والدتي وتدللني.

وبعدئذ عجزت المنّومة عن الإجابة، فجعلها المنوِّم السيد «بوفييه» تسترد قدرة الرؤية بدلا من أن تعيش ماضيها، وأخذت في الإجابة كإنسان واع تماما لما جرى في طفولته.

س- ماذا تعملين في سن ستة شهور ؟

ج - إنني مريضة تماما، وكان عندي تشنجات.

س- مانوع هذه التشنجات ؟

ج - يقولون أني أتلوى.

وهنا يجعلها السيد «بوفييه» تتقدم في العمر إلى سبعة شهور ويسألها :

س- ماذا تعملين ؟

ج - يضعونني في الماء لعلاجي، ويقولون أنني عصبية تماما.

س- وفي سن الشهرين، ماذا تعملين ؟

ج - لقد وضعوا عليّ غطاء ثقيلا.

س- لا زلت جنينا في بطن أمك ؟

ج - الدنيا ظلام «وهنا أخذت المنوّمة منظر الجنين الموجود في بطن الأم وانطوت تماما على نفسها، وبعد الإيحاء إليها بتمام خمسة شهور من الحمل فردت نفسها قليلا، لكنها ظلت بلا حراك، وذراعاها ساقطتان إلى جوارها ملقية ظهرها على «الفوتيل» وتبدو بلا حياة».

عن التجسد الثالث

وهكذا تسير التجارب حتى تنتقل السيدة المنوّمة إلى حياة ثالثة لها سنة 1780م كانت فيها رجلا بإسم «جيل روبير» ولد في «سان بيير» بالقرب من «بريانسون» وكان والده مزارعا وتوفي في سن الثانية والأربعين.

وأعطى هذا الرجل بيانات دقيقة كثيرة منها إسم قس الناحية «أنطوان»، وصاحب المزرعة «بارنو»، وقال إنه يعمل في صناعة الأحذية وفشل فيها، ثم عمل بائع جرائد. ولما سئل عن إسم الجريدة، قال جريدة «الإستمرار»، وقد اتضح فعلا وجود جريدة محلية بهذا الإسم كانت تصدر في «الألب العليا» في وقت الإختيار، كما عمل في بقالة في «بريانسون» وعمل مساعدا لنحات معروف في «ميلانو» يدعى «باولي» كان يصقل له الرخام، ووصف بعض قطعه الفنية، وقال إنه كان بائسا، وتوفي في «ميلانو» بمرض السل.

عن التجسد الرابع

وفي وجوده الرابع يقول أنه كان أنثى من جديد، واسمها «جيني ليدوفيك» وأنها تزوجت «أوجست ليدوفيك» الذي كان يعمل حطابا في «بلورميل» وأنها أنجبت طفلين هما «أوجست»

و«جان»، ويبدو أن «جيني» هذه توفيت في سنة 1702م بسبب ولادة متعسرة وكانت في الثلاثين من عمرها.

وأعطت «جيني» تفصيلات كثيرة عن طفولتها قائلة أنها لم تشاهد والديها، وكفلها عمها الذي كان يعمل عطارا. . . كما قالت أن زوجها كان أرملا وله ولدان من زوجته الأولى «آلان» وقالت أنها كانت تجمع النباتات والأزهار النادرة اللازمة لعطارة عمها.

عن التجسد الخامس

اما الوجود الخامس لهذا الشخص فينتمي إلى الذكور بإسم «ميشيل بيري»، ويقول أنه ولد في «مونتمورانسي» في سنة 1493م، وأنه منذ العاشرة من عمره عمل خادما بالبلاط الملكي، وروى عدة تفاصيل عن عمله، وقال إنه في العشرين من عمره علم بأن سويسريا طعنه طعنة قاتلة بخنجره، وأنه كان أزرق العينين، أشقر الشعر، جميل الملامح، ، موضع تودد النساء، كما روى مغامرات غرامية مع شارلوت دي منتمورانسي» و«ديان دي كوسي» عندما كان يعمل في خدمة والدها في «بلوا» ثم انضم إلى حرس الملك، واشترك في حرب ضد السويسريين تحقق فيها الحلم الذي سبق أن رواه، وكان عند ذاك في الثانية والعشرين من عمره.

س- وفي أي مكان أصبت بجرحك القاتل ؟

ج - في «مارينيان» سنة 1515م.

س- وفي أي جانب كنت تحارب ؟

ج - مع الفرنسيين، وتحت إمرة «فرانسوا».

س- أي «فرانسوا» ؟

ج - «فرانسوا» سيدي ورئيسي، وبحق الله ملك فرنسا.

س- وما إسمك ؟

ج - «ميشيل بيري».

س- ومن ذا تحارب ؟

ج - أولئك السويسريين الخنازير.

عن التجسد السادس

وبعدئذ يقوم «دي روشا» بإحياء الوجود السابق، أي السادس في هذا التسلق الزمني المذهل، فإذا بهذا الوجود متعلق بفتاة شابة تدعى «مارييت مارتان» مرت على الأرض مرورا عابرا، إذ توفيت في العشرين من عمرها.

وقالت أنها ولدت في سنة 1302م، وعند سؤالها عن إسم الملك المعاصر أجابت : «لا أعلم، لكنهم يقولون أن إسمه «فيليب الجميل» وأعطت عن طفولتها بيانات قليلة، منها أن والدها يصنع رسوما لوضعها في الغرف، وأنه يعمل لحساب الملك، وأنها تذهب إلى المدرسة، وتعذر تماما الحصول منها على أية بيانات عن الفترة من 12 إلى 16 سنة، وإن كان يبدو أنها كانت تعاني من مرض خطير، وفي الثامنة عشرة تقول أنها شابة وصيفة تقيم عند «الكونتيسة جيز» التي عهدت إليها بتعليم أبناء شقيقها، وفي التاسعة عشر تلتقي بمن يدعى «جاستون» وتزمع الزواج به، لكن خطيبها يروح ضحية حادثة سقوطه من على ظهر فرسه، فتمضي عامها الأخير في «ڤان» عند والدة «جاستون» كمعلمة، وتقضي بعد معاناة آلاما ضخمة.

عن التجسد السابع

أما الوجود السابع لهذه الشخصية فهو أغنى من هذا بالبيانات، وأغرب ما في الموضوع أنه عندما كان «دي روشا» يدفعها إلى تخطي الحاجز بين هذا الوجود وسابقه كان يبدو عليها عدم التنبيه إلى أنها قد غادرت جسدها المادي. وتقول إنها تعمل رئيسة دير، وأنها توفيت في سنة 1010م وكانت في السابع والثمانين من عمرها.

وعندما سئلت عما كانت تفعله في سن السابع والسبعين، قالت : إذ ذلك يقع في سنة 1000م، وأن العرافين قد تنبأوا بقرب يوم القيامة، وبوفاة جميع البشر، لذا كان الذعر عظيما.

وتقول ان إسمها كان «لويز دي ماراي» وأنه كفلها عمها «الفيكونت دي ماراي»، ودخلت إلى دير «سان دنيز» عندما كانت في الثامنة عشر، وترهبت في العشرين وأصبح إسمها الأخت «مارتا» وكان رئيس الدير قسا كهلا يدعى الأب «لوتي» في السبعين من عمره، وبعد عشرة أعوام أخرى لا تزال في الدير، وتصبح عشيقة للرئيس الجديد للدير، الأب «شوازيل»، وتتحمل تأنيب الضمير بسبب ذلك.

وفي الستين تصبح رئيسة للدير، وعليها الإشراف على فتيات شابات من أسر عريقة، وتحاول أن تضمّهن للدير بكل السبل، وبينهن «بلانش» من باريس التي تؤكد أنها أودعت في الدير بأمر من الملك نفسه.

س- أي ملك ؟

ج - الملك «كابت» لقبه «هيج».

س- ولماذا أمر الملك بإيداعها ؟

ج - حتى يستولي شقيقها «روبير» على كل ما لها.

ويبدو من تأنيب ضميرها أنها كانت سببا في آلام هاته الفتيات الشابات، وأنها كانت حارسة عليهن وتمنعهن من مغادرة الدير، وظلت كذلك إلى أن توفيت.

س- هل تستطيعين أن تخبريني عن إسم الملك ؟

ج - إنه «روبيرت» الثاني.

س- وحينما كنت في السبعين من عمرك من كان الملك ؟

ج - «كابت».

س- وفي الستين ؟

ج - «لويس الرابع».

س- وفي سن 36 ؟

ج - «لويس الرابع»، ويقولون إنه رجل ليس جميل المنظر، فهو سمين متورم ولم أره قط.

س- وحينما كنت في سن 24، فماذا كانت السنة ؟

ج - 947 ميلادية.

س- ومن كان الملك ؟

ج - «لويس الرابع».

س- وعندما كنت في سن الخامسة عشرة ؟

ج - هو نفسه «لويس الرابع»

عن التجسد الثامن

وعندما يتابع «دي روشا» استكشافه لماضي هذا الشخص خلال حيواته المتعاقبة، يصل إلى وجوده الثامن على الأرض الذي يقع في سنة 449م. وعندئذ يفرك الشخص عينيه بعنف ويبدو متألما منهما. وبسؤاله يبين أنه محارب متطوع إسمه «كارلوميه» إنه وقع أسيرا في قبضة «أتيلا» في معركة «شالون سيرمان» حيث أحرقوا عينيه.

وعندما سئل عن السبب اقتصر على القول بأن هذا هو ما أعجبهم مشيرا بذلك إلى ملوك «الهوت» ـ «وهم شعب همجي من أصل فنلندي قدموا من شواطئ بحر قزوين، وغزوا بلاد الغال ـ فرنسا القديمة ـ بقيادة قائدها «أتيلا» حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي ـ وقال أيضا، إنه لم يكن محاربا بسيطا، بل قائدا، ولذا نكلوا به. وأن رئيسه «ماسويه» كان بدوره مرؤوسا لمن يدعى «ميروفيه» كان قائدا للقواد.

فسأله «دي روشا» عما إذا كان يعرف الله، فأجاب : «يوجد واحد فوق الجميع هو «ثيوس».

س- كيف تعبدونه ؟

ج - يقدمون له الرجال الذين يحرقونهم أحياء، وهذا جميل جدا !

وسئل عن سني مراهقته وطفولته، فكانت الإجابات عادية، وحدد إسم والدته بأنه «لي كارلوميه»، وأنه ولد في «البينو» على نهر «التورن».

عن التجسد التاسع

وعندما تبدأ استثارة الوجود التاسع يبدو على الشخص الألم الشديد، وتبدو قبضتا يديه ـ اللتين وضعهما الواحدة فوق الأخرى ـ كما لو كانتا مقيدتين، ويحاول الخروج من قيوده، وعندما يسأل عن مصدر آلامه يقول أنه يحرق، وقد أصبحنا في سنة 179م.

ويقول إن اسمه «أيزيوس»، وأن عمره أربعون عاما، ويقوم بحراسة الإمبراطور «بروباس» في «روميلوس» بـ«روما، وكلمة فكلمة يروي تاريخه المحزن قائلا : إنه ولد في «تورينو» حيث كان أبواه يعملان في الزراعة، كما كان يعمل فيها مثلهما.

وعندما يسأل عما إذا كان قد تعلم القراءة والكتابة بالإيجاب :

س- كم عدد حروف الكتابة ؟

ج - خمسة عشر حرفا.

س- ماهي ؟

ج - لا أذكرها جيدا. . . ثم يذكر منها حروفا.

ثم يتزوج فتاة صغيرة تدعى «فلورينا» ثم يستنجد بالآلهة، وعند سؤاله عن ماهيتها بحسب «إنها هي التي تنبغي عبادتها، وهي التي تتسبب في قتل الناس، ومع ذلك تقدم إليها التضحيات».

س- وكيف تتم التضحية ؟

ج - بتقطيعها إربا إربا. . . كم أتمنى أن أتمكن من الذهاب لإنقاد الضحايا.

وبعدئذ حدثت المأساة إذ حضر حرس الإمبراطور «بروتوميه» إلى «تورينو» وتحدثوا مع «فلورينا» عن القصر، وعن الإمبراطور، واتفقوا معها على التوجه إلى «روميليس» بـ «روما» ولما رفض «إيزيوس» التوجه معهم، اختطفها الحرس. فاضطره «إيزيوس» إلى اللحاق بهم في «روميليس» بعد مسيرة خمسة عشر يوما على الأقدام طلب من رئيس الحرس «بيكيوس» أن يدخل في خدمة الإمبراطور فقبل طلبه. وعزم على الإنتقام من الإمبراطور الذي أخذ منه فتاته، وهم بضربه بحربته عندما كان على وشك أن يغتصب «فلورينا» فأمسكوا به وأحرقوه، و«فلورينا» معه، لكن قبل أن يتمكن الإمبراطور من اغتصابها بسبب محاولة «إيزيوس»، «وهكذا خرج الإمبراطور من القصر وشعرت بأنني قد ثأرت لنفسي، وأن ثمة شيئا يغريني، وهو أن «فلورينا» ماتت طاهرة». . . وهكذا مات «إيزيوس» في لهيب المحرقة سنة 279 ميلادية.

عن التجسد العاشر

أما الحياة العاشرة لهذا الشخص فقد كانت صورة امرأة تدعى «إرسيه». وبعد تردد قالت إنها ولدت في سنة مائة ميلادية في بلاد تدعى «إيموندو» وتعيش مع شخص يدعى علي يعمل كاهنا، وتجمع له أزهارا يقدمها إلى آلهته إبراهيم و«جوزيه». وهو يحرق الأزهار ويقدم عطرها للآلهة.

وفي سن الرابعة كانوا يضربونها كثيرا، وتسببوا في موت والدتها. وفي سن السادسة كانوا على وشك أن يضحوا بها في سبيل الآلهة، لولا أن أنقذها «جيوس»، وهو حاكم بلاد «إيموندو» كلها، وأخذها لتعيش عنده حتى بلغت الثامنة عشرة من عمرها.

وعند استيضاحها عن موقع بلاد «إيموندو» قالت إنها قريبة من «ترسيتا»، وقالت إنها عندما بلغت التاسعة عشر من عمرها وقع «جيوس» أسيرا في معركة من المعارك، فكانت تذهب وتقدم له الطعام حتى لا يموت جوعا، وحاولت أن تنقذه بالتوسل إلى من أسره، ويدعى «جوانيم».

وهكذا جرى مع «أريسيه» حوار طويل تضمن تفصيلات أخرى عن حياتها هذه التي انتهت عندما بلغت السادسة والعشرين.

عن التجسد الحادي عشر

أما الحياة الحادية عشرة فهي على جانب يسير من الأهمية : عبارة عن حياة طفل توفي في الثامنة من عمره، ولم يحرز أية اختبارات رغم أنها تمثل مرحلة واحدة في سلسلة من الحيوات التي تمتد إلى ماضي الروح منذ زمن سحيق، والتي كشفت عنها محاولة من محاولات استكشاف مجاهل اللاشعور، تمت بأسلوب فريد، وتكشفت عن نتائج تستوجب الحيرة، بل الذهول الشديد. وحسبما لاحظه «دي روشا» أن من المحال على خيال شخص خاضع للتنويم المغناطيسي أن ينتج هذا القدر الضخم من التفصيلات عن حيوات تبدو أنها قد تحققت بالفعل. وإذا صح افتراض الخيال بالنسبة لحياة واحدة، فما بالك إذا تعلق الأمر إحدى عشرة حياة متعاقبة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن تكرار نفس الإختبارات مع نفس الشخص أدى إلى نفس النتائج، وإلى وقوع الشخص في نفس الأخطاء المتعلقة بالذاكرة.

ومن ذلك مثلا تلك المتعلقة بسني حكم الملوك والقواد الذين أشارت إليهم هذه الشخصية المنوّمة. ذلك أنه لما روجعت كتب التاريخ الخاصة بهذه الأزمنة كانت التواريخ كالآتي :

«فراسو» الأول : 1515م ـ 1547م.

«فيليب الجميل» : 1478م ـ 1506م.

«روبرت الثاني» : 996م ـ 1031م.

«لويس» الرابع : 936م ـ 954م.

«أتـــــيـــــلا» : 434م ـ 453م.

وبمقارنة هذه التواريخ بتلك التي ذكرتها السيدة وهي واقعة في التنويم المغناطيسي، اتضح أنها تكاد تكون متطابقة عدا حالة أو إثنين في حياتيها السادسة والسابعة، فإن التواريخ تختلف عن الواقع ببضع سنين فقط، وهذا الأمر طبيعي إذا روعي البعد السحيق لهذه التجسدات عن الحياة الحالية.

كما أن تكرار نفس الإختبارات عدة مرات كثيرة مع الشخص الواحد أدى إلى إعادة سرد نفس التجسدات بترتيبها الزمني الذي سبق بيانه، وهو ما يتعذر تعليله عند القول بأن هذه الوقائع من محض الخيال، كما يتعذر تعليله عند القول بأن هذه الشخصية ـ وهي في غيبوبتها المغناطيسية ـ كانت واقعة تحت تأثير كائنات غير متجسدة تروي عن طريقها ذكرياتها الأرضية الخاصة.

ذلك أنه في هذا الفرض الأخير ـ يكون تعاقب الأرواح كما اتفق، ولا يتبع تسلسلا زمنيا معينا، وعند تكرار التجربة يجيء تعاقب جديد بوقائع جديدة تماما وهو ما لوحظ في جلسات الغيبوبة الوساطية عندما يقع الوسيط تحت تأثير هيمنات مختلفة في الجلسة الواحدة، أو في عدة جلسات متعاقبة حيث تتنوع الوقائع تنوعا ضخما، ولا تتبع تسلسلا ثابتا، ولا يمكن إعادة الوقائع بنفس تفاصيلها وترتيبها، ولو كان الوسيط لم يتغير».

-XXXX-

عرض حالتين للعودة إلى التجسد

يقول «هـ. فيلدنج هول» صاحب كتاب «روح شغب» وهو يروي قصة فتاة في السابعة كانت في تجسدها السابق رجلا يعرض العرائس المتحركة.

والقصة أنها أخذت الدمية على الفور من والدها، وأمسكت خيوطها بطريقة صحيحة مع العلم أنها لم تكن قد رأت عروسة من الدمى متحركة وقالت : «لقد تزوجت بأربع نسوة، ماتت منهن إثنان وطلقت الثالثة، وظلت الرابعة على قيد الحياة حتى وفاتي، ولا تزال حية ترزق، وإنني كنت أحبها حبا جما، وأما التي طلقتها فإنها كانت امرأة سليطة، وإذ أشارت إلى ندبة على كتفها أضافت ـ تطلع إلى هذا، إنها أمسكت بساطور وهوت به على كتفي».

فتتبع «فيلدنج» هذه الحالة، إذ تبين له أن العلاقة المميزة ولدت بها الطفلة لما كانت من قبل، كما عثر على الزوجتين المطلقة والمحبوبة، فهما لا زالا على قيد الحياة، وأعطيا حقيقة زوجهما. وقد سأل الفتاة في بساطة، لماذا لا تعودين للإقامة مع الزوجة المحبوبة ؟ أجابت أيضا ببساطة : «كيف ! لقد تم كل ذلك في حياة سابقة !» لقد وصفت أماكن وأناسا عرفتهم في حياتها السابقة.

هذه حالة أولى، أما الحالة الثانية فهي تتعلق بجندي يولد من جديد، وهذه الحالة نشرتها مجلة بنيويورك في شهر يوليوز 1915 بقلم رسامة كانت الأخت الكبرى للصغيرة «آن» وهذا في «مينابوليس» والأسرة بكاملها لا تدري عقيدة العودة للتجسد، تقول في مقالها : «كانت «آن» وهي أخت غير شقيقة، تصغرني بخمسة عشر عاما، فتاة غريبة الأطوار منذ نعومة أظفارها، وهي لم تكن تشبه أحدا من أفراد الأسرة لأن لونها كان قاتما، في حين كان الآخرون شقرا، ينبئون بغير خطأ عن أسلافنا الإرلنديين، وما أن شرعت الفتاة تنطق بعبارات مترابطة حتى أخذت تسرد قصصا خيالية، وللتسلية كنت أخط بقلمي في يوميتي العتيقة ما كانت تثرثر به، ولسبب مشغولية أمي، فقد كان أمر الفتاة موكلا إليّ، وكنت فخورة بأختي، ولم يكن نسيجها

الفكري من خيالات الأطفال المعتاد، بل كان يتضمن شذرات من المعرفة يقصر الطفل عن الإحاطة بها، أو ارتشافها بأية وسيلة.

وثمة أمر آخر عجيب، ذلك أن كل ما كانت تأتيه «آن» كان يبدو أنه بطريق عادة متأصلة في نفسها. وفعلا كان إلحاحها قويا ولو أنها لم تستطع أبدا أن تفسر ما تقصد به. ولو كان قد أتيح للقارئ أن يرى الكيفية الصاخبة التي كانت ترفع بها إلى فمها كوز اللبن، حينما لم تكن قد جاوزت الثالثة فقط من عمرها، وكيف كانت تجرعه في جرعة واحدة، لأغرق في الضحك، وقد أزعج أمي هذا الأمر فوبخت «آن» مرارا. وكانت الطفلة روحا طيبة ومطيعة، فإذا ما أقدمت في لحظة من شرود الذهن على عمل يسبب كمدا، فإنها تشرع فورا في الإعتذارات مرة بعد الأخرى، وتقول بنبرات الطفولة والدموع تترقرق في مآقيها : «لست أستطيع غير ذلك يا أماه، لقد كنت أفعل ذلك بتلك الطريقة !».

وقد بلغت تلك الحركات كعادتها في الكلام والتفكير والتذكر من الكثرة حدا قررنا معه أن لا نعيرها اهتماما، كما أنها هي ذاتها كانت غير واعية بأنها تختلف كثيرا عن أترابها. وحدث ذات يوم حينما كانت في الرابعة أن غضبت مع أبي لأمر ما، وحينما جلست القرفصاء على أرض الغرفة أمامنا كشفت عن نيتها في الإنطلاق ومفارقتنا إلى الأبد.

وأجابت الفتاة بطريقة عرضية : «كلا، كلا، لقد كنت هنا على الأرض مرات عديدة، وأحيانا كنت رجلا، وأحيانا أخرى امرأة !».

وكانت الفتاة رصينة في حديثها حتى أن أبي ضحك ملء قلبه، مما أثار غضب الفتاة لأنها كانت تمقت أن يسخر منها أحد».

وأكدت الفتاة في حنق : «نعم لقد كنت كذلك ! وحدث ذات مرة أن ذهبت إلى «كندا» حيث كنت رجلا. إنني أتذكر إسمي جيدا حينذاك».

وهزأ بها الأب مستخفا وقال : «إن نبات الولايات المتحدة لا يصبحن رجلا في كندا» ! لعمري ماذا كان إسمك الذي تذكرينه جيدا ؟

وصمتت الفتاة هنيهة ثم هتفت قائلة : «كان إسمي «ليشس فابر» ثم رددت الإسم بقوة أوفر «نعم كان إسمي «ليشس فابر»، وقد ربطت النبرات معا بحيث لم أستجمع من اللفظ أكثر من ذلك، وقد يظل هذا الإسم في يوميتي حتى الآن «ليشس فابر». وبادرها الأب بتلك الرزانة الساخرة التي تتلاءم مع تأكيداتها حتى يهدئ ثورة غضبها : «وماذا كانت مهمتك يا «ليشس فابر» في تلك الأيام الخوالي ؟»

وأردفت الفتاة بلهجة الظفر قائلة : «لقد كنت جنديا واستوليت على الأبواب».

وكان هذا ما سجلته بمفكرتي، وأذكر أننا حاولنا مرة بعد أخرى أن نستدرج الفتاة لكي تفسر لنا ما أغلق علينا فهمه من عباراتها الغريبة، ولكنها لا تفعل أكثر من تكرار كلماتها، ثم حنقت منا لعدم فهمها إذ وقف خيالها عند هذا الحد، وكنا إذ ذاك نعيش في أحضان بيئة مهذبة. ورغم أنني رويت القصة لأستعلم عن مغزاها، كما يفعل المرء أحيانا في سرد قصص الأطفال المحبين، فإن أحدا لم يجد لها تفسيرا، على أن البعض استحثني أن أسبرغور الأمر، ولمدى عام عكفت على دراسة كتب التاريخ التي وقعت تحت يدي عن «كندا» بحثا عن معركة «استولى فيها شخص ما على الأبواب» ولكن دون جدوى. وأخيرا وبعد مرور عام فقدت فيه كل أمل في الوقوف على دليل، وجهني بائع كتب إلى مخطوط عتيق ومضحك تتشابه فيه رسوم الحروف وتتشابك، ولئن كان الكتاب عتيقا وغريبا إلا أنه كان بهيا وشيقا في سرده لكثير من القصص، وقد استرعت انتباهي قطعة حجبت من ذهني سائر ما عداها، إذ كانت سردا موجزا لاستيلاء فرقة من الجنود قليلة العدد على مدينة صغيرة مسورة، وهي مأثرة ممتازة من نوع معين، ولكنها ليست بذات بال، ثم قفزت أمام عيني العبارة التالية : «وقد استولى على الأبواب ملازم ثان شاب مع فرقته القليلة العدد، وكان إسم هذا الشاب «ليشس فابر» !».

-XXXXI-

رأي الأرواح في العودة للتجسد

نورد في هذا الفصل حوار ثلث من الأرواح مع بعض أبرز الباحثين في الميدان الروحي، فنبدأ أولا حوار العلامة «كاردك» مع أرواح راقية في موضوع العودة للتجسد، وهي كما يلي :

س- كيف يتأتى للروح أن تنفذ هذا التجسد الجديد ؟ هل بتطور كروح ؟

ج - إن الروح بلا ريب تتطور عند تطهرها، ولهذا الإعتبار بالذات تلزمها محنة العيش الجثماني.

س- إذن فللروح عدة وجودات جثمانية ؟

ج - نعم. فلجميعنا وجودات متعددة، وأولئك الذين يقولون لكم عكس ذلك يرغبون في الإبقاء عليكم في نفس الجهالة التي يعيشون فيها هم أنفسهم، فهذه هي رغبتهم.

س- يبدو كنتيجة لهذا المبدأ أن الروح بعد أن تغادر جسدها المادي قد تتخذ لها جسدا آخر، أو بعبارة أخرى أنها تعود للتجسد في جسد جديد، فهل هذا هو المفهوم ؟

ج - إن هذا أمر واضح.

س- ما هو هدف العودة للتجسد ؟

ج - لتكفير، والتقدم التدريجي للإنسانية، وبغير ذلك أين كانت ستوجد العدالة ؟

س- هل عدد مرات التجسدات واحد للجميع ؟

ج - كلا، إن من يتقدم سريعا يوفر على نفسه المحن، وكل هذه التجسدات المتتابعة دائما متعددة جدا، لأن التقدم يبدو تقريبا بلا حدود.

س- وماذا تصبح الروح بعد تجسدها الأخير ؟

ج - روح سعيدة تماما، لأنها روح نقية.

س- ما هو أساس عقيدة العودة للتجسد ؟

ج - عدالة الله، والكشف عنه، لأننا نكرر بلا توقف القول بأن الأب الصالح يدع الباب دائما مفتوحا لإولاده لكي يندموا، ألا يقول لك المنطق أنه يكون من الظلم أن يحرم نهائيا من السعادة النهائية، وبلا رجعة، كل أولئك الذين لم يكن في وسعهم التقدم؟ أليس جميع البشر أولاد الله ؟ إن الرجال الأنانيين فقط هم الذين نجد لديهم الظلم والحقد المغشوم والعقوبات التي لا تغتفر للآخرين».

هنا يعلق «كاردك» على هذه الإجابات بقوله : «إن جميع الأرواح تميل نحو التقدم، ولقد زودها الله بالوسائل عن طريق اختبارات الحياة الجسدية، لكنه في عدالته يترك لها أن تنجز في وجودات جديدة ما عجزت عن تحقيقه أو إنجازه في اختبار سابق».

ويناقش نقيب الصحافة البريطانية العلامة «هانن سوافر» روح «سيلفر بيرش» - أي الغصن الفضي - وهي روح راقية، حيث يجري الحوار التالي :

س- لماذا لم يعطنا عالم الروح إثباتا للعودة للتجسد ؟

ج - ماذا يمكن أن يكون إثباتا للعودة للتجسد التي لا يمكنك أن تفسرها عن طريق ضبط الروح والسيطرة عليها ؟ إنك ستقبلها فقط عندما يكون وعيك معدا لذلك. عندما يكون واضحا لك أنها قانون، وهذا هو السبب في أن هناك كثيرين في عالمي يقولون أن هذا لا يحدث، لأنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة الوعي التي يعرفون عندها أن هذا يحدث، هل يمكن أن يفسر الصوفي مذهبه الباطني لرجل من رجال الأعمال ؟ هل يمكن أن يفسر الفنان شيئا عن إلهامه لهؤلاء الذين لم يوهبوا رقة إحساسه ورهافة شعوره أو شيئا عن أفكاره الموحاة ؟ إنه لا يستطيع. . . إنهم في مستويات عقلية مختلفة.

س- هل تعرف الروح حتى تكون على وشك أن تتجسد ؟

ج - الروح تعرف، ولكنها لا تستطيع أن تعبر عن ذاتها من خلال العقل، والروح التي هي الروح العظمى إنما تعبر عن ذاتها عن طريق الخلود، بالتدريج خطوة فخطوة، وهناك عند أية مرحلة لا يزال يوجد جزء عظيم غير واضح لم يعبر عنه بعد.

س- إذن هل الروح تتجسد لا شعوريا ؟

ج - يتوقف هذا على حالة تطور تلك الروح، وهناك كثير من الأرواح التي تعرف أنها قد تجسدت قبل، وهناك أرواح أخرى لا تعرف، إن نفوسها ربما تعرف، وإدراكها ربما

يعرف، ولكنها ربما لا تكون معروفة لدى العقل «الواعي»، إنك على صلة بأعظم أسرار الحياة، وأنا أجد أنه من الصعب جدا أن أحصل على كلمات في اللغة الإنجليزية لكي أعبر بها عن الحالات العامة للروح.

س- إذا كانت الحياة في تغير وتطور مستمرين، وكانت العودة للتجسد حقيقة، فكيف يمكننا أن نتحقق من لقاء أحبائنا بعد وفاتنا والإستمتاع بحياة النعيم التي وعدنا بها ؟

ج - إن الحب سوف يميز ويعرف دائما من يقره ويعترف به، لأن الحب أعظم قوة في الكون كله، الحب سوف يجتذب محبيه دائما، والمحب سوف يلتقي دائما بمن يحبه. فليس هناك أي شيء يمكن أن يحول دون الإتحاد بين أولئك الذين يتحابون.

س- ولكن مع العودة للتجسد سيكون هناك انفصال مستمر، فهل هذا يتلاءم مع فكرة النعيم الأبدي ؟

ج - إن فكرتك عن النعيم الأبدي لا تتواءم مع فكرتي عن النعيم الأبدي، إنما الكون وما فيه من القوانين كائن وقائم كما صنعه الخالق لا كما صنعه الخلق، والإنسان العاقل هو ذلك الذي يغير تفكيره عندما يواجه الحقائق الجديدة، لأنه يعرف تماما أنه لا يمكنه أن يبدل الحقائق لكي يرضي هواه.

س- إذا كان حقا ما يقال من أننا كنا موجودين خلال حيوات لا عد لها قبل هذه الحياة، فلماذا إذن لم نكن أكثر تقدما وإرتقاء، وأكثر مثالية مما نحن عليه الآن ؟

ج - أنت يمكنك أن توجد في عالم المادة وتكون قديسا، ويمكنك أن تكون في العالم المادي أحط من الإنحطاط وأتفه من التفاهة، وهذا لا يتوقف على المستوى الأرضي، بل يتوقف على تطور الروح.

س- ألا يزال أمامنا عدد غير متناه من حيوات النضال والكفاح والألم والعذاب، علينا أن نجتازها في المستقبل كتلك التي كابدناها في الماضي ؟

ج - نعم. . عدد غير متناه. . كفاح ومعاناة. . معاناة تجعل الروح بداخلك قادرة على البزوغ نقية مطهرة معززة مؤيدة مهذبة مصفاة مثل الذهب ينبثق من الجوهر الخام بالتحطيم والصقل والتهذيب، إلى أن يتكشف أصله عن طريق تلك العمليات.

س- إذا كان الأمر كذلك، فما جدوى فكرة دار البقاء بعد الموت ؟

ج - إن ما تعتبره اليوم نعيما مقيما لن تعتبره كذلك غدا، لأن السعادة تكمن في الكفاح والجهاد ـ الجهاد دائما ـ، لأن الأعلى والأرقى وراء ذلك.

س- إذا تجسدت الروح، فهل تعود إلى نفس الجنسية كما كانت في آخر تجسد ؟

ج - ليس ضروريا، إنها ستختار المدينة والأمة والسلامة والأسرة التي تراها ضرورية لظهورها الجديد.

س- هل ينطبق نفس الشيء على مسألة الجنس ؟

ج - نعم، ليس من الضروري أن تعود الروح بنفس الجنس الذي كانت عليه من قبل.

س- هل يمكن أن يكون صحيحا أننا نعاقب على ذنوبنا في حياة أخرى على الأرض، كما أننا يجب أن نكفر عن خطايانا قبل أن نرتقي في عالم الروح ؟ هل يعاقبنا الله مرتين عن نفس المعصية ؟

ج - ليست المسألة مسألة عقاب. . . وإنما هي مسألة ارتقاء، واجب يلزم أن يؤدى. . درس يجب أن يعلم ويستذكر. . حلقة أخرى يجب أن تصهر وتطرق وتدخل في سلسلة تهذيب الروح وتثقيفها وإعلائها والسمو بها، إن العودة للتجسد لا تعني دائما أنك يجب أن تعاقب. . إنها تعني في الغالب أن ثمة فجوات أو فراغ ينبغي أن يملأ. . وهذا يمكن أن يكون في بعض الأحيان تأديبا وتهذيبا للأفراد، وقد يكون في أحيان أخرى دروسا لم تعرف بعد. . هذا لا يعني دائما العقاب. . أنت لا يمكن أن تعاقب مرتين، وحين تكون على علم ودراية بـ «القانون» فستعجب من كماله، لأنه لا يطفف الكيل ولا يخسر الميزان، القانون كامل، والشريعة كاملة، والكمال صفة من صفات الله».

ونختم هذا الفصل بما قالته روح «آرثر فورد» عن سر إخفاقنا في تذكر حيواتنا الماضية فيقول : «إننا في كثير من الأحيان نجلب معنا في العقل الفيزيقي «المخ» بعض الذكريات عن حياة الروح، وأحيانا ومضات عن بعض حيواتنا السابقة. وذلك بالأكثر إذا ما كنا قد عقدنا العزم الأكيد على التذكر، وصممنا على أن نواصل السير في نفس الطريق الذي سلكناه في تجسد سابق.

فإن هذه الأفكار تؤثر في أفعالنا وفي آرائنا عندما نكون هناك ـ على الأرض ـ وتظهر منها ومضات باهتة أحيانا في أحلامنا عندما نكون في حالة معلقة من النشاط الفيزيقي. فتلك الأحلام كثيرا ما تكون عبارة عن روابط بالماضي، وإذا كنانلتفت إليها جيدا فقد يكون التقدم أيسر لنا. فهي ليست «هذاءات» لا ضابط لها، بل مجرى مستقر من الوعي يقف إلى جانبنا خلال الأبدية، أو إلى أن تمحى أخطاء الماضي عن طريق أفعال التعويض عن هذه الأخطاء وإصلاحها، فنحن نتطلع مثلكم للوصول إلى اكتمال الروح، ونحن نشاهد أرواحا صقلها

الكمال إلى حد أننا نتطلع إلى أن نصوغ أنفسنا مثلها، ومع ذلك فمجرد تقليد الآخرين ليس هو سبيل النهوض والإشراق، لأن بداخل كل روح توجد معرفة الخير والشر، وكل واحد منا يخضع لتأثير إغراءات الشر والخير، وبالتالي فعلى الرغم من أننا نمثل كلنا جزءا من الكل الأسمى، إلا أن كل واحد منا مختلف عن الآخر مثل اختلاف بصمات الأصابع الواحدة عن الأخرى.

ودعني أؤكد لك أنه لا يوجد إرغام على أي إنسان أن يعود إلى الشكل الفيزيقي، وإذا تخيرنا الإقامة هنا سمح لنا أن نظل هنا للأبد، ولو أن التقدم يكون أكثر مشقة، لكن أولئك الذين يعودون إلى الأجساد المادية سريعا وينتهزون أية فرصة تسنح لهم، ويمضون أياما صعبة في دور الأرض، يتقدمون سريعا بالنسبة إلى أولئك الذين يظلون هنا، ولا يجعلون من أهدافهم إتمام دورة فيزيقية أخرى.

نحن على هذا الجانب في وطننا، وفي هذا الوطن بدأنا المغامرة، وتقدمنا إلى مسالك متعددة باحثين عن فرص التقدم الروحي، ألا ما أحلى الوعود المشرقة التي تقدم هنا، والقرارات المحددة بالتقدم السريع التي تتخذ، والتي سرعان ما تعوقها قوى الأرض وإغراءاتها !.

للأسف إن الأرواح كثيرا ما تعود هنا وهي تجر أذيال الخيبة والهزيمة عندما تدرك أنها لم تحقق التقدم الذي كانت قد صممت على تحقيقه، وفي مبدأ الأمر تحاول أن تلقي التبعة على الظروف، أو على شخص آخر بوصفه مسؤولا عن إعاقة تقدمها. لكن مضي الوقت وعندما تكرس الروح نفسها على هذا الجانب للتأمل اليقظ فيما جرى، تبدأ في إدراك أنها هي بذاتها مصدر فشلها لإصرارها على خصالها الرذيئة القديمة.

وعندئذ ماذا تفعل الروح ؟ إنها تعتزم أن تراجع بإخلاص كل خطأ اقترفته عندما كانت لا تزال في جسدها الفيزيقي. فراجعوا بيقظة أنفسكم وأنتم في عالمكم قبلما تراجعوها عند وصولكم إلى هذا الجانب. ولتتم المراجعة عندما تكون الفرصة لا تزال سانحة لتغيير إتجاه الطريق، وللإرتفاع إلى مستويات أعلى، لأن كل ما تملك الروح أن تفعله هنا هو أن تراجع نفسها، وأن تلزم نفسها بالسداد، وأن تدرس، وأن تعد نفسها للدورة القادمة في حياة الجسد.

وهكذا فأنتم لا تزالون أصحاب فرصة لكي تنفذوا مهمتكم الأصيلة، أو بالأقل لكي تضيئوا الطريق أمام الآخرين، وهو ما يمنحكم فرصا إضافية مجانية مضمونة الفائدة».

أهم المراجع

الإنسان روح لا جسد ـ جـ 1 ـ تأليف الدكتور رؤوف عبيد، طبعة 1964م القاهرة

الإنسان روح لا جسد ـ جـ 2 ـ تأليف الدكتور رؤوف عبيد، طبعة 1964م القاهرة

الجديد في التكوين الروحي وأسرار السلوك ـ جـ 1 ـ تأليف الدكتور رؤوف عبيد، طبعة 1982م القاهرة

الجديد في التكوين الروحي وأسرار السلوك ـ جـ 2 ـ تأليف الدكتور رؤوف عبيد، طبعة 1982م القاهرة

الإتصال بين عالمين ـ تأليف ماتيو مانِنج ـ تعريب وتقديم الدكتور رؤوف عبيد، طبعة 1981م القاهرة

في العودة للتجسد ـ تأليف الدكتور رؤوف عبيد ، طبعة 1976م القاهرة

على حافة العالم الأثيري ـ تأليف ج. آرثر فندلاي، تعريب وتقديم أحمد فهمي أبو الخير، طبعة ثانية 1945م القاهرة

الأرواح ـ تأليف الشيخ طنطاوي جوهري، طبعة ثالثة 1931م مصر

النفس البشرية عند ابن سينا ـ تأليف الدكتور ألبير نصري نادر، طبعة 1968م بيروت

عالم غير منظور ـ تأليف يميني زهار، طبعة 1982م بيروت

رحلة الإنسان من الجنين إلى الجنان ـ تأليف مير قطب الدين عنقاييـر أوتسي ترجمـة وتقديم دكتور إبراهيم الدسوقي شتا، طبعة 1978م القاهرة

وازن الأرواح ـ تأليف أندريه مورو ـ تعريب الدكتور عبد الحليم محمود ـ طبعة 1971م القاهرة

الفهرس

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس



الروح والروحية الحديثة

للمؤلف :

- **حياة الأرواح وطرق الاتصال والعلاج**
  توضيح لغز الموت - مصير الروح - ... - طرق الاتصال والعلاج - بأسلوب مبسط
- **الروح والروحية الحديثة**
  توضيح إثبات وجود الروح - حياة الآخرة - عالم الأثير - ظواهر الاتصال بالجن ... إلى غير ذلك
- **باطن الإنسان ملتقى الروح والشيطان**
  ... - كيف تستغل ... من طرف الأرواح - ... روحية
- **الشفاء بالنوم المغناطيسي والطاقة الروحية**
  ... - ... الطاقة المغناطيسية الشخصية - استعمالها في شفاء الأمراض النفسية والجسمية ... إلى آخره
- **الصيدلية الشعبية للعلاج بالأعشاب**
  ... - فوائد الخضر والفواكه والعسل - العلاج الطبيعي - العلاج بالأعشاب ...
- **صيدلية الفقير بالعلاج اليسير**
  ... - ... بالتسمية العربية أو ... - علاجات سهلة لأمراض كثيرة - ... من الأعشاب
- **التصوف مشكاة الحيران**
  ... - ... والتطهير إلى الله
- **يا بني**
  ... - ... الطريق المستقيم - ... على الكتاب والسنة
- **الخليج العربي وعدوان الحلفاء على العراق**
  ... خلال 1990-1991م - ... العراق للكويت - عدوان الحلفاء على العراق - ... - النظام الدولي الجديد ... إلى آخره
- **أرخبيل "ديوان شعر"**
  ... - غزل - فخر - ... - مديح - هجاء - ... - سياسيات
- **نفحات الروح "ديوان شعر"**
  ... - روحانيات - ... - تأملات - نصائح وحكم
- **عض العنادل "ديوان شعر"**
  ... - وصف - ... - ... الطابع الديني
- **ديوان أم المعارك "ديوان شعر"**
  ... من الشعراء العرب في عدوان أمريكا وحلفائها على العراق خلال 1990-1991م والتي ... أم المعارك
- **الإرشاد الديني للتلميذ "قصص"**
  ... للمستويات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة من التعليم الأساسي ... الأول


ISBN 9981-25-160-7
9 789981 251601